

الباب الأول

تاريخ التربية في مصر

الفصل الأول: التاريخ وتاريخ التربية.

الفصل الثاني: التربية في مصر الفرعونية.

الفصل الثالث: التربية في العصرين اليوناني، والروماني من سنة ٣٢٣ ق.م. حتى ٣٣٠م (أو عصر سيادة الثقافة الهلينستية).

الفصل الرابع: التربية في مصر البيزنطية: (عصر سيادة الثقافة القبطية)

الفصل الخامس: التربية في الحضارة الإسلامية في مصر

الفصل السادس: التعليم في عهد الدول المستقلة (منذ قيام الدولة الطولونية ٢٥٤هـ / ٨٦٨م حتى قيام الخلافة العثمانية ١٥١٧م)

إعداد

الدكتورة/ نجلاء محمد حامد

الفصل الأول التاريخ وتاريخ التربية

أولاً: أهمية دراسة تاريخ التربية.

ثانياً: الاتجاهات الأساسية في دراسة تاريخ التربية.

ثالثاً: أهم المفاهيم التربوية.

الفصل الأول التاريخ وتاريخ التربية

دراسة التاريخ:

إن التمهيد التاريخي لأي علم من العلوم أو فن من الفنون، أو حتى في دراسة مشكلة من المشكلات لا يعد من قبيل التباهي العلمي أو الحشو المنهجي، بقدر ما هو تمهيد لإيضاح تطور تلك العلوم أو تمهيد لحل مشكلة من المشكلات، يتعرض لها حاضر مجتمع من المجتمعات.

وإذا كان حاضر أي مجتمع ما هو إلا الرصيد الثقافي المتراكم لهذا البلد عبر عصوره المختلفة، والتي شكلت وضعه الراهن وسماته المختلفة، ومن ثم يصبح التمهيد التاريخي، خطوة منهجية هامة تفرضها الكتابة العملية في أي مجال من المجالات العلمية، لا يمكن بدونها الوقوف على الأبعاد المختلفة للموضوع قيد الدراسة والتعايش معها حتى لا يغيب واقعنا فنضل مستقبلنا^(١).

وإذا تم النظر لضرورة الدراسة التاريخية من هذا المنطلق لغدت تجسيدا فعليا لشخصية المجتمع الذي نبحث عن جذور مشكلاته.

وإذا كان التاريخ هو العلم الذي يسعى إلى إنقاذ حقائق الماضي من النسيان، ويساعد الإنسان على فهم حاضره ومستقبله، أو بمعنى آخر هو العلم الذي يعنى بالتفاعل الذي تقوم على أساسه حركة تطور المجتمعات، فإن الإنسان هو الذي يقوم بتلك الحركة وهو الذي يعيشه في تلك المجتمعات، أصبح من الضروري أن تغدو دراسة التاريخ هي دراسة لحياة الإنسان وتطورها في إطار العوامل المجتمعية المختلفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى الثقافية والروحية أو بمعنى أكثر دقة أصبحت الدراسة التاريخية هي البحث عن ملامح الشخصية القومية في إطار زمني معين، مما يضعنا أمام مسئولية هامة وهي البحث عن الجذور التاريخية للشخصية المصرية من خلال دراسة تاريخ التربية في مصر، واضعين في الاعتبار القيمة الحضارية والثقافية الهامة لمصر على ثقافات العالم من عصر لآخر^(٢).

فإذا أهملنا دور تلك الشخصية فيما نضعه من حلول وإصلاحات لباعت جميع محاولتنا بالفشل وعجزنا عن وضع حلول جذرية لمشكلاتنا التربوية.

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ط ٥، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤، ص ١٢.
(٢) سعد مرسي أحمد، سعيد إسماعيل علي: تاريخ التربية في مصر، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧١، ص ٦.

أهمية دراسة تاريخ التربية:

إذا كان التاريخ هو العلم الذي يساعد الإنسان لكي يفهم ماضيه حتى يدفع بحاضره إلى التطور من أجل تحسين صورة المستقبل؛ فإنه من البديهي أن نتساءل كيف يمكن لهذا العلم أن يفيدنا في مجال العمل في التربية؟ أو بمعنى آخر ماذا يعيننا من دراسة تاريخ التربية؟

فإذا كنا نسعى بالفعل إلى رسم سياسة جديدة لتطوير التعليم في مصر، فإننا ولا شك لا نبدأ من فراغ، وإنما من خلال ما أسفرت عنه تجربتنا الطويلة واجتهاداتنا التربوية بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات، وأن ندرس حركة تطورها في مصر لننتعرف على القوى والعوامل التي أدت إلى ازدهارها أحياناً أو صعفها واندثارها أحياناً أخرى، مما يساعد ولا شك في وضع تصور ورؤية مستقبلية سليمة^(١).

وإيماناً بهذا يمكن إجمال فوائد دراسة تاريخ التربية في النقاط التالية:

إن تاريخ التربية ليس سرّاً أو وصفاً لنظام التربية، أو نظمها في الماضي، بقدر ما هو دراسة جادة وهادفة للخروج من الماضي بالعبارة التي نستفيد بها في الحاضر، فيخرج من حلالها الدارس لتاريخ التربية بوسيلة ربط مناسبة بين القوى الثقافية المختلفة في كل عصر وما يقابلها من تغيرات في نظم التربية، وما تخلفه من مشكلات في تلك النظم. بعرض تفسيرها ومحاولة التعرف على كيفية التوصل إلى حلول لها ولعل أبلغ مثال على صدق ذلك هو ما يتأتى بالتأمل في العديد من المشكلات التعليمية التي تواجهنا في الحاضر وتمتد جذورها إلى وقت بعيد فعلى سبيل المثال لا الحصر:

- النظرة الدوبية لوضع ومكانة المعلم والتي تتأى بأبنائنا عن الرغبة في تلك المهنة.
- كذلك الفجوة الكبيرة بين مستويات هذا المعلم وبين ما نقدمه له في مقابلها.
- غلبة الشكل والكم على المضمون في كثير من المقررات الدراسية.
- استمرار غلبة الطابع النظري على الدراسة حتى في المناهج العملية.
- الرغبة في تحقيق تكافؤ الفرص التعليمية في خضم نماذج متفاوتة من الأشكال التعليمية.
- عدم التوازن بين الناتج التعليمي وحاجة المجتمع الاقتصادية منه.

(١) مصطفى كمال حلمي: حركة التعليم في مصر "بين الماضي والحاضر والمستقبل وبعض مبادئ واتجاهات الإصلاح، تقرير مقدم لورارة التربية والتعليم (يونيه ١٩٧٤)، ص ٣.

- مواجهة اتجاهات تربوية حديثة - التربية المستمرة، التعليم عن بعد، التعليم المفتوح .. إلخ - بوسائل مازالت قديمة. (عدم ملاحقة النظم والأساليب التعليمية المتبعة لتطور الزمن).

- ولعل الأكثر أهمية هو عجزنا عن تبني نظرية تربوية مصرية تعفينا من التخبط في تجريب كل ما هو وافد وجديد، وتتيح لنا المجال لوضع أسس للتخطيط نحو التقدم.

ولعل تلك المشكلات وغيرها تؤكد أنه من الضروري للباحث التربوي أن يسعى وراء جذور تلك المشكلات ليوقف على العلل من أجل وضع الحلول الحاسمة للقضاء عليها وهو ما لا يتأتى إلا بدراسة واعية لتاريخ التربية نخرج منها بالعظة والمعرفة الحقة^(١).

كذلك تهدف دراسة تاريخ التربية إلى مناقشة القوى المؤثرة في التربية للخروج منها بوجهة نظر تربوية (نظرية)، والعمل على توظيفها من أجل تحليل ومناقشة المشكلات التربوية التي من شأنها أن تكون ذات أثر فعال في تغيير السمات الحضارية لأي مجتمع من عصر إلى آخر^(٢).

وتاريخنا القومي ملئ بالأمثلة على تلك القوى، كالباعث الديني ودوره الفعال في التربية المصرية القديمة، أو العامل الاقتصادي الاستعماري الذي ساد نظام التعليم في عهد الاحتلال البريطاني للبلاد بغرض السيطرة الاقتصادية، أو الدور الكبير الذي قامت به القومية المصرية في التعليم في مصر القبطية والذي ظهر جليا في سمات المؤسسات والمناهج .. إلخ.

دراسة تاريخ التربية والتعليم تساعد الدارس على الوقوف بصورة واضحة على عوامل القوة والضعف والثبات والتغير في سمات النظام التعليمي في المجتمع من فترة تاريخية إلى أخرى، أو بمعنى آخر أن دراستنا لتاريخ التربية والتعليم في مصر تساعدنا على وضع تصور واضح لرؤية مستقبلية حول إصلاح نظام التعليم وتطويره في مصر، لا عن طريق الحدس أو التخمين، وإنما تتبؤ مدروس بناء على ما اكتسبه الدارس من دراسة وتحليل تلك القوى المجتمعية^(٣).

الوقوف على العوامل والقوى المؤثرة في التربية المصرية يساعدنا على تبني نظرية تربوية مصرية خالصة، والعمل على توظيفها من أجل تحليل ومناقشة مشكلاتنا التربوية الحالية، بدلا من تبني نظريات وافدة لنماذج

(١) سعيد إسماعيل وآخرون: تاريخ التربية، القاهرة، مطبعة الكتاب الحديث، ١٩٩٧، ص ٢٠.

(٢) Radwan (A.A.F.) Old and New Forces in Egyptian Education, New York, 1951, Int.

(٣) عبدالغني عبود: دراسة مقارنة لتاريخ التربية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٨، ص ٤٣.

تربوية غربية عن ثقافتنا تؤدي إلى تخبط نظامنا التعليمي ومن ثم فقدانه لهويته الشخصية^(١).

كذلك فإن أي مجتمع متحضر لابد وأن يحرص على وضع نظام تربوي قوى يحقق من خلاله أهدافه في التقدم والرقي، ويعكس خصائصه الثقافية والدينية والاقتصادية والاجتماعية، حيث تكون التربية وليدة هذا المجتمع بكل ما فيه من عوامل مختلفة، وتكون النظم التربوية هي الشاهد على ما بلغه هذا المجتمع من حضارات وتقدم، لذا يستحيل وجود نظام تربوي منفصل عن العوامل الاجتماعية المحيطة به حيث أنه يؤثر فيها ويتأثر بها. وبمعنى آخر لكي نقف على ما أحرزناه من تقدم، لابد لنا أولاً من الوقوف على الجهود السابقة التي بذلت في الماضي وأوصلتنا لما نحن عليه اليوم، حتى نتمكن من التطلع إلى المستقبل "ولعل لنا دوراً في بنائه فلا يكفي ولا يجب أن نأكل ثماراً من شجرة زرعها السابقون دون أن نزرع نحن شجراً يثمر للقادمين"^(٢).

ومما لا شك فيه أن دولة ذات حضارة عظيمة وشخصية ذات سمات خاصة كالدولة المصرية، ينبغي أن يقدم تاريخها الحضاري بصورة كاملة، لما يمثله هذا من أكبر الأثر في بناء السمات القومية لشعبها بناءً سليماً، ومن هنا أصبح لزاماً كما أشار صاحب سندباد مصري إلى أن نطالع "حياة مصر الروحية، وحياة الشعب المصري...، لأننا بدون فهم تلك الحياة، لن نعرف من تاريخنا شيئاً غير تاريخ مصر الإسلامية، فهو التاريخ الحي في نفوسنا إلى اليوم"^(٣).

ولعل مما سبق تتضح أهمية دراسة تاريخ التربية كوسيلة مثلى في فهم النظريات التربوية المعاصرة، وتبني إحداهما للعمل على تحديث نظامنا التعليمي وتطويره في ظل إطار التقدم العلمي والثقافي العالمي. ثانياً: الاتجاهات الأساسية في دراسة تاريخ التربية:

دراسة تاريخ التربية هي قصة البشرية منذ بدأ الإنسان حياته على سطح الأرض حتى يومنا هذا.

ونظراً لأن المعرفة التاريخية تتميز بطبيعة خاصة هي اتصالها بالماضي وتفاعلها مع أشياء لا توجد بالضرورة في الوقت الحاضر، لذا كان من الصعب الإلمام بكل حقائق الماضي وتفاصيله وعلى الباحث في تاريخ التربية أن يتخير أنسب الأساليب والطرق لمعالجة قضايا التربية من المنظور التاريخي ويتحقق ذلك بعدة طرق منها:

(١) مصطفى كمال حلمي، مرجع سابق، ص ٣: ٤.
 (٢) سعد مرسي أحمد: تطور الفكر التربوي، ط٣، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٥، ص ٣٦.
 (٣) حسين فوزي: سندباد مصري، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩، ص ١١٧-١١٨.

أ- من ناحية الشكل:

١- الطريقة الطولية (المنهج الطولي أو الرأسي):
بناء على هذا المنهج تدرس التربية من الناحية التاريخية في صورة مشكلات أو موضوعات وتعالج كل مشكلة أو موضوع عبر العصور المختلفة^(١).

مثلاً: يدرس التعليم الابتدائي عبر العصور المختلفة وفي المجتمعات المختلفة وبنفس الطريقة يدرس التعليم الثانوي أو الجامعي أو إعداد المعلم.

عيوب	مزايا
- نتناول جزئيات من التربية أو جوانب منها كل جانب على انفراد. - تؤدي إلى التكرار أحياناً إذا عالجت كل موضوع على حده.	- يعطي الموضوع الاستمرار ونحن نتابع تاريخ الموضوع وتطوره. - تفيد في الدراسات العليا.

٢- الطريقة العرضية (المنهج العرضي أو الأفقي):

وهو المنهج الشائع في دراسة التربية ويقوم هذا المنهج على أساس: الدراسة المقطعية للتربية في المجتمعات المختلفة عبر العصور المختلفة وهي الطريقة الأكثر شيوعاً في دراساتنا العربية. وبناء على هذا المنهج تقسم العصور عادة إلى ثلاثة:

- ١- العصور القديمة. ٢- العصور الوسطى. ٣- العصور الحديثة.
- العصور القديمة: في مصر الفرعونية أو في الهند في اليونان أو في الصين.
- العصور الوسطى: تدرس التربية المسيحية والإسلامية.
- العصور الحديثة: المذاهب الفلسفية والتربوية في العصور الحديثة مثل الحركات: الطبيعية- الواقعية وغيرها^(٢).

(١) سعيد إسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم في مصر، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٥، ص ٢٠.

(٢) سعد مرسي أحمد، سعيد إسماعيل علي: مرجع سابق، ص ٢٣.

ب- من ناحية المضمون: هناك أكثر من طريقة:

طريقة السرد	الطريقة التحليلية	الطريقة النفعية
تتمثل في الاقتصار على سرد الأحداث سرداً زمنياً ومكانياً دون التعرض لتفسيرها أو تحليلها.	تحاول تحليل العلاقات الزمانية والمكانية للأحداث والظواهر التربوية بحيث تصبح لها معنى وتفسيراً.	يعتبر التفسير النفعي لتاريخ التربية من أكثر التفسيرات شيوعاً حيث يفسر في ضوء احتياجات وظروف العصر.
- هذه الطريقة تترك للقارئ استخلاص النتائج وإدراك العلاقات.	- يلعب الباحث دوراً هاماً في المعنى والتفسير الذي يصفه على هذه العلاقات.	
- تخلو من أثر العامل الشخصي للباحث.		

وأحسر الأساليب معالجه نمصوم تاريخ التربية هو الأسلوب الذي يمزج بين هذه الطرق والاساليب جميعاً بحيث تستخدم كل طريقة في الموقف الذي يتطلبها وبحيث تتكامل هذه الأساليب فيما بينها لتعرض الظواهر التربوية في صورة مترابطة لاستخلاص الدروس المستفادة منها. منهج الدراسة الحالية:

ستتخذ هذه الدراسة من التاريخ للتطور التربوي في المجتمع المصري منذ أقدم العصور وحتى اليوم، منهجاً لها. حيث يتيح هذا المنهج الفرصة لتتبع حركة التربية في فترات صعودها وهبوطها وقوتها وضعفها داخل المجتمع المصري. وعلى هذا يستوجب هذا المنهج الوقوف على القوى الثقافية المختلفة - من أحوال سياسية واقتصادية ودينية وغيرها - وإيضاح ما هو ثابت منها كطبيعة الأرض وما هو متغير داخل نظمها، مع الوقوف على المتغيرات وحدها في الفترات التاريخية المختلفة منعاً للتكرار.

كذلك فإن هذا المنهج يعتبر أداة تتيح للتربويين وغيرهم فهم دور الفكر التربوي في تاريخ التربية، ويجلي سمات الشخصية القومية والدور الوطني من خلالهم وأثرها على التعليم من فترة إلى أخرى.

فتاريخنا القومي مليء بالعديد من أصحاب الفكر التربوي ممن لا يقل دورهم - بحال من الأحوال - عن إعلام الفكر التربوي الغربي، فلا يمكن إغفال آراء جمال الدين الأفغاني، أو الجبرتي والشيخ العطار، أو الفكر التربوي المتميز للإمام محمد عبده والطهطاوي وعلي مبارك، وحتى السياسيين والاقتصاديين ممن تركوا بصماتهم على التعليم كالنديم والكواكبي وطلعت حرب وغيرهم.

وهذا المنهج يتيح بلا شك الفرصة لدارسي التربية في الوقوف على منظومتنا التربوية ودورها في الحضارة المصرية على مر التاريخ، وهي ما تثبت وبلا شك أن المصري لم يكن مجرد ناقل لفكر وثقافة أو حضارة حتى في أشد فترات السيطرة الفكرية الهلينية أو في التربية المسيحية أو الإسلامية كانت المدرسة العلمية المصرية ذات بصمة خاصة ومتميزة، مما يمنح الأمل ولا شك في نفوس واضعي برامج الإصلاح التربوي في تبني نظرية تربوية مصرية تعالج مشكلاتنا التربوية من جذورها وتضع لها الحلول الملائمة فنتجه بخطى ثابتة نحو مستقبل ثقافي جدير بأقدم المجتمعات الحضارية في العالم.

أهم المفاهيم التربوية:

لما كان النظام التربوي في أي مجتمع إنما يعود أثره بالدرجة الأولى على هذا المجتمع عن طريق ما يظهره فيه من جوانب ثقافية وحضارية تمثل علاقة تفاعل متبادل ما بين المجتمع والتربية، لذا فإن الأمر يستلزم بداية التعرف على صورة المجتمع التي تؤدي فيه التربية تلك الوظيفة، وكذلك التعرف على المفاهيم والمصطلحات المجتمعية التي تتفاعل مع التربية بغرض تيسير عملية التحليل والتفسير للباحث المهتم بدراسة تاريخ التربية وهو ما لا يتأتى إلا بوضوله لدرجة من المعرفة في التفرقة بين تلك المفاهيم التربوية المستخدمة مثل (التربية - الحضارة - الثقافة - الفكر التربوي - الإصلاح التربوي .. إلخ) - وهي التي لا يخلو مرجع في تاريخ التربية من تناول بعضها أو كلها - والتعرف على علاقة كل منها بالأخرى ومن ثم علاقتها جميعاً بدراسة تاريخ التربية. ومن هنا سنتسعى الدراسة لمحاولة الوقوف على بعض هذه المفاهيم بصورة بسيطة ومختصرة لمساعدة الدارس على التحليل التاريخي للتربية.

١- التربية:

وهي المصطلح الذي لا تخلو منه كتابة تربوية وفهمه هو الأساس لتفسير المجالات التربوية المختلفة.

أما عن الأصل اللغوي لكلمة التربية فهي ترجع للجذر اللغوي ربا: بمعنى زاد ونما، والرابية: وهو ما ارتفع من الأرض وربى، وأربى أخذ أكثر ما أعطى .. ومن هنا فإن لفظ التربية يشير إلى معنى الزيادة والنمو لكافة الكائنات الحية من حيوان ونبات وخلافه وهو هنا اتجاه النمو الرأسي الخاص بالزيادة^(١).

أما التربية في الإنسان فالمقصود بها إحراز النمو والزيادة في جوانبه المختلفة الجسمانية والنفسية والمهارية والوجدانية، وذلك بالعمل على تدريب

(١) ابن منظور: لسان العرب، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٣٠٢هـ، باب ربا.

هذا الإنسان للتفاعل مع مجتمعه والقيام بأدواره المجتمعية في الحياة وتحقيق الأغراض العليا للتربية عن طريق العلم والعقل واستخدام المعرفة والتي تتم من خلال أهداف معينة تقوم بها مؤسسات مسئولة عن تحقيق تلك الغايات التربوية العليا.

ومن هنا يتضح أن التربية هي كافة النظم والطرق والوسائل والأساليب التي يتبناها مجتمع ما - بقصد أو بدون - من أجل إكساب الأجيال القادمة الأفكار والمعلومات والمبادئ والقيم والعادات التي يتبعها ويرغب في استمرارها في الأجيال القادمة، وهو من أجل ذلك يسخر قواه ومؤسساته المختلفة - من أجل التأكد من تحقيق تلك الأهداف - من الأسرة والمدرسة والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والترفيهية حتى نظمته المختلفة بحيث تتضافر في نسيج واحد متداخل من أجل تحقيق أهدافه ونقل تراثه الثقافي والفكري عبر الأجيال^(١).

ومن هنا فإن التربية هي عملية نمو مقصودة ومستهدفة تشمل الإنسان في جوانبه المختلفة وتتضافر كافة الجهود المجتمعية من أجل تحقيقها.

٢ - الحضارة:

وهي المصطلح الذي تكاد لا تخلو منه الكتابات في التاريخ أو تاريخ التربية وترجع كلمة حضارة إلى الأصل اللغوي لها وهو: حصر - والمقصود به الحضور مقابل الغيبة، كما أشير إليها على أنها الإقامة والسكن في الحضر - والمدن والقرى - مقابل أماكن البداوة.

وحضر الشيء: أي شاهده - وحاصرة الشيء: القريبه منه.

وحاضرة البلد: هي المدينة أو عاصمة الحكم.

والحضارة: لفظ استخدمه العرب بعد عصر الرواية بمعنى: ما اجتمع لشعب أو أمه ما من مظاهر الرقي العلمي والفني والاجتماعي وبين صلح لسان العرب، أن الحي الحاضر هو الذي يستقر به الناس في إقامة دائمة لوجود الماء به .. والحاضرة: هي المدينة التي يقيم فيها الحكام المؤسسات وعواصم المدن، كذلك أسماها "حاضرة" لأن أهلها حضروا إليها وسكنوها وعمرها^(٢).

إذا كل ما سبق يفيد إلى أن الحضارة هي رمز للأمة التي أعمرت أرضها ووفرت فيها سبل الاستقرار والتقدم.

(١) أحمد المهدي، كيف نربي الطفل من أجل الإصلاح الحضاري (منظور إسلامي

حضاري معاصر)، مؤتمر دور تربية الطفل في الإصلاح الحضاري - القاهرة

٢٧-٢٩ يونيو ٢٠٠١، ص ١٢.

(٢) ابن منظور: مرجع سابق، باب حضر.

ولعل ما يؤكد هذا الرأي هو تفسير ابن خلدون في مقدمته لمعنى الحضارة حيث ربط بين لفظ الحضرة ولفظ العمران عنده في كل ما يخص نظم الحكم وتنظيم العلاقات بين الملك والدولة، كذلك ربط بينها وبين الصنائع - من فلاحه وبناء وتجاره، وحياكة، توليد، طب، تعليم، لغة - لإكمال العمران وأنها أساس صلاح الأمصار^(١).

أي أنه نظر للحضارة على أنها كل محاولات البشر من أجل "تغيير" الطبيعة وتسخير مواردها لتيسير مظاهر حياة الإنسان على الأرض^(٢). أي أنها كما أشار صاحب كتاب الحضارة "هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية"^(٣).

إذاً الحضارة هي كل العمليات التي تشمل مظاهر التقدم التي ينشأها الناس من تقدم مادي أو فكري أو علمي أو فني أو حتى جمالي في بيئاتهم ومؤسساتهم وهي عمليات تتسم بالتعقيد والتداخل والدينامية وتشمل كثير من التغيرات التي تتم للتفاعل بين تلك المجالات المختلفة، وقد تتشابه نتائج هذه التفاعلات في عدد من الدول الإسلامية، إلا أن صور هذه الحضارة تختلف في خصائصها الخاصة من مجتمع لآخر أي أن التشابه عادة ما يكون في الشكل وليس في المضمون^(٤).

وحضارة البشر لا يكون لها وجود دون جهد الإنسان وطاقاته فهو الذي يقوم بتجربة ثمار التطور الحضاري وهو الذي يفكر في تطويرها وتحسينها من خلال ما يوجده من اكتشافات وما يقوم به من تجارب، وما يساهم به من عمليات عقلية من تحليل وتعليل وتفكير وغيرها^(٥).

من هنا يظهر أن الحضارة هي ظاهرة إنسانية، حيث أن الإنسان هو الكائن الوحيد التي يسعى لأن يرتقي بظروفه المعيشية مستخدماً ما حباه الله به من عقل وقدرات، يسخرها في تفاعله مع ذاته ومع الآخرين وهذا يعني أنه لا يوجد شعب بدون حضارة وإن اختلفت صورها أو مظاهرها، فكل الأجناس متحضرة، وما من شعب إلا وله مستواه الحضاري، حتى الجماعات البدائية لها حضارتها ما دامت تسعى كغيرها من الشعوب من أجل تحسين أحوالها.

(١) ابن خلدون: المقدمة، ط٦، بيروت، دار القلم، ١٩٨٦، ص ص ٣٦٨ - ٣٧١.

(٢) أحمد المهدي، مرجع سابق، ص ص ٩-١٠.

(٣) حسين مؤنس: الحضارة (دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها)، عالم المعرفة، عدد ٢٣٧، الكويت، ١٩٩٨ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

(٤) أحمد المهدي: مرجع سابق، ص ١٠.

(٥) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ص ١٥-١٧.

أما ما نصف به شعب معين بأنه متحضر فهذه حركة المجتمعات أو العمران التي وصفها ابن خلدون بأنه تأتي حوادث تاريخية معينة في زمن من الأزمان تخرج بالسكان عن طور من البداوة إلى طور الحضارة^(١). كنزول بعض الأمم من قمم الجبال لأودية الأنهار كما حدث مع أهل مصر فتستقر هذه الجماعات وتبدأ في صناعة حضارتها، حيث أن الاستقرار هو مؤشر ميلاد الحضارة وكان مؤشر ميلاد الحضارة المصرية القديمة.

لذلك فإننا نصف غالبية المجتمعات التي وجدت منذ الألف الرابع ق. م. بأنها مجتمعات حضارية كالحضارة المصرية القديمة أو اليونانية.. الخ ويجتهد المؤرخون لدراسة عوامل قيامها وانهارها، وهو الانهيار الذي يمثل إعادة تجميع للمظاهر الثقافية لهذه الشعوب مرة أخرى بصورة جديدة وأكثر فعالية في بعض الأحيان مثلما كان من الحضارة الغربية التي قامت على إنقراض غزو البرابرة للإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي وهي الحضارة التي اتخذت من التقدم العلمي والتكنولوجي والجغرافي وسيلة للتقدم على مدى الألف سنة الأخيرة فبقيت ولا تزال حضارة قائمة حتى الآن^(٢).

فإذا كان التاريخ هو الذي يحدد حركة الحضارة ومظاهر قوتها أو ضعفها من عصر لآخر، إذا فما هي علاقة التربية بالحضارة ولماذا تعني التربية بدراسة الحضارة؟ فكما سبقت الإشارة إلى أن التربية لها أصولها وجذورها في الماضي وتسعى للتجديد المستقبلي بما تجده من نظريات تربوية وتستحدثه من نظم تعليمية، فإن الحضارة هي التي تحدد مدى واتساع هذه النظم التعليمية، فتحدد من يتعلم؟ وماذا يتعلم؟ وإلى أي مدى؟ كما تحدد أنواع هذه النظم التعليمية وكون التعليم إجبارياً أم اختيارياً وحتى النظام المدرسي، وذلك من خلال ما يضعه المجتمع من قوانين تربوية للتحكم في هذا النظام^(٣).

الثقافة:

إن مفهوم الثقافة من المفاهيم التي تلعب دوراً كبيراً في مجالاتنا الحياتية اليوم ولا سيما في إطار التقدم العلمي والتكنولوجي والتداخل الكوني الكبير، فبدأت كلمة الثقافة تتداخل في العديد من العلوم ومن ثم أصبح من

(١) ابن خلدون: مرجع سابق، ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) آر. إيه. بوكانان، الآلة قوة وسلطة، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، عدد ٢٥٩، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والفنون، ٢٠٠٠، ص ٢٦: ٢٨. (التكنولوجيا والإنسان منذ القرن ١٧ حتى الوقت الحاضر).

(٣) سعد مرسي وآخرون، تاريخ التربية وتاريخ التعليم في مصر، القاهرة، كلية التربية، ج. عين شمس، (د.ت)، ص ١١.

الضروري محاولة إلقاء الضوء على بعض جوانب هذا المصطلح الهام وبيان العلاقة ما بينها وما بين الحضارة والتربية^(١).

فأصل الكلمة كما وردت في "لسان العرب" (في باب ثقف ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة: أي حذقة: فالرجل الثقاف هو الحاذق الفاهم للشيء. وأضاف صاحب "أساس البلاغة".

إنني إذا قلت ثقفتُ العلم أو الصناعة: أي أسرعت أخذه وظفرت به وإن المثاقيف: حسن الثقافة.

وأضاف أنه في المجاز يأتي مصاحب للتأديب فيقال أدبه وثقفه كذلك يقال وهل تهذبت وثقفت إلا على يدك.

أي أن المعنى اللغوي للمصطلح يشتمل كل ما يحتوي على إدراك الشيء أو العلم والخدمة والبراعة فيه، وكذلك فإنه ما يدرك حين يربي أو يهدب ويدرب عليه ويتعلمه.

من هنا يمكن أن ننظر إليها على أنها أسلوب للحياة لشعب من الشعوب فلا خطأ في ذلك أيضاً فأسلوب الحياة هو ما يربي ويهدب عليه الإنسان وليتضح هذا المعنى يمكن القول بأن لكل بلد في الدنيا ثقافته الخاصة أو كما أوصحها صاحب كتاب الحضارة بأنها كالفارق بين العلم والفن فالعلم واحد كالطب مثلاً وإن اختلفت البلدان أما الفن فعلى خلاف ذلك وبخاصة الأدب كاهم فروعه فهو يختلف من بلد لآخر في اللغة والموضوعات وحتى إن اتحدت اللغة اختلف وفقاً لدوق وطبع أهل البلد. إذاً فلأن العلوم عالمية فهي ما قد يطلق عليه حضارة، أما الفنون لأنها تعبر عن سمات شخصية مميزة فهي ثقافة^(٢).

كذلك أكد جون ديوي على نفس هذا المعنى بأن النظر للثقافة من حيث كونها تهديبا وتربية لعدد من الأشخاص ليست نظرة قاصرة، وإنما هو معنى اخذ في النمو، حيث أنه كما وصفه بأنه "تلك الطراز من الشعور والفكر الذي يميز شعباً أو حقبة ككل"^(٣).

أي أنها نتاج كل جهد ونشاط إنساني نابغ عن البيئة ومعبراً عنها متضمناً داخله عادات وتقاليد وفنون تلك البيئة، أي أنها أسلوب حياة شعب بعينه، ولعل المثال على ذلك حين نقول أن الشعر العربي هو تعبير للحضارة العربية الإسلامية، ولكن بالتأكيد هناك اختلاف بين الشعر العربي المصري والشعر العربي الشامي أو العراقي أو المغربي وهو الاختلاف الذي تفرزه

(١) ابن منظور: مرجع سابق، باب ثقف/

الزمخشري: أساس البلاغة، القاهرة، مطابع الشعب، ١٩٦٠، ص ٩٥: ٩٦.

(٢) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٣٦٩، ٣٧٠.

(٣) جون ديوي: الفردية قديماً وحديثاً، ترجمة خيرى حماد، القاهرة، هيئة الكتاب، ٢٠٠١، ص ١٠٥.

ثقافة كل قطر. ومن هنا يمكن صياغة تعريفات الثقافة على أنها "تسيج الأفكار والمثل العليا والمعتقدات والمهارات والأدوات والنتائج الفني وطرق التفكير والعادات والمؤسسات التي يعيش فيه الفرد"^(١).

أو أنها "مجموعة المعلومات التي يقوم عليها نظام حياة أي شعب من الشعوب، فهي على هذا أسلوب حياته ومحيطه الفكري ونظرته إلى الحياة، ولا بد أن تكون خاصة به، نابعة من ظروفه واحتياجاته وبيئته الجغرافية وتطور بلاده التاريخي والحضاري، فهي إذن محلية"^(٢).

ومن هذه التعريفات يتضح أن الثقافة يقصد بها كل ما صنعه الإنسان في حياته - كنتيجة لتفاعله مع بيئته - وهو ما تركه من نظم وأفكار توارثتها الأجيال حتى تحولت لجزء من سلوكها يتم نقله عن طريق ما يتدرب عليه الإنسان ويتعلمه أو بمعنى آخر فإن ثقافة الأمة هي أسلوب حياتها الذي تنقله لأبنائها جيلا بعد جيل بكل ما قد تتضمنه الجوانب الحياتية والمعيشية من وسائل إنتاج وأدوات وطرق مآكل وحتى الأدب والقصاص والفنون وكافة الممارسات المعيشية الأخرى.

إذا فالجمال ثقافة والمحراث ثقافة، والكمبيوتر ثقافة، والفن ثقافة، وهكذا... أي أن الثقافة هي نتاج العقل الإنساني من علم وفكر وفن وأدب وتكنولوجيا"^(٣).

فالثقافة إذا بمعنى بسيط هو كل ما يميز شعب عن شعب آخر ويعبر عن أصالته، ولذا فهي تختلف من مجتمع إلى مجتمع، بل تختلف داخل المجتمع الواحد من بيئة إلى بيئة ومن عصر إلى عصر وعلى هذا الأساس فإن هذه الثقافة التي يكونها الشعب من عصر لآخر فإنها تنشأ من خلال علاقاته وتفاعلاته مع أموره المعيشية وما يحيط به من شعوب وأمم، ولذا فهي دائمة التطور نلتمس فيها صفة التطور والحياة، أو كما عبر عنها ديوي بأنها الكيان الآخذ في النمو بإضطراد ولا يتناقص أبدا"^(٤).

فإذا كانت الثقافة هي هذا الكائن المتطور خلال تجارب شعب من الشعوب فما هي علاقتها إذا بالحضارة؟

إن عملية التطور المستمرة تلك التي تمر بها الثقافة، هي نفسها العملية التي تنتقل الشعوب من الثقافة إلى الحضارة، حيث أن تطور تفاعل الإنسان مع بيئته يؤدي بالتالي إلى أن يطور من أساليب معيشته من الصورة

(١) سعد مرسي وآخرون: مرجع سابق، ص ١٦.

(٢) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٣٧٥.

(٣) نجوى جمال الدين: اجتماعيات التربية، القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠١، ص ٤٠.

(٤) ديوي: مرجع سابق، ص ١٠٥.

التقائنية البدائية إلى أساليب الحياة النظامية، ذلك لأن الحضارة هي منتهى التطور الثقافي عند الجماعة والدخول إلى مرحلة الرقي الاجتماعي الثابت الذي لا يتطور بعد ذلك^(١)، أو بمعنى آخر الوصول إلى آخر مراحل الرقي التي لا يوجد بعدها إلا التقهقر والانحدار كما عرفها ابن خلدون حيث وصفها بأنها نهاية العمران والخروج إلى الفساد^(٢).

إذا من كل ما سبق يتضح أن العلاقة بين الثقافة والحضارة هي علاقة تطور ونمو وتنظيم في أن واحد لأن الحضارة هي عملية تنظيم التراث الثقافي لشعب من الشعوب وهو التنظيم الذي يؤدي بالتالي في مرحلة تالية لفقدان الكثير من المظاهر الروحية والعرفية وبالتالي يتسبب بما يتركه من تعقيدات وتركيبات في تلك النظم إلى تدهورها وإنهيارها حتى تأتي أخرى على انقاضها نتيجة لتغيرات جديدة تدخل على موروثها الثقافي وهو ما حدث في تحول مصر من الحضارة الفرعونية إلى الهيلينية فالبيزنطية فالإسلامية.. إلخ وبمعنى آخر بسيط فإن الحضارة في عرفنا الحالي هي الصورة الراقية والمتمدنة للثقافة.

إذا فما هي العلاقة بين الثقافة والتربية؟ أو بمعنى آخر كيف يمكن لكل منهما أن تخدم الأخرى؟ لقد عرفنا الثقافة بأنها الرصيد الإنساني بالكامل نتيجة لتفاعله مع مجتمعه، وهذا الرصيد هو الذي يسعى أي شعب من الشعوب إلى نقله إلى أبنائه وهنا يأتي دور التربية في غرس هذا المعين الثقافي المتوارث من جيل لجيل بواسطة وسائطها ومؤسساتها التربوية المتعددة بداية من الأسرة، هذا من ناحية بالإضافة إلى دور آخر أخطر وهو المحافظة على هذه الأجيال من الغزو الثقافي للثقافات الأخرى المغايرة وهو الخطر الذي تواجهه مجتمعاتنا حالياً في ظل الثقافة العالمية أو العامة Universal Culture والتي نتلقاها عبر وسائل الاتصال الجماهيري المختلفة^(٣).

وهنا نحتاج إلى معين تربوي قوي ليقف في ظل هذا الغزو الثقافي ويحافظ على ثقافتنا الخاصة من الانصهار داخل بوتقة الحضارة العالمية الموحدة، لأننا وفقاً لما سبق عرضه إذا دخلنا هذا الإطار تحولنا لصورة حضارية جديدة لن نلتبث إلا أن نتوقف وتأخذ بعد ذلك في التدهور والانهار.

(١) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٣٩٠.

(٢) ابن خلدون: مرجع سابق، ص ١٢٣، حيث وصف الحضارة بأنها "هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير".

(٣) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ص ٣٩٠: ٣٩٣.

الفكر التربوي:

لما كان منهج هذه الدراسة هو الطريقة التتبعية لمراحل تاريخ التربية في مصر من عصر لآخر لما تتميز به تلك الطريقة من تفسير عوامل الثبات والتغير في القوى والعوامل الثقافية المجتمعية من أن لآخر فضلاً عن إيزاز جوانب التفاعل للشعب - محور - الحركة الاجتماعية والذي تدور أحداث التاريخ حوله، بحيث يصبح التاريخ للتربية هو تاريخ للشخصية المصرية القومية، وأثرها في إحداث التغييرات المجتمعية عامة والتربوية خاصة من عصر لآخر، وهو الإسهام الذي يوظفه دور المفكر التربوي.

ومن هنا فإن تاريخ التربية لا يتم بدون الوقوف على الفكر التربوي وهو الروح المحركة لحركة تاريخ التربية أو بمعنى آخر "لا ينبغي أن يتركز على دراسة النظم والمؤسسات التربوية فقط، فهذه النظم والمؤسسات أشكال لا بد لها من مضمون، ومضمونها هو ما يتصل بها من فكر، وما يسيرها من سياسات، وما تقوم عليه من فلسفات، ومن هنا كان لنا أن نقول، أن دراسة هذه النظم والمؤسسات، إذا كانت هامة وضرورية فإن الاقتصاد عليها يعتبر بئر لحركة التطور الحضاري للمجتمع المصري وتشويه لها، إذا فما المقصود بالفكر التربوي؟ ولإيضاح ذلك لا بد من الوقوف على معنى الفكر عموماً وهو "ذلك النشاط الذهني المنظم الذي تفتقت عنه عقليات الشعوب المختلفة على مر التاريخ، وكان محصلة وانعكاساً للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدتها وعاشتها هذه الشعوب"^(١).

ولأن التربية في الأساس هي عملية نمو مقصود تهدف لخدمة المجتمع - كما سبقت الإشارة - فإنه على المشتغل بالتربية أن يحظى بقدر وافٍ من الآراء والفلسفات والنظريات التي حاولت مناقشة القضايا التربوية مهما اختلفت صورها أو أهدافها، فإن تاريخ التربية ما هو في واقع الأمر إلا سجل لجهود الأمم السابقة في تحديث وتطوير النظم التربوية والتعليمية وهذه الجهود والمحاولات غالباً ما يسبقها فكر يؤدي إليها ومن هنا يمكن تعريف الفكر التربوي بأنه هو "إسهام شعب ما أو أمه بعينها بجملة من الآراء والنظريات والأفكار في مختلف مجالات التربية والتعليم، وذلك في لحظة تاريخية معينة لها قسامتها وتفاعلاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية"^(٢).

وعلى الدارس لهذه الآراء والنظريات أن يكون حيادياً فيأخذ من كل ما فيها بغض النظر عن كون تلك الفلسفات والنظريات تقدميه أو تقليديه، فإن

(١) سامي محمد نصار، جمان عبدالمنعم أحمد: مدخل إلى تطور الفكر التربوي، الكويت، منشورات ذات السلاسل، ١٩٩٨م، ص ٧: ٨.

(٢) المرجع السابق: ص ٨.

دراسته لجهود السابقين هي التي تتيح له الفرصة على الوقوف على عوامل النجاح والفشل في أي نظام تعليمي وهذا التحليل هو الذي يجعل منه مربياً^(١) ومن هنا يتضح أن أهمية الفكر التربوي لا تتمثل في دور المفكر في ذاته، بقدر قدرة هذا المفكر على التعرض للقضايا التربوية بالنقد والتحليل والتطوير، وهو ما يعبر عن الدور الذي يسهم به الفكر التربوي في بلورة واستخدام التربية من أجل تطوير وتحديث المجتمع.

وعلى قدر نجاح المفكر التربوي في أداء هذا الدور على قدر ما تزيد أهمية ذكره والاستفادة من نظريته، وإجلاء هذا الدور عند التأريخ للمرحلة الزمنية التي يمثلها عصره^(٢).

ومن هذا المنطلق لا ننصوّر تاريخاً للتربية والتعليم في مصر القديمة دون ذكر الحكيم أني أو مصر القبطية دون ذكر أفلوطين المصري أو في مصر الحديثة دون ذكر محمد عبده أو قاسم أمين أو طه حسين وغيرهم.

ولعل ما سبق يلقي الضوء ولو بصورة بسيطة على أهمية دراسة تاريخ التربية لأي مجتمع يسعى لتطوير وتحديث نظامه التربوي والوقوف على عوامل التعثر في طريق تحقيق هذا الهدف، كما تتيح له الفرصة لأن يتبنى نظريات إصلاحية قائمة على تنبؤ علمي مدروس ومنظم والتي تعلمها من خلال دراسته التحليلية لتاريخ التربية.

فطريق الإصلاح دائماً إما يكون يأن نستمد من ثقافتنا الأفكار والآراء والنظريات التي من شأنها أن تدفع بنظمتنا التربوية إلى الأمام دون الاقتباس من ثقافات مغايرة قد تتسبب في طمس معالم هويتنا وشخصيتنا المتميزة وهو الخطر الذي نواجهه في ظل العولمة ونسعى للوقوف أمامه برصيد علمي وثقافي يكون كفيلاً بإشباع نفوس أبنائنا الطامحة للتطور والتحضر.

ولتحقيق تلك النظرة الشاملة ستحاول الدراسة الحالية تقديم تاريخ مصر الفكري والتربوي بصورة متكاملة على مدى عصورها المتتابعة والخروج منها بوضع تصور مستقبلي في ضوء فكر مصري خالص بإمكانية التحديث والتطوير التربوي والذي هو الآن مقياس التحضر لأي شعب من الشعوب.

(١) سعد مرسي وآخرون: مرجع سابق، ص ٢٦.

(٢) عبدالغني عبود: مرجع سابق، ص ٣٨.

الفصل الثاني

التربية في مصر الفرعونية

- لمحة عن الأرض والناس.
- مراحل التعليم في مصر القديمة.
 - المرحلة الأولى.
 - المرحلة المتقدمة.
 - المرحلة التطبيقية.
 - مرحلة التعليم العالي.
 - مرحلة التربية والتنقيف في القصور.
- تأثير الحضارة المصرية على الحضارة الإغريقية.

الفصل الثاني التربية في مصر الفرعونية

لمحة عن الأرض والناس: القوى الثقافية للتربية المصرية القديمة
إن السمة الغالبة على كافة الكتابات التي أرخت للحضارة المصرية هي الدهشة والانبهار بعظمة وقوة تلك الحضارة، ومدى ما اكتتفها من غموض دفع الجميع للسعي وراء اكتشاف أسرارها وجعل علم المصريين أساساً ومنهاجاً في كافة دول العالم المتقدم.

ولقد اختلف كثير من المؤرخين حول أصل المصري إلى أن أجمع علماء المصريين على أن الإنسان سكن وادي النيل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، كما أشارت الدراسات الانثروبولوجية إلى أن سكان مصرهم في الأصل ينتمون إلى الجنس الحامي وهاجروا إلى مصر مع كل من هاجروا ونزحوا من الجبال إلى أودية الأنهار ومنها نهر النيل في مصر، كما أشار ديورانت إلى أن هؤلاء وفدوا من غرب آسيا حاملين معهم ثقافتهم، فامتزجوا بمن كانوا يحيون على أرض البلاد وتزوجوا منهم وأنجبوا سلالة قوية ذات ثقافة واسعة وأصبحوا معاً شعباً واحداً وهو شعب مصر^(١).

وهذا ليس غريباً على طبيعة الأرض المصرية التي استوعبت على مر عصورها العديد من الهجرات والغزوات، فكانت تصهرها مجتمعة داخل الكيان المصري والشخصية المصرية وحضارتها الخاصة، ولعل أبلغ وصف أوجز هذا المعنى ما جاء به صاحب سندباد مصري بقوله "معجزة هذا الشعب المصري إذن ليست في الحضارة التي وهبها للعالم فحسب، إنما في أن يظل الشعب حياً متمكن الشخصية، لا يفنى في غزائه ومستغليه. شعب زارع بناء صناع اليددين، صانع حضارة، سواء حكمة محب للعلم، ذواقة للفن، أو عيهور مغامر. شعب يفرض الحضارة على حكامه فرضاً"^(٢).

ومما لا يختلف عليه أحد أن الحضارة المصرية قامت أساساً على الزراعة ويبدأ التاريخ للحضارة المصرية بعصر الزراعة "العصر الحجري الحديث" أو ما يسمى عصر ما قبل الأسرات، حين نزل المصري إلى قاع الوادي والدلتا، وبدأ استقراره ومحاولاته للتعامل مع النهر العظيم "نهر النيل" فنجح في تجفيف المستنقعات وبناء الجسور والقرى، وبدأ في ضبط جريان مياه الفيضان، من هنا بدأ المصري يقيم أسباب الحياة المستقرة والحضارة،

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠، مج ٢، ص ٦٥.

(٢) حسين فوزي: مرجع سابق، ص ١٤٤.

فهذا ما قادهم إلى إدراك أهمية التعاون والترابط، حتى توحدت مصر في عصر الدولة القديمة تحت سلطة وقيادة واحدة^(١).

ولعل تلك الأهمية لنهر النيل هي التي حدثت بهيردوت إلى أن يصف مصر بأنها هبة النيل^(٢)، ولكن وإحفاقاً للحق فإنه لولا قدرة المصري على التفاعل مع نهر النيل وتحدي سطوته لما تمكن من السيطرة عليه والاستفادة من خيراته ومن هنا كان القول بأنه "لولا أن الإنسان المصري كبح جماح النهر، بل وأجمه كما تلجم الفرس العاتية .. لولا ذلك لما قامت مصر بصورتها التي مهدت لقيام الحضارة واستمرار التاريخ.." أو أن نخالف هيردوت ونقول "إن مصر الحضارة ليست هبة النيل بقدر ما هي هبة الإنسان المصري .. أو هي في أقل الحقيقة ثمرة جهاد الإنسان المصري في بيئة صالحة"^(٣). وهذا لا شك فيه لأن المصري هو من استصلح واستنبت ورعى هذا الزرع وأقام القرى والمدنية والحضارة. ولقد كانت معرفة المصري القديم بالزراعة هي المنطلق الرئيسي لجوانب حياته المختلفة سياسياً واجتماعياً ودينياً واقتصادياً وثقافياً.

فسياسياً تمكنت مصر بفضل ظروفها الجغرافية وعدم وجود فواصل مانعة بين أجزائها وتركز وادي النيل ودلتاه في وسطها أن تتركز المجتمعات في هذه المنطقة والتي ما لبثت أن توحدت في دولة واحدة على يد مينا عام ٣٢٠٠ ق.م. بعد أن كانت مملكتين - مملكة الوجه القبلي ومملكة الوجه البحري - وتحولت لأول المجتمعات نظاماً وحكماً وإدارة.

وبدأ ما عرف بعصر الأسرات - في أقدم وحدة ظهرت لأمه على وجه الأرض - في آخر القرن الأربعين قبل الميلاد سنة ٣٢٠٠ بدأت بالدولة القديمة ٣٢٠٠ - ٢٢٧٠ ق.م. والتي ضمت الأسر من الأولى وحتى السادسة بدأت بمينا موحد القطرين وتميزت تلك الأسر بالإنشاءات المعمارية فكانت نشأة المدن والمصاطب وكان بها عصر بناء الأهرام من الأسرة الرابعة إلى السادسة فكان حكامها من أرسوا دعائم الحضارة المصرية في الداخل.

ثم كانت فترة مجهولة من الأسرات من السابعة للعاشرة ٢٢٧٠ - ٢١٠٠ ق.م. ثم جاءت الدولة الوسطى ٢١٠٠ - ١٧٠٠ ق.م. وهو عصر السيادة المصرية واستقرارها فظهرت عصور الفنون والآداب وتشيد المعابد والمشاريع الكبرى كخزانات المياه.

(١) سليمان نسيم: التربية القبطية، القاهرة، دار الكرنك، (د.ت)، ص ٣٨.

(٢) هيردوت: يتحدث عن مصر، ترجمة مصر صقر خفاجة، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٨٧، ص ٧٤.

(٣) سليمان حزين: حضارة مصر، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٩٥، ص ٢٥.

وتلى هذا العصر فترة غير معروفة أخرى من الأسرات من الرابعة عشر إلى السابعة عشر ١٧٠٠-١٥٥٥م، وهي الفترة التي غزا فيها الهكسوس مصر حتى استطاع محرر مصر في آخرها - أحمس - أن يطردهم وينشئ الدولة الحديثة.

الدولة الحديثة ١٥٥٥-٧١٢ق.م، وهو عهد المجد الخارجي لمصر - عهد الإمبراطورية العظمى - والفتوحات الآسيوية وعلاقات التأثير والتأثر بشعوب الشرق الأدنى، وتميز هذا العصر بالرحلات البحرية العظيمة للملكة حتشبثوت في الأسرة الثامنة عشر وظهور عقيدة التوحيد على يد اخناتون، والملك توت عنخ آمون الذي نقل للعالم بأسر صورة الثراء والتقدم الفني المصري في ذلك العصر، كذلك حظيت الأسرة التاسعة عشر بأعظم المحاربين في التاريخ رمسيس الثاني أقدم أبطال الحرب والسلام وصاحب أقدم وثيقة سلام على الأرض، وأتم عصر الزعامة بالفتوحات الحربية الرائعة وما لبث هذا العصر أن أخذ في الضعف بداية من الأسرة الثانية والعشرون ٩٤٥-٧٤٥ق.م وبداية دخول أسرات غريبة من أصل ليبي حتى استيلاء الأثيوبيين على مصر عام ٧١٢ق.م ثم كان العصر المتأخر ٧١٢-٣٣٢ق.م.

والأسر من الخامسة والعشرين حتى الثلاثين حيث اتسم العصر بظهور ملوك من أصول غير مصرية، وتخلل هذا العصر بعض فترات قصيرة للرخاء والتبادل الثقافي مع شعوب البحر المتوسط وخاصة الأغريق، كما ظهر فيها المصري حين يغضب ويثور لكرامته فكانت ثورات المصريين على الحكم الفارسي والذين تمكنوا بفضلها من طرد الفرس للمرة الأولى عام ٤٠٤ق.م ثم ما لبث الفرس أن عادوا عام ٣٤١ق.م حيث طردهم الإسكندر هذه المرة وفتح مصر لتكون مركزاً لإمبراطوريته في البحر المتوسط عام ٣٣٢ق.م وتدخل مصر إلى العصر الإغريقي^(١).

كذلك أثرت الزراعة على أحوال المصريين الدينية والأخلاقية فقد علمت الزراعة المصريين العديد من الفضائل كالصبر والمثابرة والأخذ والعطاء ومعنى الحق والواجب واحترام وتقديس العلاقات الأسرية، وكل هذا

(١) للمزيد من التفاصيل حول نظام الأسرات في مصر والدور السياسي لها يمكن الرجوع إلى:

حسين فوزي: مرجع سابق، ص ٣٥٢: ٣٦٠ /
ارمان. أدولف: ديانة مصر القديمة، ترجمة عبدالمنعم أبو بكر، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٩٧، التصدير /

جاردنر. الن: مصر الفراغة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٨٧، الكتاب الثاني من بناء الأهرام إلى الإسكندر، ص ٨٩ وما بعدها.

تعلموه أثناء تفاعلهم مع بيئتهم وأصبح سلوكاً رئيسياً في علاقاتهم الاجتماعية واتسم بأسس دينية واضحة تمثلت في الخضوع للسلطة الخفية مصدر هذا الخير، والإيمان بالخير المستقبلي والسعي لدخول مملكة أوزوريس التي تمنع الأثام من دخولها فاعتقدوا بالحساب والبعث والخلود، وتعلموا الطاعة والاحترام للآلهة ولمن يمثلهم على الأرض من الحكام الفراعنة فأقاموا حضارتهم بجد واجتهاد وضمير وتعلموا التمييز بين الخير والشر واحترام الغير ومعاونة الآخرين وتوقير الكبير واحترام المرأة والزوجة، وكل تلك السمات حرصت الأسرة المصرية على غرسها في داخل أبنائها وتربيتهم عليها وظهرت في تعاليمهم التربوية والأخلاقية^(١).

واهتم المصري بالعلاقات الروحية بينه وبين الآلهة فعبدها خوفاً ورجاءً، ولأن أي ديانة ترتبط بطبيعة المجتمع فقد اتسمت ديانة هذا المجتمع الزراعي بطابع أخلاقي سمح يتفق مع الحياة الهادئة وأخلاق الإخلاص والتعاون والحث على العمل المستمر^(٢).

كذلك ساعد النشاط الزراعي على ازدهار الأنشطة الاقتصادية وبخاصة الصناعات والحرف فبرع المصري القديم في كل فن وصناعة فشيده المعابد والأهرامات وبرع في الصناعات الخزفية والزجاجية والخشبية والمعدنية وأبدع في مشغولات المجوهرات، فضلاً عن فنون كثيرة في هندسة الري وبناء السدود وقياس الأرض والقناطر وابتكار أدوات الزراعة كالمنجل وساهم الازدهار الصناعي في تقدم التجارة الداخلية والخارجية مع الدول المحيطة بمصر مما زاد من عوامل التأثير والتأثر بين تلك المجتمعات وبعضها البعض^(٣).

فإذا كان النظام الاجتماعي فكان لابد أن يتسم بالقوة، فعرف المجتمع المصري النظام الطبقي الذي يقف على رأسه الفرعون رئيس الدولة والحكومة وممثل الآلهة في الأرض، ثم أعضاء البلاط الملكي من رجال الدولة والكهنة والنبلاء، ممن حظوا بمكانة كبيرة وبخاصة الكهنة لدى الفرعون وحتى العامة، ثم كانت طبقة الضباط والجنود من يحفظون أمن البلاد، وفي قاعدة الهرم الاجتماعي تأتي طبقة العامة من التجار والصناع والحرفيين والفلاحين والعبيد وحتى هذه الطبقة كانت تختلف ما بين التجار والصناع وكانوا أعلى مكانة من الحرفيين والفلاحين والعبيد والرعاة وهي أكثر الطبقات عملاً وأكثرها التزاماً بدفع الضرائب، إلا أن رغم هذا التقلبات الطبقي فقد اتسم النظام الاجتماعي المصري بالمرونة وكان بإمكان أي

(١) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٣٧: ٤٠.

(٢) أرمان أدولف: مرجع سابق، ص ٥.

(٣) الن جاردنر: مرجع سابق، ص ٤٢٠: ٤٢٣.

شخص أن يرتقي بمستواه أو علمه أو مهنته ويدخل طبقة أعلى ما عدا طبقة أسرة الفرعون، مما ساعد على حرص المصريين على التعلم والدخول في سلك الكتاب والإداريين والعسكريين كوسيلة للتقدم والترقي الاجتماعي^(١).

ومما لا شك فيه أن تلك الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية كان لها تأثير مباشر أو غير مباشر على ملامح التربية في تلك الفترة، فإيمان المصري وخوفه من الحساب جعله دائم الحرص على توجيه أبنائه وتربيتهم تربية أخلاقية متميزة، وفق أفضل قواعد الأخلاق وآداب السلوك والمعاملة.

كذلك المجالات الأخلاقية الداعية لاحترام الأسرة وتبجيل الأم جعل للمرأة مكانة خاصة في التربية وكانت الفتاة تتعلم كالولد ووصل بعض النساء المصريات لمناصب عليا كالملك والتطبيب أيضا. لهذا كله حرصت الأسرة المصرية على إمداد طفلها بكل ما يحتاجه من أدوات للتعلم ومأكل ومشرب وحتى أدوات اللعب وتشجيعهم بكل ما ينمي مداركهم^(٢).

كذلك ساهمت الحياة الاقتصادية القائمة في المقام الأول على ابتكار الكتابة لتنظيم حياة المصريين وإحصاء وتسجيل وتخطيط أراضيهم فضلا عما أوجدته من معارف أخرى خاصة بالهندسة والفلك وغيرها مما ساعد على قيام نظام تربوي قوي وفعال وقف شاهداً على عظمة الحضارة المصرية في ذلك الوقت.

كذلك ساعد النظام الطبقي المرن ولا شك في حرص المصريين على تعليم أبنائهم ليخرجوا من الطبقة الدنيا للطبقات المتوسطة فيصبحوا موظفين أو عسكريين كخطوة في سبيل الترقى لديهم^(٣). ولكن على رغم ذلك الحرص على التعليم، وحيث إن المصري دأب دائماً على أن يتعلم مهنة أبيه فإنه حتى في أزهى عصور الدولة كانت الأمية فاشية بين المصريين^(٤).

(١) سامي نصار: مرجع سابق، ص ١٨: ١٩.

(٢) باهور لبيب: لمحات من الدراسات المصرية القديمة، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٧٩-٩٢.

ناريمان درويش: الجغرافية التاريخية لمنطقة محافظة المنيا منذ العصر الفرعوني وحتى نهاية العصر الروماني، مراجعة يسري الجوهري، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٨٠، ص ١٩١-٢١٠.

(٣) باهور لبيب: مرجع سابق، ص ١٠/ وقد أوضح سيادته "أن مصر كانت أول أمه عرفت الكتابة وجعلت لها أبجدية خاصة، وقد نقلها عنها الفينيقيون واستخدموها لكتابة لغتهم، وعندهم اقتبسها اليونان والرومان..".

(٤) إبراهيم نصحي: مصر في عصر البطالمة، ج٤، القاهرة، الأنجلو، ١٩٧٧، ص ١٩٨.

أهداف التربية والتعليم في مصر القديمة:

لعل ما سبق من تصوير سريع لمعالم البيئة والأرض المصرية يساعد على تحديد العوامل والذوافع التي ساعدت على حرص المصريين على التعليم والتعلم والتي يمكن إجمالها في الآتي:

- التعلم من أجل الانخراط في سلك الهيئة الحاكمة: وهو هدف اجتماعي يرى أن تعلم الكتابة والعمل بالحكومة يكفل لصاحبه مركزاً اجتماعياً مرموقاً، نظراً لحاجة الحكومة إلى موظفين متعلمين، وهي الوظائف التي تصل بأصحابها أحياناً ليصبحوا كتاباً أو قضاة أو مهندسين وحتى أمناء القصر فضلاً عن الأطباء والكهنة، ولذلك ارتبطت كثير من نصائح الآباء والمعلمين بهذا الهدف^(١).

- التعلم من أجل خدمة المطالب الدينية أو لاكتساب نصيب من التعلم الديني الشخصي: وهو الهدف الديني الذي نبع نتيجة لتدين المصريين، فليس من قبيل المبالغة توقع أن المصري كان شديد الاعتقاد بأن تعلمه للكتابة والنقوش الدينية المقدسة يساعد على تحقيق السعادة له في الآخرة مما ساعد على تكوين طائفة من المتعلمين لكتابة ونقش تلك النقوش على جدران المعابد والمقابر، فضلاً عن كتابة المتون الدينية على صفحات البردي^(٢).

- التعلم تقديراً للعلم وكرامته (طلب العلم لذات العلم)، وهو الهدف الذي كان شأنه في مصر القديمة شأنه في كل مجتمع وزمان هو هدف القلة النادرة، وكان مركز الأخذين به في قصور الملوك والأمراء أو دور الحياة، وغالباً ما كان ينصح به أب أخذ به أو داعية إلى مذهبه، وهناك بعض الإشارات حول الدعوة إليه ولعل أبرزها تأثيراً ما قاله معلم لتلميذه "إن كتاباً واحداً لأعز قيمة من بيت الباني ومن مقصورة في الغرب، وإنه لأجمل من قصر مشيد ومن نصب تذكاري في معبد"^(٣).

(١) عبدالعزيز صالح: التعليم في مصر القديمة، القاهرة، الدار القومية للطباعة، ١٩٦٦، ص ١٣١-١٣٣. ومن تلك النصائح "أعمل على أن تكون كاتباً، ينعم بدنك وتصبح كفاك لينة" وأيضاً ما قاله معلم مصري لتلميذه "إنه (أي التعلم) يجعل صاحبه يواخي من هم أرفع منه".

(٢) المرجع السابق: ص ١٣٤، ولعل أكبر دليل على صحة وقوة هذا الدافع الديني ما أشار إليه المؤلف من أنه "من المعروف أنه قلما اهتم شعب بالدين وبالآخرة كما اهتم بهما شعب مصر الفرعونية"، كما أضاف أن المصريين "اعتقدوا في الهتهم العلم والمعرفة .. وكان الكاتب يعتبر نفسه تلميذاً للإله تحوتي نفسه (إله العلم والمعرفة)"، نفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق: ص ١٣٦/ وقد أكد صاحب كتاب الحياة اليومية في مصر الرومانية على هذا الهدف وقلّة الأخذين به في العصور الفرعونية وحتى الهلينية والرومانية Lindsay (J.): Daily Life in Roman Egypt, London, 1963, p. 59.

- التعلم للبحث عن حلول للمشكلات الحياتية: من غير المستبعد أن من ضمن دوافع التعلم عند المصريين كانت الرغبة في البحث عن الحلول للعديد من المشكلات التي تواجههم في حياتهم كمشكلات الزراعة، والحاجة إلى عمليات الإحصاء والتسجيل للأراضي والضرائب، وضبط المرتبات وتعلم الحساب والهندسة والفلك كما سبقت الإشارة لبناء السدود وحفر الترع وإقامة المقابر والمعابد وما إلى ذلك من الأمور الحياتية التي لا غنى للمصري عنها والتي انتظمت بالفعل داخل المناهج التعليمية في المراحل المختلفة كما سيوضح (١).

ولكن على الرغم من كل تلك الدوافع التي من شأنها أن تجعل للتعليم المكانة الأولى في المجتمع المصري، إلا أن الحقائق التاريخية تثبت تفشي الأمية في تلك الفترة وقلّة المتعلمين ولعل ذلك راجع لعدة أسباب، منها حرص معظم الآباء أن يرث أبنائهم حرفهم وبخاصة إذا كانت حرفاً هامة ومميزة، كذلك فإن طبيعة النشاط الزراعي للمجتمع المصري كانت تعتمد على العمل الأسري والجماعي لكثرة الحاجة للأيدي العاملة، كذلك كان اكتساب قدر متميز من التعلم يستلزم كثير من الجهد والنشاط الذهني والبدني والمالي لم يكن يتوفر للكثيرين، هذا فضلاً عن أن معظم الوظائف الحكومية لم تكن على هذا القدر التصويري من رخاء العيش فكان يغلب عليها الأعداد الغفيرة من صغار الموظفين أو الكم المهمل كما وصفه البعض فيما عدا قلّة ضئيلة جداً ممن يصلون إلى الارتقاء بمستواهم، هذا بالإضافة إلى أن معظم النصوص التي وجدت من مكانة الكاتب ما هي إلا نصوص مدرسية لم تكن تعني شيئاً للعامّة، لعل كل تلك العوامل كانت المبرر وراء قلّة عدد المتعلمين في مصر القديمة، إلا أنه على الرغم من ذلك يمكن إنكار وجود نظام تعليمي متميز كما ستوضحه مراحل التعليم في تلك الفترة (٢).

مراحل التعليم في مصر القديمة:

أثبتت الأبحاث التاريخية والوثائق أن مراحل التعليم في مصر قد تنوعت نظراً لتنوع دوافع التعليم في تلك الفترة وإن كان يمكن تحديدها إجمالاً في الآتي:

١- مرحلة تعليمية أولية (تتم في مدرسة متواضعة ملحقة بمعبد أو مكان سكن المعلم).

٢- مرحلة تعليمية متقدمة (وتتم في مدارس نظامية جماعية).

(١) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٤٤.

(٢) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ١٣٨ : ١٤١.

- ٣- مرحلة تطبيقية: وهو نظام تعليمي مواز للمرحلة المتقدمة وإن كان خاص بالإعداد المهني للكتابة والموظفين للإدارات، ولذلك كانت توجد في مكاتب الإدارات المختلفة.
- ٤- مرحلة التعليم العالي - أو مرحلة التخصص - (في دور الحياة) وهو بمثابة التعليم الجامعي.
- ٥- مرحلة التربية والتثقيف في القصور: وهي تقدم مناهج خاصة للأمرء والمقربين منهم.
- وستحاول الدراسة إلقاء الضوء على السمات الرئيسية لكل مرحلة ومناهجها وطرق تدريسها لتغطية أهم معالم النظام التعليمي في مصر القديمة.

١- المرحلة الأولى:

وكانت مرحلة أولية يتلقاها التلميذ في مدارس بسيطة شبيهة إلى حد كبير (بمدارس الكتاتيب)، وكانت إما تكون ملحقة بأحد المعابد في المراكز الحضرية أو في مكان خاص بالمعلم، وكان يلتحق بها التلاميذ في سن الرابعة أو الخامسة لمدة أربع سنوات يتلقون منها الأساسيات الأولى للمعرفة من قراءة وكتابة وحساب وبعض المعلومات العامة والمختارات الأدبية والنصوص والرياضة البدنية، وكانت تلك المدرسة مفتوحة للجميع دون فارق بين طبقة وأخرى أو بين الولد والبنت.

إلا أنه من المرجح أن التعليم فيها كان مكافئاً لذلك لم يكن يقبل عليه إلا القلة التي تستطيع تحمل أعبائه^(١). ولما كانت تلك المدارس ملحقة بالمعابد بالدرجة الأولى لذا كان معلموها من الكهنة وهم الطبقة المثقفة أو الصفوة المتعلمة.

وكان الصبي أو الطفل بعد أن يتم تلك المرحلة يصبح أحد الكتبة الصغار في الحكومة أو دور أحد الأغنياء ولكن بتطور الدولة الحديثة وازدياد النشاط التعليمي كان على الراغب في العمل الحكومي أن يلتحق بالمدارس التطبيقية بإحدى الإدارات الحكومية، ومن لا يتمكن من الالتحاق بها يكتفي بممارسة مهنة أبيه^(٢).

(١) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ١٤٨-١٦٢.

(٢) إبراهيم نصحي: مرجع سابق، ص ١٩٨. وقد أشار سليمان نسيم إلى أن الطبيعة المصرية لم تختلف فيما يتعلق بالحقاق مؤسسة التعليم بمركز العبادة وربطها بالدين حيث أشار إلى أن هذا الوضع ظل قائماً في مصر القبطية حيث التحقت المدرسة بالكنيسة ثم مصر الإسلامية حيث التحقت بالمسجد، مرجع سابق، ص ٤٧.

٢- المرحلة المتقدمة:

وكان يلتحق بها الطفل بعد أن يتم المرحلة الأولى، وهي كما أوضحت الوثائق والأدلة أنها مدارس نظامية زاد انتشارها نتيجة لتعدد المطالب الحياتية في النولة الحديثة، وهدفت إلى تحبيب الأطفال في الكتب ومهنة الكتابة وترغيبهم عن المهن اليدوية، كذلك كانت أقرب ما تكون لمدرسة نظامية مدنية كبيرة لها فصول جماعية لا صلة لها بالمعابد، تفتح أبوابها للأولاد في مرحلة المراهقة من سن العاشرة أو الثانية عشرة، كذلك اتسمت بوجود قواعد مدرسية محددة وساعات عمل في اليوم الدراسي، كذلك كان شأنها كالمدرسة الأولية لم تقتصر على أبناء طبقة واحدة وإنما الثابت أنها لكثرة تكلفتها فكان يدخلها أبناء الطبقات العليا وبعض أفراد الطبقة الوسطى، وكانت مناهج تلك المرحلة امتداداً للمرحلة السابقة في دراسة القراءة والآداب والرياضيات والمعلومات العامة وفقاً للمرحلة العمرية، وكان الطلاب فيها يستخدمون البردي مما يدعم كثرة نفقات تلك المرحلة^(١). ونظراً لاشتراك مناهج التعليم في المرحلتين الأولى والمتقدمة واللذين يمثلان ما يعرف الآن بالتعليم الأساسي فسيتم إجمالهما معاً قبل الحديث عن نوع مختلف من المدارس وهي المدارس التطبيقية.

مناهج وطرق التدريس في المرحلة الأولى والمتقدمة:

وقد اشتملت المناهج في تلك المرحلتين على:

مناهج اللغة وآدابها: وكانت تشتمل على دروس الخط والهجاء وقواعد اللغة والآداب القديمة بقسميها الشعر والنثر. وهذه المناهج كانت عبارة عن دراسة فقرات قصيرة في المدرسة الأولى ثم تصبح نصوصاً كاملة في مدرسة الكتاب المتقدمة. فكان الطفل يتعلم الهجاء دون فهم المعاني التي كان يلزم بها في المرحلة المتقدمة، وقد كانت الكتابة هي الطريقة الأساسية لحفظ التراث الأدبي^(٢).

فقد استخدم المصريون في البداية الكتابة الهيروغليفية أو الكتابة المقدسة (النقش المقدس)، ونظراً لصعوبتها في الكتابة أصبحت قاصرة على دور الحياة وكهنتها الذين اعتبروا أنفسهم الأمناء عليها لذلك أصبحت تسمى (كتابة دور الحياة)، أما بالنسبة للتعليم فقد تطورت في صورة أبسط وهي الهيروغليفية ثم الديموطيقية بعد ذلك التي عرفت (بالشعبية) وهي التي كتبها

(١) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ١٦٣: ١٧٤/ ومن ضمن النصوص البردية الهامة التي تؤكد على منزلة المتعلم في تلك المرحلة ما جاء في تعالم الحكيم "خيتي" من العصر الإهناسي لأبنته وهو في طريقه لتلك المدرسة بقوله "لاحظ أنه ما من مهنة تخلو من مهيم عدا الكاتب فهو بذاته المهيم، فإذا عرفت الكتابة كانت هي الأنفع لك"، المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٢) عبدالعزيز صالح، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

المصريون بعد ذلك بحروف يونانية وأضافوا لها سبع حروف صوتية فتحوّلت للقبطية فيما بعد كما سنتم الإشارة^(١).

وقد ساعد الاهتمام بتعليم الكتابة في التعليم المصري على الإكثار من دروس الخط والهجاء والنسخ والإملاء والكتابة، وقد أكدت العديد من المخلفات التعليمية على ذلك وبينت العديد من الأدوات التعليمية المستخدمة في تلك العمليات كالمداد الأحمر للمعلم والأسود للتلميذ وأقلام الغاب المعالج أطرافها للكتابة، فضلاً عن أوراق البردي وقطع الخبز والتي وجدت عليها تمارين إملائية بكثرة^(٢).

أما عن طريقة تعليم القراءة والكتابة فكانت أن يقوم المعلم بنطق الحروف ويوضح شكلها وترتيبها للتلاميذ، ثم يمرنهم على تكوين مقاطع كلمات، ثم يتبعها كلمات كاملة من التي تكتب مقطعاً مقطعاً ويراعى في التمارين مهارة الكتابة ودقة النطق^(٣).

وكان المدرس يستخدم أسلوب التكرار كوسيلة لتعليم التلاميذ واتقانهم لمهارة الكتابة، فكانوا يكررون النماذج المختارة لعدة مرات، ثم يبدأ في تعليمهم كلمات مفردة للأشياء المشهورة في حياتهم اليومية كأسماء الأشياء والحرف أو أسماء الآلهة، ثم ينتقل من كتابة تلك الكلمات المفردة إلى الجمل القصيرة التي كانت عادة في شكل قصصي أو أقوال مأثورة أو حكم ليتقبلها التلاميذ ويحصلوا منها على أقصى استفادة^(٤).

وكان مما يثير الاهتمام أن المادة التعليمية المقدمة كانت مستمدة من خبرات التلاميذ ومظاهر الحياة المحيطة بهم فضلاً عن القصص الشهيرة مما كان له أكبر الأثر في توسيع خيالهم ومداركهم فضلاً عن تهذيب خلقهم بما تحمله من مثل عليا وقيم^(٥).

أما في المرحلة المتقدمة فقد كان تعليم اللغة يرتبط بدرجة كبيرة بتعليم التراث الأدبي، فكان التلميذ يدرس على وجه الخصوص النصوص الخاصة بالتعاليم الدينية والخلقية وبخاصة تعاليم الحكماء مثل خيتي وتعاليم بتاح - حنب فضلاً عن الحكم وآداب السلوك والأناشيد الممجدة لمصر ولطبيعتها وبخاصة - نشيد النيل. وأناشيد النصر في الدولة الحديثة وكان

(١) هيردوت: مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٢) سليم حسن: مصر القديمة، ج ٢ (في مدينة مصر وثقافتها)، القاهرة، مكتبة الأسرة، هيئة الكتاب، ٢٠٠١، ص ٣٨٧-٣٨٨.

(٣) إبراهيم نصحي: تاريخ التربية والتعليم في مصر (عصر البطالمة)، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٧٥، ص ٩١.

(٤) ليدرس بل: مصر من الإسكندر الأكبر، ترجمة عبداللطيف احمد علي، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٨م، ص ١٦١.

(٥) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٥١.

تعليم الأدب يعتمد بالدرجة الأولى على الحفظ والاستظهار^(١). ثم كانت تكليفات أخرى للتلاميذ بحفظ قصائد من الشعر ودراسة بعض القصص والتمثيلات والتي حملت في غالبها الطابع الديني ولعل ما ساعد على ذلك هو كثرة ما تركه المصريون من ثروة في المخطوطات الأدبية لأبنائهم امتلأت بالقصص والحكايات (كسنوحى، أو البحار الغريق) وأخبار الرحلات والسير والمواعظ والحكم ولعل أكبر دليل على ذلك النصوص التي عرفت - بنصوص الأهرام - وما تضمنته من قدر كبير من الموضوعات الدينية والخلقية^(٢).

مناهج الرياضيات: كانت مناهج الرياضيات تبدأ بعمليات الحساب البسيطة من جمع وطرح وضرب وقسمة، ثم يليها تعليم الكسور وقد أكدت العديد من الدراسات التي عثر عليها ذلك^(٣). كذلك اثبتت تلك الدراسات أن المصري درس مسائل المكاييل ومضاعفاتها، ومسائل المساحات (كالمثلث والدائرة) كذلك تمكنوا من الكسور العادية والاعتيادية، كما عرفوا معادلات الجبر^(٤).

ولما كان المصريون يرجعون علومهم ومعارفهم إلى الإله تحوت (إله القمر) وبخاصة الفلك والحساب والطب، لذلك كان الكهنة هم الطبقة المتمكنة من تلك العلوم، إلا أن هذا لا ينفي وجود الدافع الرئيسي وهو الرغبة في الرقي بالبيئة وتطويرها، وهو ما يظهر بصورة واضحة من المسائل الرياضية التي تتناول بأكملها موضوعات تختص بالبيئة والحياة اليومية^(٥).

"ولقد كان الظن إلى وقت قريب إلى أن اليونانيون هم أصحاب الفضل في العلوم الرياضية، إلا أن الواقع أن اليونان قد عملوا على إحيائها فقط وليس ابتكارها ولعل ما يشهد بذلك ما أشاد به أفلاطون حين زار مصر بمناهج الرياضيات والطرق المشوقة التي تقدم بها إلى الأطفال، وأهاب بالمعلمين الإغريق أن يستفيدوا من تلك الطرق، وما أكدته هيردوت حول ابتكار المصريين لعلوم الهندسة المساحية لليونانيين"^(٦).

(١) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ص ٢٦٠: ٢٦٤.

(٢) سعد مرسي، سعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص ٦٧.

(٣) أهم هذه الدراسات من القرطاس الذي عثر عليه في علمي الحساب والهندسة قرب معبد الرمسيوم والذي سمي Rhind (رند) نسبة لمشتريه عام ١٨٥٨م/ Butts (R. F.): A cultural history of Education, New York, 1997, P. 18.

(٤) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٥) سليم حسن: مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٥.

(٦) ولعل مما يؤكد ذلك أيضا ما رجع له هيردوت من أن مصر هي وطن الهندسة عامة والهندسة المساحية بخاصة، فقال "ميخيل إلى أن هذا كان بدء اكتشاف علم المساحة الذي انتقل إلى اليونانيين"، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

ولقد كان تدريس الرياضيات يعتمد على التدرج من السهل إلى الصعب، وتقريب المعلومة بشيء محسوس لذهن الطفل، فضلاً عن أن المعلمين كانوا يتخذون من الألعاب المختلفة وسيلة لتشويق الأطفال وتثبيت المعلومة لديهم حتى يصبح الدرس شيقاً ومرغوباً^(١).

وكما أشار هيردوت أن علم الهندسة كان وليد الحاجة عند المصري لحل المشكلات المتصلة ببيئته وبخاصة قضايا تقسيم الأراضي والحاجة لمقاييس خاصة والرغبة في إقامة السدود وحفر الترع ثم بناء المقابر والدخول في هندسة المعمار والبناء وما شيدوه من أهرامات ومقابر ومعابد وما خطوه من مدن، كلها لم تكن لتكون بتلك الجودة بدون العلوم الرياضية كالحساب والميكانيكا وحساب المثلثات والجبر، وهي العلوم التي وصلوا فيها إلى نتائج مذهلة في دراسة الحجوم والزوايا والارتفاعات، بل إنهم قد اكتشفوا نظرية فيثاغورس واستخدموها في المثلثات قائمة الزوايا، وقد مكنتهم التميز في علم المساحة إلى تعيين السطوح المستوية بدقة فضلاً عن تحديد زوايا الارتفاع والانحدار^(٢).

مناهج المعلومات العامة: والذي يمكن إطلاق هذا الاسم عليها لم اشتملت عليه من عدة مواد تثقيفية تضمنت ما يمكن أن يطلق عليه معلومات تاريخية وجغرافية ودينية.

المعلومات الجغرافية: غلبت المعلومات الجغرافية على تلك المناهج فقد احتوت الكتب والكراسات المدرسية على كثير من أسماء الظواهر الكونية والطبيعية عن الأرض والسماء وأسماء الأقطار المصرية وأنواع المحاصيل والمنتجات والحيوانات والطيور والأسماء ومنتجاتها وكل ما اشتهرت به البيئة المصرية بوجه العموم.

وحقيقة الأمر أن المعلمين لم يبتعدوا كثيراً في تدريس تلك المعلومات الجغرافية عما هو معروف لدينا الآن، فكان التدرج من السهل إلى الصعب، ومن الإجمال إلى التفصيل، وكانوا يتخذون من كل مدينة نموذجاً يشرحون كل ما تميزت به من خصائص خاصة لتقريب المعلومة، كذلك حرصوا تماماً على التأكيد على وحدة البلاد والتصدي للخارجين عنها في كل المادة المقدمة^(٣).

كذلك لم يهمل المعلمون تقديم قدر من المعلومات عن جغرافية الأقطار الأخرى وبخاصة الأقطار المجاورة كالنوبة وسوريا وتوضيح العلاقات بينها وبين مصر.

(١) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٥٣.

(٢) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٥٤.

(٣) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ٢٤٢.

المعلومات التاريخية: فقد احتوى المنهج على الكثير من المعلومات التاريخية كأسماء الملوك والعصور والحروب الهامة كطرد الهكسوس مثلاً، وانتصارات الفراعنة، ومما لا شك فيه أن المصريين شعب يقدر كل ما هو ماضي ويهتم بربط العصور ببعضها ولعل أبلغ دليل على ذلك هو "احتفاظ رواة المصريين حتى عهود هيردوت وسترابون وديودور وبلوتارج ومن تلاهم من المؤرخين بأحداث ترجع إلى عهد مينا"^(١).

المعلومات الدينية: كذلك أولت المناهج المصرية عناية كبيرة بالمعلومات الدينية والتي ارتبطت بطبيعة المصري وتقديره الشديد للدين فكانت دراسات خاصة بقصائد الآلهة يدرسونها كعقائد، وكذلك الموضوعات الإنشائية الخاصة بالآلهة وصفاتهم والتمتون الدينية، وقد ارتبط المنهج الديني بصورة كبيرة بالموسيقى والأناشيد لذلك كانت سمة أساسية في كافة الاحتفالات الدينية^(٢).

التربية البدنية: كذلك أشار بعض المؤرخين إلى أن المصريين قد عرفوا التربية الرياضية وتمرنوا على التمارين المختلفة لتقوية البدن وقد حفلت جدران المعابد بتصوير لمناظر أعيادهم والتي ضمت كثيراً من الأوضاع الرياضية للفتية والفتيات^(٣).

هذا فيما يتعلق بالمناهج الخاصة بالمدارس الأولية والمتقدمة والتي اتضح فيها أنها اتسمت بالتدرج تبعاً للمرحلة العمرية، كما اشتملت على المعلومات الخاصة بغرس أساسيات المعرفة لدى الأبناء من قراءة وكتابة وحساب وثقافة متنوعة، كذلك ركزت في كافة جوانبها على التربية الخلقية والتوجيه السلوكي فكانت مكملة بصورة منطقية لدور الأسرة السابق لها.

ثانياً: المرحلة التطبيقية: (مدارس الإدارات الحكومية)

وهي المرحلة الموازية للتعليم التقدمي والتي كان ينتقل إليها التلاميذ الراغبين في العمل في وظيفة الكاتب في مكاتب الإدارات المختلفة مثل إدارات بيت المال والمعابد والجيش.

توجد العديد من القرائن والأدلة على اشتراك الإدارات الحكومية المختلفة في أمور التعليم في المرحلة المتوسطة، وإن الموظفين المجرَّبون كانوا هم من يقومون بتعليم وتدريب أولئك الشبان ممن أتموا الدراسة الأولية ورغبوا في الانخراط في سلك الوظائف الحكومية أو ممن عجزوا عن متابعة

(١) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٢) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٥٥-٥٦.

(٣) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ١١٣ وما بعدها.

دراستهم في المرحلة المتقدمة، كذلك ربما التحقق أيضاً بتلك الإدارات بعض من كبار السن ممن تلقوا تعليمهم أيضاً^(١).

وهذا المجال كان مفتوحاً ومتاحاً للجميع دون تمييز بين طبقة وأخرى، ومن الإشارات المختلفة التي وجدت ثبت أنه كان يلقي مكانة ومنزلة كبيرة، كما بينت النصوص أن المعلم عادة لم يكن يعلم أكثر من طالب واحد يصنف كمساعد له حتى يتحمل أعباء الوظيفة من بعده، هذا وكانت تلك المؤسسات تقدم راتباً أيضاً يعين هؤلاء الدارسين على مواجهة أمورهم المعيشية ومتابعة التعليم في آن واحد^(٢).

إدارات بيت المال: قد حرصت تلك الإدارات على تعليم الطلاب كل ما يتعلق بشئون البلاد وإحصاء الضرائب وشئون الزراعة، وأمور التعليم والتعمير والإحصاء والتسجيل والنقاضي وما إلى ذلك، والمناجم والمحاجر...

ولعل تلك التخصصات تؤكد عما كان يستلزمه هذا التخصص من الإلمام بقدر من المحصول الأدبي والحسابي فضلاً عن قدر وفير من المعلومات العامة بخاصة الجغرافية لذا كانت تلك المواد تقدم أيضاً في تدريب وتعليم كتبة الإدارات، أما عن المعلم فمن الواضح أنه كان رئيس عمل الطالب ويتسم بالمعرفة والخبرة أكثر مما لدى غيره ويفرض على تلميذه الطاعة الكاملة له والنظام والالتزام^(٣).

إدارات الجيش: وهو نوع من التعليم أقرب ما يكون بتعليم المدارس العسكرية حيث أنه لم يقتصر على مجرد كتابة التقارير الخاصة بالأمور العسكرية كالمؤن والأسلحة ونفقات الإسطبلات الملكية، بقدر ما كان يحتوي على قدر كبير من التدريب العسكري، وكان الملتحقون بها عادة في سن العشرين، ويسمون "نفرو" أي الصالحين للجندية فكان يتم تدريبهم على العدو والمصارعة والتسلق والرماية والمبارزة واستخدام البحر. ومن غير المستبعد أنها كانت أيضاً تقوم بتربية الضباط والقادة، وكان المتخرج منها عادة ما يصف نفسه بالضابط الكاتب، وكانوا غالباً ما يتولون المناصب الهامة كالإشراف على الإسطبلات الملكية أو قيادة مركبة الملك، لذلك كان

(١) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ١٧٤ وما بعدها/

(٢) إبراهيم نصحي: التربية والتعليم، مرجع سابق، ص ١٩٩.

(٣) عبدالعزيز صالح، مرجع سابق، ص ١٧٦: ١٧٧/

وأضاف لودفيغ مؤكداً على مهنة الكاتب في النظام الإداري المصري بقوله "وكان الكاتب دولا ب ذلك النظام الرئيسي، ووجد في أحد القبور تصوير جداري لمكتب ينظم الكتابة فيه محاضر ويحسبون ويقيدون ويرسلون بإشراف رئيس..."، لودفيغ أميل، النيل حياة نهر، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، مكتبة الأسرة، هيئة الكتاب، ٢٠٠٠، ص ٥٤٨.

هذا النوع من التعليم غالباً ما يستهوي أبناء الطبقات الراقية من الراغبين في المكانة المتميزة^(١).

ولقد استلزم هذا الإعداد الخاص أن يكون المعلمين على قدر كبير من العلم والثقافة، لذلك كان المعلم يجمع ما بين الثقافة العلمية إلى جانب الثقافة العسكرية، حيث يعلم طلابه الكثير من العلوم الأدبية وعلوم الحساب والمساحات فضلاً عن تفاصيل جغرافية عن البلدان والمسالك والطرق، فضلاً عن المواد العسكرية الخاصة بإجادة العمل العسكري والخلق المتدين الواجب للمهنة، فكان المعلم يتسم بإلمامه بدرجة كبيرة من المعارف السياسية والحربية والعلمية. وقد أشار د/ سليمان نسيم لهذا التدريب المتميز الذي كان يجعل العسكري المصري جندي صلب قوي ولكنه في نفس الوقت متدين على خلق بقوله أن هناك "دليل قوي على ارتباط تربيتهم العسكرية بتربيتهم الدينية ومثلهم الخلقية المعهودة"^(٢).

إدارات المعابد: والتي كانت هي الأخرى تقدم نوعاً من التعليم يماثل ما كانت تقوم به إدارات بيت المال، وكما جمعت إدارات الجيش بين لقب إداري وآخر عسكري للمتعلم، فكان الطالب في مدارس إدارات المعابد يجمع بين لقبين أيضاً أحدهما إداري والآخر من ألقاب رجال الدين.

ومن الواضح أن التعليم فيها لم يقتصر على العلوم الدينية وإنما استلزم أيضاً العلوم الأخرى التي يحتاجها الكاتب كالحساب والأدب والمساحة والفاك أيضاً، ومما لا شك فيه أن تلك المدارس كانت تعد أرقى المدارس المصرية جميعاً، ذلك لأن المنشآت الدينية هي أقدم المنشآت المصرية، فضلاً عن أن الكهنة — كما سبقت الإشارة — هم أكثر المصريين علماً^(٣).

ولقد اتضح من الوثائق والكراسات المعثور عليها أن المعلمين لهذا النوع من التعليم كانوا على درجة كبيرة من الثقافة العلمية والدينية، حيث كان يوصف بالأب المقدس المطلع على الأسرار، أو الكاهن العظيم، أو العليم بالأمور... إلخ^(٤).

مدارس القصر الملكي: رغم أن هذا النوع من التعليم كانت له سماته الخاصة حيث أنه كان يتناول داخله نموذجين للتعليم أحدهما لموظفي القصور الملكية والآخر لتربية وتنقيف أبناء الفرعون والأمراء، إلا أنه لأن المعلم عادة ما كان واحداً من رجال الدين المقربين للفرعون، فضلاً عن غلبة المدارس

(١) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٥٨.

(٢) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٥٩.

(٣) إبراهيم نصحي: التربية والتعليم، مرجع سابق، ص ١٩٩.

(٤) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ١٧٩-١٨١.

الخاصة بإعداد المؤهلين لوظائف العمل بالقصور لذلك سنضيف هذا النوع من المدارس للمدارس الإدارية التطبيقية.

إن القصور الملكية للفراغة كانت تتبع تقليداً خاص بتعليم وتنقيف من ستؤول إليه شئون رعاية الأمور الملكية سواء أكانوا من أبناء الخاصة أو المتصلين بالبلاط أو حتى أبناء الكتبة أو القضاة وغيرهم، وكانت تلك المدارس تهدف إلى:

- بث روح الولاء للفرعون وأسرته من هؤلاء العاملين.
- تكوين تبع خاص للفرعون.

- تزويد البلاط الملكي بالموظفين والاتباع المخلصين لصاحب العرش^(١).
ولقد حرص الفراغة على أن تكون المناهج المقدمة لهؤلاء الاتباع متميزة ومتنوعة فكانت غالباً ما تشتمل بالإضافة للعلوم الدينية والأدبية على العلوم العسكرية وفن آداب وتقاليد القصور، فضلاً عن قدر كبير من المعلومات حول المناصب والألقاب حيث إن المناصب التي كانوا يتولونها عقب التخرج هي مناصب على درجة كبيرة من الأهمية - وظائف قيادية خطيرة - مثل تولي حكم الأقاليم أو الأقطار الخارجية أو مناصب رئاسة الجيوش أو كتابة الوثائق الملكية^(٢).

كذلك كان هناك التنقيف الخاص بالأمراء من أبناء الفرعون وأسرته، وهناك كثير من الإشارات حول عدد من الفراغة ممن اتصفوا بالعلم والمعرفة والثقافة مما يؤكد حصول الأمراء على أنواع معينة من العلوم والمعارف^(٣). ومن الواضح أن الأمراء كانوا يتلقون دروساً في اللغة أو الكتابة وآدابها وآداب وسلوك بروتوكول القصر على يد معلمين متميزين كان أحياناً يطلق عليهم (مدير كتبة الوثائق الملكية للتعليم) أو (كاتب أبناء الملك ومفتشي كتبة التعليم). ومن المؤكد حرص الفراغة على تعليم وتنقيف أبنائهم وحتى الملكات والأميرات أيضاً حتى الملكة حتشبثوت اهتمت بتعليم بناتها وتنقيفهم كما كان يتعلم الأمراء الذكور تماماً، كذلك اشتهر الفرعون رمسيس الرابع بحرصه على الاطلاع على كل ما ماحوته دور الحياة من كتب ومعارف والتعمق في حولياتها وغيرها من الأمثلة التي تؤكد على تقدير

(١) المرجع السابق: ص ٢٠٦: ٢٠٨.

(٢) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٥٧-٥٨. والذي أشار عن المؤرخ المصري مانتيون أن أحد ملوك (الأسرة الأولى الملك أتوتس) قد ألف كتابه في علم التشريح والملك كاكاو وضع كتاباً في القانون.

(٣) Maspero G. M.: The Dawn of Civilization, Translated by M. Clure, London, 1896, p. 238.

الفراغ للعلم والتعلم ومن ثم اهتمامهم ورعايتهم الكبيرة بمدارس القصر سواء التي يتعلم بها الخاصة أو أبنائهم^(١).

وتلك كانت أحوال المعلمين والمتعلمين من مدارس الإدارات المختلفة والتي يتضح منها أنها كانت دراسات مهنية تطبيقية متميزة تستلزم نوعاً كبيراً من التقيف والتدريب، وأنه كان نمطاً تعليمياً مرغوباً فيه لما يقدمه من مركز ومكانة متميزة للمتعلم، فضلاً عما يقدمه من رواتب تساعد المتعلمين على الحياة، كذلك لم يكن الطالب مجرد متعلم وإنما كان يصنف كمساعد كرئيسه ومعلمه وغالباً ما كان معلمه يناديه بالكاتب ليرفع من شأنه ويحفزه على الاستزادة من العلم.

كذلك يتضح مما سبق أنه كان هناك نوعان من التعليم في المرحلة الوسطى أو المتقدمة أحدهما تعليم عام في مدارس جماعية للقادرين على إكمال تعليمهم الثقافي والآخر تعليم تطبيقي مهني خاص بإعداد المتخصصين للإدارات المختلفة لتوفير الموظفين المتخصصين القادرين على الوفاء بالالتزامات المهنية للدولة، وإن هذا النوع من التعليم كان أكثر شهرة وملائمة للعديد من طبقات المجتمع، كما كان يعد أول الطريق المؤدي للمستقبل المتميز للمتعلم.

مرحلة التعليم الخاص (العالي): التعليم في دور الحياة

وكانت المرحلة التالية للراغبين في الاستزادة العلمية بعد اتمام المرحلتين الأولى والمتقدمة، وكانت تتم في مبان ملحقة بالمعابد أو ما كان يطلق عليه "دور الحياة" كما أسماها المصريون القدماء، وهذه المعابد الكبرى كانت توجد في العواصم والمدن الكبرى حيث زخرت تلك المؤسسات بكهنة على قدر واسع من العلم والمعرفة في علوم الدين والفلك والفلسفة والقانون والطب وحتى العمارة والفنون، فكانت أهم مراكزها أون (هليوبوليس = عين شمس)، سايس (صان الحجر) منف (البدرشين) طيبة (الأقصر) وغيرهما ومن الواضح أن هذه الدور كانت نوعاً من الأكاديميات أو المعاهد العليا كمل وصفها جاردنر بأنها أقرب ما تكون إلى دور للنسخ والتصنيف^(٢).

رغم الإشارات المتعددة في الوثائق عن "دور الحياة"، إلا أنها لا توضح وجود خطة واضحة أو منهج نظامي للتعليم المتخصص الذي يقدم بداخلها، على الرغم من الإشارات المتعددة لتقافة علمائها وما كان ينسب إليهم من ألقاب قوية مثل (كتبة دار الحياة العارفون بالأشياء، علماء دار الحياة، هيئة دار الحياة) كذلك أشارت إلى أن هؤلاء العلماء يجيدوا علوم

(١) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ٢١٣: ٢١٦.

(٢) Gardiner, A. H., The House of Life, J. E. A., XXIV, pp. 157FF.

الدين والسحر والطب والمعارف العامة فضلاً عن الإلمام بالسحر وفنونه ومعرفة الفلك^(١).

من هنا فإننا قد لا نجد ما يمكن أن يطلق عليه تخصص بالمعنى المتعارف عليه، ولكن مع ذلك كانت كلمة كاهن في دار الحياة تعطي انطباعاً بالعالم العارف بسائر أنواع المعرفة ولذلك كان ما أكده ارمان من "إن جميع فنون الحكمة والكتابة المصرية اتصلت اتصالاً وثيقاً بالدين وممثليه الكهنة"^(٢).

وعلى الرغم من أن التنوع المعرفي كان السمة الرئيسية للدراسة في دور الحياة إلا أنه يتضح وجود مجالين بارزين في تلك الدراسات التخصصية بما يتضمن تحتها من فروع وهما الدراسات الخاصة بإعداد الكهنة والدراسات الخاصة بإعداد الأطباء وهما ما ستحاول الدراسة الإشارة إلى أهم ما اتسمت به تلك التخصصات.

١- التعليم الخاص بإعداد الكهنة: لقد كان الإعداد لوظائف الكهنوت في مصر القديمة تقليداً وراثياً حيث كان أبناء الكهنة يرثون مهنة آبائهم، ولكن كان لزاماً عليهم أن يدرسوا الرياضيات والفلك إلى جانب الكتابة والقراءة فضلاً عن دراسة طقوس خدمة الآلهة والعبادات وما تشتمل عليه من طرق رعاية وبناء المعابد وتقديم القرابين والاحتفالات والأناشيد وما إلى ذلك مما كان يستخدم من طقوس في العبادة^(٣).

ومن أهم العلوم التي كانت لازمة في إعداد هؤلاء هو تعلم اللغة الهيروغليفية (النقش المقدس) والتي أصبحت نتيجة للالتزام دور الحياة بها يطلق عليها "كتابة دار الحياة" نظراً للاهتمام الواضح لهذا الدور بهذه الكتابة حتى أنها خصصت لأساتذتها ألقاباً متميزة مثل "رئيس أسرار الكلمات المقدسة"^(٤).

كذلك ارتبطت مناهج الإعداد الكهنوتي بمعرفة الفلك، حيث كان المصريون من أول الشعوب التي وضعت التقويم وعرفت الأشهر القمرية واكتشفوا المزاويل والساعات المائية لحساب الزمن وعرفوا النجوم السيارة وأنواع الأجرام السماوية وما إلى ذلك من الأمور الفلكية والتي استخدموها لتحديد الفصول الزراعية ولأعياد الآلهة وما إلى ذلك من الأمور الحياتية، كذلك ارتبط عندهم علم الفلك في كثير من الأحيان بالتنجيم والذي اشتهروا به أيضاً، ولكن من الواضح أن المصريين كانوا يأخذون من تلك المعارف ما

(١) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٢) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٦٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٦١.

(٤) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ٢٢٥.

يصلح للفائدة العملية دون التطرق للنظريات أو الفاسفات أو أي أمور أخرى لا يمكن تطبيقها عملياً^(١).

وكان هذا النوع التعليمي الخاص بإعداد أشهر الفئات علماً وثقافة في المجتمع المصري كان يستلزم قضاء فترات طويلة في الدراسة والتحصيل والتلمذة على يد كبار الكهنة والأخذ عنهم، وهو لعله كان أقرب شياً كما وصفه صاحب التربية القبطية "بنظام التلمذة على المعلمين الشيوخ في الأديرة، وفي الأزهر، خلال العصور الوسطى"^(٢). وهو شيء غير مستبعد لطبيعة المصري المرتبطة دائماً بالمؤسسة الدينية على مر العصور.

٢- دراسات التخصص في الطب: لقد أشارت معظم الوثائق أن دور الحياة كانت لها صلتها الوثيقة بالطب وإعداد الأطباء والتي بلغت شأناً كبيراً داخل وخارج مصر حتى أن الملك دارا اصطحب الطبيب المصري وزاحورسنت معه إلى بلاده لإعادة بناء مدرسة الطب بسايس بفارس بعد أن خربت وكانت قد انتهت أمرها^(٣).

وقد أشاد هيردوت بمكانة الطب والأطباء المصريين، وأشار إلى أن منزلة الشعب المصري في الطب لم تسجل لغيره من شعوب الدنيا وأشار للتخصص الذي عرف في فروع الطب لدى الأطباء المصريين بقوله "وينقسم التطبيب عندهم إلى الفروع التالية: لكل مرض طبيب متخصص فيه لا أكثر. وبلادهم كلها خاصة بالأطباء؛ بعضهم متخصص في العيون، وبعضهم في الرأس وبعضهم في الأسنان، وبعضهم في الأمعاء، وبعضهم في الأمراض الخفية"^(٤).

ولقد أكدت البرديات الوفيرة التي تم العثور عليها وتختص بالطب في مصر القديمة على تنوع مجالاته التي برع فيها الأطباء المصريون، ومنها بردية كاهون في تشخيص أمراض النساء، وبردية ايبرز في الأوصاف الطبية وأدوية عدد كبير من الأمراض، وأهمها بردية أدون سميث، التي اعتبرت أقدم كتاب للجراحة في العالم ترجع إلى عام ٣٠٠٠ ق.م وتضم العديد من المجالات عن الجروح والجراحات في كافة أجزاء الجسد

(١) سليم حسن: مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٦٠: ٣٦٤/ لودفيغ: مرجع سابق، ص ٥٥٩.

٥٦٢

(٢) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٦٢.

(٣) Gardiner, op. cit., p. 157FF.

(٤) هيردوت: مرجع سابق، ص ١٩٠: ١٩٢.

البشري وما به من أوعية وشرابين، والتي بلغوا فيها شهرة كبيرة جعلتهم يختصون باسم سخمت (أي الطبيب الجراح)^(١).

ومن المؤكد أنه كانت هناك عناية خاصة فيما يتعلق بإعداد الأطباء، بداية من الحرص على أن يكونوا من بين أبناء الكهنة وتضييق حدود اختيارهم، كان من نتاج ذلك وضوح واستمرار التخصصات، هذا فضلاً عن أنه من الثابت أن الملوك من آل فرعون كانوا يقربون الأطباء ويجزلون لهم العطايا، كما اشتهر بعضهم بمعرفة الطب أنفسهم كالمملك (نفرار كارع) من الأسرة الخامسة، وقد أكد هيردوت على تلك العناية من الفراعنة وأضاف أنهم كانوا يمنحونهم أيضاً الألقاب الفريدة مثل (عميد الأطباء)، (الطبيب الأول) و(طبيب القصر الأول) وما إلى ذلك تقديراً لجهودهم^(٢).

ولم تقتصر علوم الطب في معاهد دور الحياة على التخصصات الطبية والجراحة فقد اشتملت على مواد أخرى استلزمها الدراسة الطبية ولا شك كعلم التشريح وعلوم الكيمياء والصيدلة أيضاً.

بالنسبة لعلم التشريح فقد استلزم دراسة الطب تشريح الجسم، وكان المصريون أول من توصل إلى ذلك، كما ارتبط علم التشريح لديهم بتحنيط الجسد والذي كان له علاقة وثيقة بالمظاهر الدينية والاعتقادات المصرية حول البعث، لذلك كانت عملية التحنيط في مصر القديمة بدأت منذ الأسرة الثانية وقد أثبتت الاختبارات الحديثة للمومياءات الفرعونية دراية وقدرة القائمين بهذا الأمر، وقد حاول الكثير من المؤرخين كهيردوت أن يفسروا طرق التحنيط وأن يصفوا المواد المستخدمة في تلك العملية كالنظرون والحناء وغيرهم ولكن على رغم كل ذلك ما زال في الأمر العديد من رموز الغموض مما يؤكد أن القائمين عليها كانوا يعتبرونه سراً خاصاً بهم فقط^(٣). كذلك ارتبط الطب المصري بعلم دراسة العقاقير (الصيدلة) لذلك برعوا في علم الكيمياء وعرفوا الكثير من خصائصها وتفاعلاتها المختلفة

(١) عادل نسيم ابوسيف: مجلة مركز الدراسات البردية، م ٧ (أ)، القاهرة، جامعة عين شمس مركز الدراسات البردية، ١٩٩١، ص ٣٧ وما بعدها/

وقد أورد سيادته تحليلاً للمعلومات الطبية التي جاءت في تلك البرديات كاملة فضلاً عن عدد الحالات المرضية والوصفات وتاريخ البرديات.

(٢) هيردوت: مرجع سابق، ص ص ١٩٠-١٩١.

(٣) سليم حسن: مرجع سابق، ج ٢، ص ص ٣٧١: ٣٨١/

وأكد محمد صقر خفاجة: على منزلة التحنيط لدى الأطباء بقوله "أن مهنة الطب عند أجدادنا من شعب هذا الوادي كانت تقتضي من أصحابها أن يعرفوا الفن الجميل، وأن يعرفوا صناعة التحنيط، وأن يكونوا من الكتاب المجيدين، والسحرة الماهرين؛ كما كانوا يؤمنون بقداسة هذا العلم..". هيردوت: مرجع سابق، هامش ص ١٩٠/

وعن التحنيط وطرقه المختلفة هيردوت: مرجع سابق، ص ص ١٩٣: ٢٠٠.

سواء ما كان منها متصل بالتحنيط أو لصنع العقاقير وتركيب الأدوية المختلفة^(١).

ومن الواضح أن الأطباء المصريون كانوا يسجلون علومهم الطبية حتى يستفيد منها من يأتون بعدهم وبهذه الطريقة نقلت علوم الطب من الفراعنة إلى الأقباط المصريون الذين ظلوا يتعلمونها على أيدي كهانها خلال العصرين اليوناني والروماني حتى ظهرت براعتهم في العصر القبطي وقد وجدت إحدى البرديات لطبيب مصري قبطي في القرن العاشر أوضحت أنها نموذجاً لاستمرار الأسلوب المصري القديم في علوم الطب كما أشار محلل البردية^(٢).

وهناك العديد من الأمثلة ولاشك على تقدم الطب المصري دلت عليها العديد من الآلات الجراحية الطبية التي تم العثور عليها، فضلاً عما تم إثباته من اكتشاف المصريين لمادة التخدير حتى لا يشعر المريض بأي ألم أثناء الجراحة، هذا بالإضافة إلى أن العديد من المصطلحات الطبية هي مصرية الأصل ولا شك مثل Pharmacopia (علم دراسة الأدوية) هي اشتقاق من الكلمة المصرية Phara-ma-ki (الذي يعطي الأمان أو الشفاء)، كذلك كان إلحاق العيادات بالمعابد دليل على مكانة وقداسة هذا العلم لدى المصريون^(٣).

هذا فيما يتعلق بالتعليم العالي التخصصي في دور الحياة، والتي بقي فيها دوراً آخر كانت تقدمه للعلم والثقافة لذا كان من المنطقي ضمه إليها حيث إنه كان جزءاً لا يتجزأ من الوسائل التعليمية فيها وهو الدور الذي لعبته دور الكتب والمحفوظات بها.

فقد كانت تلحق بالمعابد الكبرى مكتبات خاصة تعتبر مراكز ثقافية متميزة ضمت الكثير من المؤلفات العلمية الهامة، فضلاً عن الحوليات الخاصة بالآلهة وسير الملوك وما إلى ذلك من كتب غطت مجالات العلم والفكر المختلفة وكانت تلك المكتبات تقدم خدماتها للدارسين وطلاب العلم وللملوك أيضاً، كما تبعت الإشارة لاهتمام الفرعون رمسيس الرابع بما فيها من كتابات مقدسة وكانت دور الكتب تلك تضع عدد من العاملين عليها

(١) جورج شحاته قنواتي: تاريخ الصيدلة والعقاقير، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩، ص ٣٢-٦٤ وقد أوضح سيادته الكثير من أنواع النباتات الطبية المختلفة والمواد الطبية فضلاً عن ذكر عدد كبير من الأمراض التي تستخدم تلك المواد في علاجها.

(٢) Chassinat(E.): Un Papyrus Medical Copte, Le Caire, 1921, p. 8.

(٣) سمير يحيى الجمال: الجراحة في مصر القديمة، مجلة الدراسات البردية، مرجع سابق، ص ١٣ وما بعدها/

وقد أورد سيادته ملحقاً بكافة الأدوات الطبية والجراحية التي كانت تستخدم لكافة العمليات وكيفية تخييط الجروح وما إلى ذلك.

كالكتبة والمفتشين وتشتمل على قاعات عدة تحتوي على الكتب، كذلك عرفت نظام القوائم لما تحتويه تلك القاعات لتسهيل الاطلاع بها وقد قدمت تلك المكتبات دوراً كبيراً في خدمة العلم والثقافة في مصر القديمة^(١).

ومن هنا يمكن استخلاص ملامح النظام المدرسي في المرحلتين الأولى والمتقدمة وإلقاء الضوء على أحوال المعلمين والمتعلمين فيها والتي كانت كالآتي:

التنظيمات المدرسية: كان الأطفال عادة يظنون في رعاية أمهاتهم حتى سن الثالثة وكان المنزل هو المؤسسة التربوية الأولى حيث يتعلم الطفل القواعد الأساسية والأخلاق والسلوكيات، وقد عرف الأطفال المصريون الألعاب بأنواعها، وحين كان يبلغ الطفل سن الخامسة كان يلتحق بالمدرسة ليتعلم الكتابة، والمدرسة الأولية كانت تخضع للحكومة التي تشرف عليها ويبقى التلاميذ بها حتى السادسة عشرة أو السابعة عشرة، حيث يدرسون مهنة الكتابة أو غيرها من المهن، أما الطلبة الراغبون في الاستزادة فكانوا يلتحقون بدور الحياة لدراسة اللاهوت أو الطب^(٢).

كذلك عرف التعليم المصري التلمذة الصناعية، فكان التلميذ إما أن يتدرب على يد أبيه أو يذهب لصانع ماهر فيتعلم منه حتى يجيز له وذلك كان يتم عن طريق الممارسة.

كذلك اتسم النظام المدرسي بالقسوة والصرامة، والنظام وكان العقاب شائعاً وبخاصة الجلد إذا أهمل التلميذ في أداء واجباته، وربما رأى بعض المصريين أن استخدام الشدة مع المتعلمين هي ضرورة لا بد منها، وإن كان هذا لم يمنع من وجود بعض النصائح الخاصة بالتهذيب والتوجيه بدلاً من العقاب^(٣).

المعظمون: من المرجح أن المعلمين كانوا موظفين حكوميين، وهم أيضاً كانوا المسؤولين عن الإشراف على نسخ المواد المكتوبة، والتي كان الطلبة ينسخونها هذا فضلاً عن جماعة من الكهنة لتدريس علوم الدين والمحافظة على التراث الديني والأدبي فضلاً عن تدريس الرياضيات والعلوم والتي كانت لهم السيطرة عليها^(٤).

الطلبة: رغم كثرة النصوص التي وردت بها النصائح الداعية إلى التعليم وأهميته إلا أن الثابت كما سبقت الإشارة أن نسبة المتعلمين كانت محدودة، ولم يلتحق بالمدارس إلا عدد محدود من التلاميذ، وقد اتسم معظم التلاميذ بالسلوك الجيد نتيجة للخوف من العقاب الصارم للمعلمين، وإن كان هذا لم

(١) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ٣٥٩: ٣٦٦.

(٢) سعد مرسي وآخرون: مرجع سابق، ص ٦٧-٦٨.

(٣) سعد مرسي: مرجع سابق، ص ٧٠.

(٤) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ١٨٦.

يمنع من وجود بعض الاستثناءات في الطلبة ممن نسبت إليهم تصرفات لا تليق كالإكثار من شرب البيرة أو النبيذ.. إلخ^(١).

أما عن تعليم الفتيات في تلك الفترة، فلم يكن يلتحقن بالمدارس وإن كانت الطبقات العليا قد حرصت على استقدام معلمين لتقديم نفس العلوم والمناهج المقدمة للأولاد لفتياتهن في المنازل^(٢).

وقد يساورنا هنا التعجب من حجب الفتيات عن التعليم رغم ما حظيت به المرأة المصرية من مكانة في ذلك العصر وصلت حتى درجات التأليه.

موارد التعليم: كانت السيطرة الكاملة للتعليم للسلطات الرسمية والدينية على المدارس بحكم العرف لا القانون، حتى وفي التدريب الفني حيث إن الصناعة كانت تخضع لمتطلبات السلطات الرسمية والدينية.

ويبدو أن المصاريف كانت محدودة في المدارس العامة أو كليات المعابد (دور الحياة) وفي المدارس الحكومية الخاصة بالإدارات كانت تصرف وجبات للكاتب، أما دور الحياة لمكانتها الدينية فقد عاش طلبتها في رغد من العيش ولكن رغم انخفاض كلفة التعليم لحد ما إلا أنه من الواضح أنها لم تكن في إمكان الكثيرين فكان من لا يستطيع توفير التعليم لأولاده بعد المرحلة الأولى يلحقونهم بمدارس الإدارات حيث يتلقون رواتب ويتعلمون في أن واحد^(٣).

ومما لا شك فيه أن التربية المصرية بهذا النظام كانت حافظة أمينة للثقافة والتراث القومي المصري، وأكد على ذلك التقدم الرائع الذي حققته مصر في كافة المجالات وأشادت به أثارنا، والذي يؤكد أنه لم يكن وليد رغبة في التباهي بقدر ما هو نتاج لإنجاز سواعد متدربة متعلمة على درجة كبيرة من العلم والتقدم والتميز تقدر مجتمعا وتظن أن كل ما تقدم يزيد من مكانتها لدى الآلهة ويعلي من منزلتها في العالم الآخر.

ومما سبق يتضح أن التربية في مصر القديمة قد سلكت مسلكاً وسطاً معتدلاً بين الإشراف المطلق وإطلاق الحريات لتحقيق غاياتها، فعلى الرغم من اتجاهها إلى الثقافة المتنوعة إلا أنها تميزت في نفس الوقت بوجود نظام تعليمي واضح في المرحلة الأولى وامتدادها بالمرحلة المتقدمة في المدارس الجماعية أو مدارس الإدارات ثم في إتاحة مرحلة للتخصص في دور الحياة، وهنا يظهر أن التعليم قد جمع بين الجانب الديني والعملية أي أنه أيضاً كان وسطاً بين المادية الخالصة والروحية الخالصة فحقت أهدافها

(١) سعد مرسي وآخرون: مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) سعد مرسي وسعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص ٧٢.

(٣) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ١٨٦.

الدينية والمدنية وحتى هدف طلب العلم لذاته بما وفرته من وسائل ثقافية داخل دور الحياة، كذلك كان النظام التعليمي نموذجاً متميزاً لوضع العلم في إطار عملي لحل المشكلات الحياتية والمجتمعية فسخروا جهودهم وعلومهم للازدهار بمجتمعهم وحضارتهم والتي ظهرت ثمارها جلية فيما أبدعوه من مهارات وفنون.

وبهذا يمكن القول دون مبالغة أن نظام التعليم المصري كان بحق حافظاً للقيم والتراث المصري، وأنه نقله بأمانة لغيره من الأمم لتتعلم على يدي هذا الشعب المتحضر كما سيتضح من التبادل العلمي والفكري بين الثقافتين المصرية والإغريقية، والذي رغم ما أخذته مصر من تلك الثقافة الوافدة إلا أنها تمكنت من حفظ سماتها ولامحها الأصلية لتقلها إلى أحفادها مصرية خالصة في فترة لاحقة فتتجلى في نهضة علمية وفكرية تبشر ببعث حضاري مصري جديد في العصر البيزنطي (أو عصر الحضارة القبطية) كما درج على تسميته تمييزاً لقوميته المصرية.

تأثير الحضارة المصرية على الحضارة الإغريقية:

لقد كان من غير المنطقي أن نظن كما أشار بعض المؤرخين القدامى، أنه بدخول الإسكندر إلى مصر اندثرت تماماً الحضارة والثقافة المصرية القديمة، وتحولت مصر إلى مملكة هيلينية خالصة، فهذا لا يتفق مع العقل سواء ما عرف عن طبيعة أهل مصر أو حتى بالنسبة لما بلغت تلك الثقافة والحضارة من درجة كبيرة وسامية، فلا بد من وجود نوع من التأثير والتأثر ولا بد أن هناك سمات ظلت أصيلة وإلا كيف نقلت تلك الثقافة مرة أخرى لأقباط مصر ومدرسة الإسكندرية التبشيرية في العصر البيزنطي بعد ستة قرون كاملة إذا كانت قد اندثرت تماماً، ومن هنا كان لزاماً علينا أن نشير إلى فضل مصر على الثقافة والحضارة الإغريقية وفقاً لما أثبتته الدراسات والوثائق لا نابعاً من الاندفاع الشخصي لتمجيد حضارتنا.

كان من الأخطاء الشائعة أن الحضارة الإغريقية هي أم الحضارات الغربية وإنها لم تكن في حاجة مطلقة لأي من المدينيات التي سبقتها وأن ما أنتجه رجال العلم الإغريق من فن وأدب وفلسفة وعلم كله من نسيج أرضها، إلا أن ما أثبتته الوثائق وما جاء على لسان مؤرخي الإغريق أنفسهم كهيردوت أثبت أن بلاد الإغريق مدينة لمصر في كثير من أصول علومها ولا سيما الفلسفية، وأن الشعب الإغريقي ارتبط بالشعب المصري بدرجة كبيرة جعلته يستقي من علومها ومعارفها ولا سيما الشعب الهيلاني الذي ورث عنه الإغريق حضارتهم^(١).

(١) سليم حسن: مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٤، ص ٣٩: ٤١.

ولعل الثابت أن العلاقة بين مصر واليونان هي علاقة قديمة بدأت أولاً مع جزيرة كريت التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمصر، ولعل ما يؤكد ذلك وجود العديد من الأشياء المصرية في القصور الكريتية، فضلاً عن الأشياء الكريتية التي وجدت في المقابر المصرية، أما أهل المدن الإغريقية فقد كانوا عند المصريين يعرفون بأقوام البحار وكانت علاقات التجارة والتجارة والتجاور بينهم يسودها الود، حتى أظهروا العداوة للمصريين وحاولوا الإغارة عليهم وهي الغزوات التي قضت عليها مصر وكان نتيجة لها أن أوقفت علاقاتها مع أقوام البحار لقرون طويلة^(١).

إلا أن هذه العلاقة مالبث أن عادت قوية منذ عهد "أحمس الثاني" في الأسرة السادسة والعشرين حين ساعد الإغريق مصر في التصدي للأثيوبيين والآشوريين، فأنعّم الفراعنة على اليونانيين بمركزين للإغريق يعيشون فيهم بحرية كاملة وهما "تقراش" و"دقنه" وعن طريقهما وصلت الحضارة المصرية إلى بلاد الإغريق حيث كان الإغريق ينقلون منهم جيئةً وذهاباً إلى بلادهم وعنهم أخذ الإغريق علومهم وفلسفتهم^(٢). كما سيوضح.

ولقد أخذ هذا الاكتساب العلمي في الإزدياد مع الغزو الفارسي للبلاد ٥٢٥ ق.م حيث استمرت الهجرات اليونانية على مصر وأتى طلاب العلم من أيونيا وجزر ايجيه يزورون مصر ويتعلمون في دور الحياة بها وينهلون من الثقافات والمعارف الثرية في مكنتباتها المتعددة في داخل المعابد المصرية مثل مكتبة معبد الرمسوم وغيرها، هذا فضلاً عن زارها من علماء وشخصيات بارزة تأثرت هي الأخرى من منبع تلك الثقافة الغزيرة^(٣).

ولقد أخذ الإغريق الكهنة المصريون ورجال العلم في كافة المجالات العلمية والثقافية حيث يتضح من تعدد الأسماء التي حضرت إلى مصر وتنوع مجالاتها التي نبغت فيها ذلك فقدم إليها المشرعون السياسيون كسولون وعلماء الرياضة كفيثاغورث والمؤرخون كهلانيكوس والفلاسفة كسقراط وأفلاطون وغيرهم عديدين، حتى أن هيردوت نفسه أشار إلى تلك الزيارات وأوضح بصورة غير مباشرة ترفع الكهنة المصريين، كترفع العالم أمام تلميذه الصغير الذي يتعلم على يديه وشعورهم بالتفوق، في محادثة سولون مع كاهن مصري حين تحدث عن افتقار الإغريق لتاريخ حضاري

(١) المرجع السابق: ص ص ٤٢-٤٣.

(٢) جورج جي أم. جيمس: التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ترجمة شوقي جلال، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة والمشروع القومي للترجمة، ١٩٩٦، ص ٥٣.

(٣) إبراهيم نصحي: التربية والتعليم، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

طويل كما لدى المصريون بقوله "أنكم ستظلون أطفالاً إلى الأبد إذ ليس في بلاد الإغريق رجل مسن"^(١).

وكانت أول وأهم المجالات التي اتبعت فيها الإغريق خطوات المصريين هو ما يتعلق بالديانة المصرية وأسماء الآلهة والتقسيم الاثنى عشر للآلهة وارتباطه بحساب الزمن عند المصريين كذلك نقلوا عنهم معابدهم ومذابحهم، كذلك أوضح هيردوت أن أسماء عدد كبير من الآلهة اليونانية كهيراكليس، كان إله مصري الأصل^(٢).

وقد تعددت مجالات الاستفادة لدى الإغريق من العلوم المصرية فتعلم فيها فلاسفة ومشرعون ورياضيون وأطباء وفلكيون ومؤرخون أيضاً، فمثلاً (بيتاجوراس) أخذ نظريته الخاصة بتقمص الأرواح منها، كذلك علوم المساحة والهندسة نقلت من مصر لبلاد الإغريق، كما أخذ المشرع (سولون الاثيني) بعض قوانينه عن القوانين المصرية، هذا فضلاً عما ذكر من أن (فيثاغورث ٥٣٠ ق.م)^(٣). تعلم كل علومه حين مكث في مصر ولعل الأثر الواضح والكبير كان لدى الفلاسفة وحتى الشاعر الشهير هومر في يادته فقد ثبت أن كثيراً من الأفكار الفلسفية ارتبطت بالأفكار والطبيعة المصرية بدرجة كبيرة كفكرة الجنة وعالم الآخرة ومن تلك الأمثلة الفيلسوف (تاليس): مؤسس أول مدرسة في بلاد اليونان، كذلك قيل أنه مؤسس العلم المبني على البراهين العقلية والذي تعلم طويلاً على الكهنة المصريين وأخذ عنهم فكرة أن الماء أصل كل الأشياء، ثم (اناكزيماندر ٦١٠ ق.م)، مخترع الساعة الشمسية، وفيثاغور، الذي مكث بمصر لحوالي عشرين عاماً وأمن من خلالها بفكرة انتقال الأرواح من مخلوق لآخر، ولوسيبي: مؤسس مدرسة (ابديري) التي تبحث في الذرة، وديموكريوتوس ٤٢٠ ق.م: الذي وصف بأنه بحراً فياضاً في معلوماته لكثرة ما أخذه عن الكهنة المصريين في كافة المعارف الإنسانية من طبيعة وفلك ورياضيات، فضلاً عن علم الكيمياء، العلم المصري الأصيل واكتشافاته عن الذرة من خلاله وجعلها أساس جميع الموجودات المادية، وغيرهم كثيرون^(٤).

لعل هؤلاء العلماء يقفون دليلاً على عدم وجود تعارض بين أن تنهل الثقافة الإغريقية من الثقافة المصرية، ليس هذا وحسب فقد أشار بعضهم إلى أن العلماء والفلاسفة المصريين كانوا المؤسسين الأوائل للعديد من العلوم

(١) سليم حسن: مرجع سابق، ج٤، ص٤٧.

(٢) هيردوت: مرجع سابق، ص ص٢٧٦: ٢٧٨.

(٣) سليم حسن: مرجع سابق، ج٤، ص٥٠.

(٤) يمكن الرجوع لمزيد من التفاصيل والأمثلة عن هؤلاء العلماء وغيرهم في سليم حسن:

مرجع سابق، ج٤، ص ص٥٤: ٦١/ وأيضاً

جورجي جي: مرجع سابق، ص ص٦٤: ٨٦.

العالمية، وفي هذا أشار سليم حسن إلى أن "الإسكندر عندما دخل مصر كان يعلم أن علوم الإغريق يرجع نبعها الأصلي إلى مصر، ولهذا كانت مصر تعد مهد العلوم والحكمة والدين في كل العالم.. ولا غرابة فإن أفلاطون الذي علم أرسطو معلم الإسكندر كان قد حضر إلى مصر وأخذ من علمائها ما أفاد بلاد الإغريق والحضارة الإغريقية، تلك الحضارة التي عادت ثانية لتبنى لنفسها مجداً جديداً في عصر البطالمة في أرض النيل التي أخذت عنها في بادئ نشأتها مبادئ علومها ودينها وفلسفتها"^(١).

وبعد أن حاولت الدراسة إلقاء الضوء على بعض آثار الحضارة المصرية على الحضارة اليونانية، تأتي إلى محاولة رفع النقاب عن السمات التربوية والتعليمية لتلك الحضارة على أرض مصر وهو ما سيتناوله الفصل التالي إن شاء الله.

(١) سليم حسن: المرجع السابق، ج٤، ص ٦٢: ٦٣.

الفصل الثالث

التربية في العصرين اليوناني، والروماني

من سنة ٣٢٣ ق. م. حتى ٣٣٠ م

(أو عصر سيادة الثقافة الهلنستية)

• لمحة عن الأحوال المجتمعية للبلاد.

• أنواع التعليم:

• أولاً: التعليم المصري.

• المدرسة الأولية والمتقدمة.

• التعليم الخاص (العالي).

ثانياً: التعليم الإغريقي (الهليني):

• الفلسفة والأهداف.

• مؤسسات التعليم والمراحل التعليمية فيها.

• المناهج وطرق التدريس في المؤسسات

التعليمية.

• أحوال المعلم والمتعلم داخل المؤسسات

التعليمية.

الفصل الثالث

التربية في العصرين اليوناني، والروماني

من سنة ٣٢٣ ق.م. حتى ٣٣٠ م

(أو عصر سيادة الثقافة الهلنستية)

لمحة عن الأحوال المجتمعية للبلاد:

ذكرنا في الفصل السابق أن التأثير الأغريقي لم يدخل إلى البلاد مباشرة مع فتح الإسكندر لها وإنما عرفت مصر الأغريق في مراحل مختلفة من تاريخها وكان هناك نوع من التأثير والتبادل المشترك بينهما ولا سيما في النواحي الاقتصادية والثقافية وبذلك لم يكن دخول الإسكندر إلى البلاد بالأمر الشديد الغرابة على أهلها ولذلك لم يكن غريباً أو من غير المنطقي أن يستقبل أهل البلاد دخول الأغريق دون ضغينة أو كراهية كالتى أظهرها مع دخول الفرس عام ٥٢٧ ق.م.

أما عن تسمية فترة الدراسة تلك بعصر سيادة الثقافة الهلنستية (ثقافة الهلين - الأغريق - في الشرق) فهذا لأنه على الرغم من أن هذه الفترة تولى خلالها نظامان مختلفان في الحكم وهما البطلمي ثم الروماني منذ عام ٣٠ ق.م. إلا أنه حتى عند التغيير في شئون الحكم فإن كافة الأحوال المجتمعية ظلت كما كانت عليه على نفس النظام الذي وضعه الأغريق، كذلك ما يهمننا بالدرجة الأولى وهي الأحوال الثقافية فقد ظلت الثقافة السائدة هي الثقافة الإغريقية وكانت الأساس للتربية والتعليم طوال تلك الفترة، ولم تتغير إلا بمجيء عصر سيادة القبطية في الحكم البيزنطي فاشتمت النظم التربوية والتعليمية من الديانة السماوية الجديدة منهاجاً لها فتغيرت اللغة من اليونانية التي ظلت سائدة طوال العصر اليوناني - الروماني إلى القبطية المصرية، وأصبحت سيادة التعليم للكنيسة المصرية بدلاً من مدرسة الإسكندرية الوثنية^(١).

فإذا اعتبرنا الفترة منذ عام ٣٢٣ ق.م. حتى عام ٣١١ م هي فترة سيادة الثقافة الإغريقية فهذه حقيقة لا تقبل الشك حيث اعتبر الرومان أنفسهم ورثة الثقافة الإغريقية كما ورثوا ممتلكاتهم. وحفظوا عنهم فلسفتهم وعلومهم وأدابهم وحتى لغتهم كلغة للعلم والثقافة.

الأحوال السياسية: أخذت مصر في الضعف بنهاية الأسرة العشرين حوالي عام ١٠٧٠ ق.م. حتى كان احتلال الفرس لها في عام ٥٢٧ ق.م.، في ذلك الوقت كانت بلاد اليونان قد أخذت تنهض في شكل دويلات

(١) Hardy (E. R.),: Christian Egypt, New York, 1952, p. 172.

المدن (city-state) وكان أكبرها أثينا التي تزعمت إقليم اتيكيا، واسبرطه التي فرضت سيطرتها على جنوب اليونان، وأخذ الإغريق في الانتشار والاستيطان حتى وصلوا قورينه في ليبيا على البحر المتوسط، وكان أهل أثينا يهتمون بمصر على وجه الخصوص مركز للقمح بالنسبة لهم فحرصوا على العلاقات الطيبة معها وأخذت العلاقات المصرية الإغريقية تقوى كما سبقت الإشارة وأصبحت للإغريق مدنية خاصة بهم على أرض مصر وهي نقراطيس، والتي ساعدت على أن تمنح الحضارة المصرية للمعرفة الإغريقية دفعة ثقافية قوية عن طريق من وصل أرض مصر من الإعلام والمشورعين السابق ذكرهم، فكانت علاقة المصريين معهم جيدة على عكس الفرس ممن احتلوا البلاد وأساعوا معاملة أهلها حتى كان الفتح المقدوني لمصر، ومن هنا كانت محاولة بطليموس الأول لاستمالة المصريين أثناء تأسيس دولته في مصر حين جلب معه التماثيل والكتب والتحف التي سلبها الفرس من مصر إلى أرض مصر ثانية استرضاء لشعبها وتأكيدا لوراثة لعرش مصر^(١).

لقد تمكنت القوة المقدونية الجديدة وعلى رأسها الإسكندر الأكبر من اجتياح كل مملكة للفرس، وحين وصل إلى مصر سلمت له بسهولة رغبة في الخلاص من الاحتلال الفارسي واعتبرته وريثا لعرش الفراعنة كما اعتبر هو نفسه ابن الإله أمون، وبدخوله مصر وتوجيهه فيها تحولت مصر إلى مملكة يونانية وبدأت سمات الثقافة الإغريقية تدخل إليها كما أثرت هي فيها من قبل^(٢).

وحين توفي الإسكندر أثناء إتمام فتوحاته قسمت مملكته بين قواته فجاءت مصر من نصيب قائده بطليموس بن لاجوس سنة ٣٢٣ ق.م. والذي أسس فيها دولة البطالمة التي ضمت مصر وما حولها من بلاد فتحنت في عهد البطالمة العظماء.

إلا أن قوة الدولة البطلمية ما لبثت أن بدأت تخدم بوصول ملوك ضعفاء إلى الحكم فبدأ يظهر نفوذ روما التي أخذت في وراثة الممالك اليونانية واحدة تلو الأخرى، ومنذ أيام بطليموس الخامس بدأ ازدياد نفوذ روما في مصر، حتى وصل في عهد بطليموس التاسع إلى نوع من التحكم فيمن يبقى على عرش مصر من البطالمة، وظل البطالمة يفقدون سلطانهم درجة درجة حتى أصبح سلطانا أسمياً فقط، حتى جاءت كليوباترا السابعة إلى عرش مصر وحاولت أن تعيد للبطالمة سلطانهم وأن تستغل هي روما في تدعيم ملكها في مصر وخارجها حيث طمحت لأن تحكم العالم الروماني

(١) سيد توفيق، سيد الناصري: معالم تاريخ وحضارة مصر من أقدم العصور حتى الفتح العربي، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٧٧، ص ٥: ٢٠.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٠.

نفسه فكان تقربها من يوليوس قيصر الحاكم الروماني ثم انطونيوس المسئول عن الولايات الشرقية مما جلب عداة الرومان الشديد عليها وهو الأمر الذي أنهى بهزيمتها وحليفها انطونيوس على يد اكتافيوس (أغسطس) في موقعة اكتيوم البحرية ٣١ ق.م. والتي فقدت بعدها مصر استقلالها وغدت ولاية رومانية بعد أن كانت مملكة مستقلة على عهدي الفراعنة والبطالمة^(١).

وإذا كانت مصر تحولت سياسياً من حكم الإغريق إلى حكم الرومان فهو تقريبا التحول الوحيد الواضح في أحوالها المجتمعية حيث أبقى الرومان على نفس الأوضاع التي وضعها البطالمة دون تغيير يذكر حتى الثقافة والتعليم - وهو ما يعنينا بالدرجة الأولى - ظلت خاضعة للتعليم اليوناني والذي أصبح هو التعليم السائد في أنحاء العالم حتى في روما نفسها. ولذا سنذكر لمحة سريعة للأحوال المجتمعية عموماً والتي لم تختلف طوال تلك الفترة - العصر اليوناني الروماني - شرع الإسكندر في أول حكمه إلى إرساء دعائم مملكته الهلينية لذلك بدأ في تأسيس مدينة تكون إغريقية الطابع وتصبح عاصمة البلاد فكانت الإسكندرية التي أنشأها في موقع قرية مصرية قديمة - راقوده - على البحر المتوسط، وحرص على أن تكون مركزاً للحكم وأكبر ميناء تجاري على البحر المتوسط، فضلاً عن أن تكون أكبر مركز للثقافة والعلم الهليني في الشرق فسعى لأن يجعل منها قبلة لطلاب العلم الهليني من أنحاء العالم، وهو الهدف الذي دعاه لأن يحضر معه عديد من العلماء والباحثين ليرصد أحوال البلاد ويساهموا في إنشاء هذا المركز الثقافي في مصر فقام بتأسيس الإسكندرية على أروع ما تكون عليه أسس العمارة الإغريقية لتكون سجلاً لأعماله العظيمة ومن هنا كان حرصه على أن يمنحها اسماً مشتقاً من اسمه^(٢).

لقد أوضحت سجلات العصرين اليوناني - الروماني أن طبيعة الأرض المصرية التي تعتمد على النشاط الزراعي لها كمصدر للحياة لمصر ولغيرها من الشعوب، كذلك موقعها المتميز الذي منحها قدراً من الاعتماد الذاتي على النفس في حماية أرضها، كل هذا حدا بالإسكندر ومن تبعوه من البطالمة، ثم الأباطرة الرومان المستنيرين في القرنين الأول والثاني على أن يجعلوا للبلاد نظاماً إدارياً خاصاً يكفل للحكام إحكام كافة السلطات الإدارية والمالية والعسكرية في يده، لذلك كان لها وضعها الخاص المميز في المملكة

(١) Naphtali (L.), Life in Egypt under Roman Rule, Oxford, 1983, Int.

(٢) محمد جمال الدين مختار وآخرون: الموسوعة المصرية (تاريخ مصر القديمة وأثارها) ج١، ص ٤٣٧، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٧٨، ص ٤٨٨.

البطلمية كمرکز لحكم عدد من الممالك، وكذلك كولاية خاصة ومميزة وذات وضع فريد تخضع لسلطة الإمبراطور مباشرة في العصر الروماني^(١). ونتيجة لهذا الوضع المتميز ظهر حرص الحكام البطلمية والرومان على التحكم في مقاليد الأمور فكان الملك ثم الإمبراطور هو صاحب مصر وسيدها المطلق وريث الفراعنة، الذي تركز في يديه كافة السلطات فهو الرئيس الديني والقائد الأعلى للجيش والحاكم الأوحد للبلاد، أما بطانة معاونين فكانت أولاً من البطلمية، ثم أصبحت من البطلمية والرومان حيث لم يتمكن الرومان من الاستغناء عن خبرة البطلمية في إدارة أمور البلاد وكان جميع حكام الأقاليم يخضعون لسلطته مباشرة بينما تركت الأمور الداخلية للولايات في الإدارة كما كانت عليه في العهد الفرعوني فظلت التقسيمات الداخلية كمديريات وعلى كل مديرية موظف يتولى أمورها الذي تغير لقبه فقط إلى قائد Strategos^(٢).

كذلك أوجد البطلمية وبعدهم الرومان نوعاً من القضاء المزدوج بحيث يخضع المصريون لقوانينهم، بينما يخضع الإغريق لقوانينهم الخاصة فالرومان لقوانينهم فيما بعد.

ولأن هدف كل من البطلمية والرومان هو تحقيق أقصى استفادة مالية من موارد البلاد فكانت عمليات النهوض بالنواحي الاقتصادية والسعي لرفع مستوى الزراعة واستحداث بعض النباتات وإقامة القنوات والمشروعات الزراعية، كذلك كان هناك نوع من التنشيط الصناعي والسعي لرفع مستواه وتنظيم الحرف، وإن كانت الحكومة البطلمية ثم الرومانية قد احتكرت لنفسها كافة الحرف الحيوية كاستغلال المناجم والمحاجر ولا سيما محاجر النيطرون، وكان نتيجة للاهتمام بالأنشطة الزراعية والصناعية إن زادت حركات التجارة الداخلية والخارجية في أوقات الرخاء والإزدهار وازدادت علاقات مصر التجارية بما يجاورها من دول حتى أصبحت الإسكندرية أكبر الموانئ والمدن التجارية في العالم القديم، وجنى البطلمية وبعدهم الرومان أموالاً طائلة من المكوس الجمركية المرتفعة على الواردات وبعض الصادرات كذلك^(٣).

إلا أن الضرائب المتعددة التي فرضها البطلمية ومن بعدهم الرومان أدت لكثير من حركات التدهور الاقتصادي وامتلاً تاريخ الحكومتين بعبور كساد اقتصادي نتيجة لهجرة الفلاحين لأراضيهم وترك الصناع لحرفهم وتوقف التجار عن تجاراتهم، مما كان يدفع بالمصريين في كثير من الأحيان

(١) Bell (H. I.): Hellenic Culture in Egypt, J. E. A., VIII, London, 1922, p. 139, FF.

(٢) أيدرس بل: مرجع سابق، ص ١٠٤: ١٠٧.

(٣) محمد جمال الدين مختار وآخرون، مرجع سابق، ص ٤٣٩: ٤٤١، ٤٥١: ٤٥٣.

للقيام بثورات متعددة غالباً ما كانت تنتهي بلجوء الحكومة ولا سيما الرومانية إلى بعض الإعسافات المؤقتة والتي ما تلبث أن تعود عنها سريعاً للإكراه. بمحاولة وهمية لتحسين الأوضاع أو رفع بعض الضرائب البسيطة^(١).

وكما سعى البطالمة في البداية لأن يجعلوا من مصر أقوى مملكة في البحر المتوسط تحكم عدد من الممالك التي فتحوها، فقد حرصوا على أن تكون أكبر مركز حضاري هليني في الشرق ينافس أثينا نفسها ومن هنا كان الحرص على أن تكون جامعة الإسكندرية ومكتبتها آية علمية وفكرية ومركزاً وقبله لطلاب العلم والبحث من كافة أرجاء العالم القديم، وكان كل عالم حريص على أن يذكر عنه أنه درس أو قام بالتدريس فيها فحظيت بشهرة لا تبارى في الآداب والجغرافيا والرياضيات والطب وما إلى ذلك - كما سيأتي الحديث تفصيلاً في النظام التعليمي - وهي الثقافة التي حرص الرومان على أن تظل قائمة ومتميزة بل ونقلوها إلى بلادهم وحرصوا على استقدام أساتذتها وعلمائها للتدريس في روما نفسها^(٢).

أما عن الحياة الدينية: فقد حرص البطالمة والرومان منذ عهد الإسكندر على احترام العبادات المصرية وأدعى كثير من حكام البطالمة أنهم أبناء الآلهة المصرية كدأب الفراعنة بل أن عدد كبير منهم مع الوقت تأثر بالمعبودات المصرية وتم نقل عدد كبير منها لبلاد اليونان وبخاصة عبادة ايزيس^(٣).

وعن عناصر السكان: في المجتمع المصري فقد ظهرت الطبقة بصورة كبيرة في العهدين اليوناني - الروماني وبخاصة في المدن الإغريقية التي أسسها الإغريق لتكون مراكز يونانية خالصة كالإسكندرية ونقراطيس وبطوليميس (قرب أطفيح) فكانت هناك طبقة الصفوة اليونانية الذين كانوا أولاً هم الحكام والطبقة المتميزة التي تحظى بكل الحقوق والامتيازات وأهمها حق المواطنة، وقد ظلت طبقة متميزة حتى على العهد الروماني وذلك لسيطرتها على النواحي الثقافية والإدارية في البلاد وإن حرمت من مجلس الشورى لإمكان السيطرة على طموحهم وظلوا يتمتعون بمنزلة كبيرة كطبقة مميزة حتى ما بعد دخول العرب لمصر كما أثبتت وثائق الفترة^(٤).

(١) Wallace (S. I.), Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian, Princeton, 1938, Int.

(٢) Bell (H. I.), op. cit., p. 140.

(٣) سيد توفيق: مرجع سابق، ص ص ٧٣: ٧٨

(٤) Turner (E. G.) Roman Oxyrhynchus, J. E. A., V. 38, London, 1952, pp. 87-93/ also/

Bell (H. I.) Proposals for a Social History of Graeco Roman Egypt, Atti Del IV congresso- Internazionale Di Papirologia, Milano, 1935, pp. 39, 44.

ثم طبقة الرومان والتي أصبحت منذ ٣٠ ق.م. الطبقة الحاكمة فمنها القادة والعسكريون وكبار الموظفين حيث كانوا مادة المجتمع ويتمتعون بمزايا كثيرة وكان معظمهم يقيمون في مدينة الإسكندرية مركز الحكم وعاصمة البلاد^(١).

طبقة اليهود: وهو أصحاب الامتيازات المالية والتجارية في العصرين اليوناني والروماني والذين منحهم الرومان خصوصاً كثير من الامتيازات التي زلت من ثروتهم الاقتصادية ليحدوا بهم من قوة ونفوذ اليونانيين وإن كانوا لم يرفعوا عنهم في المقابل ضريبة الرأس والتي لم تكن تفرض على اليونانيين بحكم أنهم مواطنين^(٢).

ثم كان هناك كذلك طبقة الكهنة رجال العلم والدين المصريين والذين لم يكن يمكن لليونانيين أن يؤثروا على مكانتهم وإن حاولوا الحد من نفوذهم بوضع أيديهم على كثير من ثروتهم ومع هذا ظلت فئة متميزة على العهدين اليوناني والروماني حتى ظهور الديانة المسيحية^(٣).

وهناك طبقة اجتماعية ذات وضع خاص وهي طبقة الإسكندرانيين، وهو اصطلاح كان يطلق على حملة الجنسية السكندرية دليلاً على تميزهم، وكانت طبقة ذات امتيازات خاصة وفي واقع الأمر كانت قسمين قسم خاص بالإسكندرانيين والآخر خاص بالمصريين ممن كانوا يحيون بالإسكندرية وهم كانوا يمثلون الصفوة بالنسبة لباقي فئات الشعب المصري وكانت تجمعهم مصالح مع الصفوة الحاكمة^(٤).

ثم يأتي في مؤخرة الطبقات الاجتماعية العنصر المصري - أهل البلاد - من حافظوا على ثقافتها وروحها وهويتها من الفلاحين والعمال وصغار التجار، عماد الحياة الاقتصادية في مصر والذين خضعوا لكافة أنواع الضرائب وقاموا بكافة أعمال السخرة في المحاجر وحفر الترع وغير ذلك، إلا أنهم رغم ذلك تمكنوا بسبب ترفعهم عن الاندماج مع المستعمر من الحفاظ على سمات وملامح الشخصية المصرية الأصلية في اللغة والعادات والتقاليد وتمكنوا من نقلها بعد ذلك لأقباط مصر في العصر البيزنطي

(1) El. Abbadi (M. A. H.): The Alexandrian Citizenship, J. E. A., V. 48, London, 1962, p. 116.

(2) Bell (H. I), Cults and Creeds in Graeco-Roman Egypt, Liverpool, 1935, p. 100.

(٣) زكي شنوده: مدرسة الإسكندرية، (اثينا غوراس، بنيتينوس، اكليمنخس)، القاهرة، فيلو باترون للترجمة والنشر، ١٩٦٦، ص ٢٧.

(٤) ايدرس بل: مرجع سابق، ص ١٨١-١٨٢.

لتظهر ثورة فكرية جديدة في العالم المسيحي مصدرها مصر ومدرستها الدينية^(١).

لقد اتحد الحكام في العصرين البطلمي والروماني على مبدأ واحد قائم على أن مصر هي درة في جبين دول البحر المتوسط وهي مركز للرخاء والثراء فعمل كل منهم على استغلال مواردها لأقصى درجة وعلى رغم ذلك نظروا لأهلها الأصليين على أنهم يأتون في منزلة تالية لهم، ورغم ذلك كلن لمصر بالفعل وضعها المميز على عهدها اليوناني والروماني وإن كان ذلك من أجل أحكام السيطرة عليها ومنع شعبها أو أي راغب طموح في الاستقلال بها، إلا أنه على الأقل أثناء الحكم البطلمي كانت أموال مصر تظل داخل خزائن بلادها بينما في العصر الروماني كانت ثرواتها تخرج لتغني شعب روما^(٢).

لقد كان من الطبيعي بعد أن بينت أحوال البلاد المجتمعية حرص الإغريق على نقل ثقافتهم الخاصة وإن يحيوا داخل مجتمع إغريقي خالص مماثل لمجتمعهم الأصلي في بلاد اليونان فأسسوا مدنهم الخاصة بهم وعاشوا في طبقات خاصة منعوا على أبنائها الاختلاط بأهل البلاد حتى أن الطفل الذي كان ينسب لأصل مصري من أحد الأبوين كان يمنع من دخول مراكز الجيمناس الخاصة بالإغريق الخالص، هذا بالإضافة لإسهاماتهم في تأسيس مراكز علمية وثقافية إغريقية من مدارس ومؤسسات الجيمناس وجامعة الإسكندرية ومكثبتها، كما شجعوا هجرة الإغريق، لذا كان من الطبيعي أن تقوى شوكة ثقافتهم وتنتشر علومهم، وهو الوضع الذي ظل مستمرا حتى بعد دخول الرومان الذين اتخذوا من آداب وعلوم وفنون الرومان أساساً للكيان الثقافي والفكري في دولتهم لتكون معينا فكريا يضاف إلى قوتهم الحربية والعسكرية، وفي مقابل ذلك التأثير الإغريقي القوي جاهد المصريون على الإبقاء على ثقافتهم الخاصة والحفاظ على تقاليدهم من التأثير بالوافد الثقافي الجديد فتمسكوا بمعابدهم وحافظوا على لغتهم وجعلوها أساس كل معاملاتهم الداخلية ولغة الحوار وإن اضطروا إلى استخدام اليونانية في معاملاتهم الرسمية، ومن هنا كان طبيعي أن يظهر نوع من الإزدواج في خطة التربية

(١) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٧٠-١٠٥.

حول وضع الطبقات الاجتماعية في مصر اليونانية والرومانية يمكن الرجوع إلى:
- أمال الروبي، مصر في عصر الرومان دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية في ضوء الوثائق التاريخية ٣٠ ق.م. - ٢٨٤م، القاهرة ١٩٨٠، ص ٢٦٧: ٢٨١.

(٢) وحول هذا ما جاء في أيدرس بل يصف نظرة الرومان لأرض مصر بقوله "إن مصر بقرة ينبغي حلبها لصالح روما. وليس ثمة شك في أن البقرة كانت حلوبا، ولكن روما ما دأبت على استدرار لبنها حتى استنزفته"، المرجع السابق، ص ١٠٩.

بحيث نجد التعليم المصري يقابله التعليم الهليني في البلاد وهو ما سيأتي الحديث عنه تفصيلاً.

أنواع التعليم في مصر اليونانية الرومانية:

بالنظر إلى طبيعة الحياة الثقافية في مصر في تلك الفترة نجد أنه كان هناك نوعان رئيسيان من الثقافة والتعليم وهما:
التعليم المصري - التعليم اليوناني.

أولاً: التعليم المصري:

ساهمت البرديات التي تم العثور عليها في إيضاح أن التعليم المصري كان لازال قائماً على العهد البطلمي وما بعده ففي بردية لكبير كهنة شمونين (هرموبوليس) أثناء حكم بطليموس الأول، وفي أخرى ترجع للقرون الأولى للميلاد من حكم الرومان، أوضحت البرديتان أنه طوال العصر البطلمي وربما الروماني ظلت النصائح التربوية المصرية التي تقدم للتلاميذ المصريين حول قواعد الأخلاق كما أشارت البردية الأخيرة داخلها إلى وجود مدرسة مصرية من مدارس المعابد، حتى أن ديودوروس الذي زار مصر في منتصف القرن الأول قبل الميلاد أي في نهاية عصر البطالمة، أكد على استمرار دور الآباء المصريين في تربية وتعليم أولادهم جميعاً وهو ما أكد عليه استرابون أيضاً في زيارته عام ٢٥ ق.م.

من هذه الإشارات نستدل أن المصريين ظلوا محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم العلمية والثقافية على العهد البطلمي وما بعده وإن كان من المنطقي أنها ضعفت أمام الثقافة الإغريقية ليس من منطلق قوة الآخره ولكن لانصراف كثير من المصريين عن التعليم نتيجة لتدهور أحوالهم الاقتصادية وزيادة أعباءهم المادية، فحرص الوالد على أن يرث أبنه حرفته أو مهنته كمصدر للدخل وهذا أمر طبيعي تحت ظروف حكم قوى أجنبية تستهدف موارد البلاد^(١).

لذلك لا نكاد نجد اختلاف في خطة التعليم في المدرسة الأولية

والمقدمة أو التعليم الخاص عما سبقه فكان كالتالي:

- المدرسة الأولية والمتقدمة: ظلت المدارس الأولية والمتقدمة قائمة لتسد حاجة الراغبين في العلم أو في مزاوله المهن الحرة وبخاصة الوظائف الحكومية الصغرى التي سمح بها للمصريين، وظل التلاميذ يتعلمون فيها

(١) ابراهيم نصحي: التربية والتعليم، مرجع سابق، ص ٢٠٠: ٢٠٤/
والذي أكد ذلك بقوله "وإذا كانت الغالبية العظمى من المصريين لم تقبل على التعليم في أزهى عصور حكامها الوطنيين، فإنه من المستبعد أنها وجهت لية عناية تذكر إلى التعليم عندما كانت فريسة للفاقة والبؤس على عهد طغاتها الأجنبي، ص ٢٠٤.

أدوات المعرفة من قراءة وكتابة وحساب ومعلومات عامة وكانت أغلب الأسر تكتفي بالمرحلة الابتدائية إذا تيسرت أحوالها الاقتصادية بذلك^(١). على أن بعض الأسر المصرية اليسورة الحال وجدت في الاتصال باللغة الإغريقية فرصة لوصول أبنائها للمناصب الحكومية فكانت تهنيء الفرصة لهم لتعلم اللغة وإن كان من الثابت أن تلك اللغة لم تدخل للمدارس المصرية الأولية سواء أكانت ملحقة بالمعابد أو خارجها وإن من كان يرغب في تعلمها من المصريين كان يتلقاها كنوع من التدريب اللغوي خارج المدرسة على أيدي المدرسين الإغريق حيث لا يتطلب ذلك الدخول في الثقافة الإغريقية نفسها وأدائها إذا التحقوا بمدرسة إغريقية ابتدائية^(٢)، وظلت الهيروغليفية والديموتيقية المستخدمتان للوائح والقوانين الداخلية وهي اللغات التي اقتصرت على الدراسة المصرية ولذا ظلت مدارس المعابد في مختلف مراحل التعليم هي معقل الثقافة المصرية الحصين والتي تمسكت بتقاليدھا وعاداتها على مر العصور في يد كهنتها رجال العلم والدين والذين اعتبروا تراثهم المصري أمانة في أعناقهم^(٣).

التعليم الخاص (التعليم العالي): مما لا شك فيه أن التعليم العالي المصري كان لا يزال قائماً على عهد البطالمة وإن قلت مكانته وتضاءلت أمام مكانة "دار العلم" مكتبة الإسكندرية — إلا أنه من الثابت في إشارات اليونانيين ممن زاروا مصر وبخاصة استرابون أن معاهد العلم المصرية وبخاصة في هليوبوليس كانت ذائعة الصيت وبخاصة في علوم الفلسفة والفلك، حقاً أنه يشير أنها في القرن الأول ق. م. كانت قد تلاشت ولكن الوثائق فيما بعد أثبتت أن دورها فقط قد خفت ولم تتلاشى ومن الأدلة على استمرار أداء دورها هو استعانة بطليموس الأول في أوائل القرن الثالث ق. م. بالكاهن المصري مانثون — من أحد كبار كهنة هليوبوليس — وكان من طليعة أساتذة معهد المدينة ليكون عضواً في اللجنة التي اصطنعت ثالوث الإسكندرية كمحاولة للتوفيق بين الديانة المصرية، والإغريقية، ثم ما لبث خلفه بطليموس الثاني أن كلفه بأن يضع كتاب في تاريخ مصر القديمة يثري به مكتبة الإسكندرية، فوضع مانثون كتاباً رائعاً ظل مصدراً لكل من يدرس تاريخ مصر الفرعونية منذ عهد مينا إلى الفتح الفارسي الأخير حوالي عام ٣٤٣ ق. م. نقل عنه كل المؤرخون ممن جاءوا بعده، وهو المرجع الذي ظل

(١) Rostovtzeff, Social and Economic Hist., of the Hellenistic World, Oxf., 1941, V. 2, p. 1060.

(٢) op. cit. P. 1060/

C. Preaux: Letters Privees Grecques D' Egypt, Revue Belge, VIII, Paris, 1920, p.767.

(٣) إبراهيم نصحي، التربية والتعليم، مرجع سابق، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

أساساً صادقا للتاريخ المصري حتى عند مؤرخي اليهود والمسيحيين أثناء اثباتهم لتواريخ الأحداث التي وردت في التوراه^(١).

وهناك كثير من الشواهد تدعم استمرار نشاط تلك المعاهد المصرية العالمية حتى نهاية عصر البطالمة على الأقل أو ما أطلق عليه نشاط علماء "أو كتاب دور الحياة" ومن تلك الأدلة ما جاء على شواهد بعض القبور التي ترجع للعصر البطلمي حول تنصيب كاهن وكاتب ملكي في دار الحياة، وفي الآخر سجل لصاحبه جاء فيه أنه كان من علماء دار الحياة ومدير تعليم عدد كبير من أبناء الكهنة.

وهذه الشواهد تدل ليس على استمرار ذلك الدور فحسب ولكن على استمرار حفاظها على اللغة الهيروغليفية (كتابة دور الحياة) في عصر البطالمة والرومان حتى أصبحوا الأمناء عليها^(٢).

ومن القرائن أيضاً أنه حتى البطالمة أنفسهم حرصوا على استمرار دور هؤلاء الكهنة استرضاءً لشعب مصر الذي عرف بشدة تدينه وتمسكه بأهته ومن ثم شرعوا أنفسهم في تشييد عدد كبير من المعابد المصرية في أدفو وديندره وكوم أمبو الحقت بها مكتبات خاصة بها وامتأنت نقوشها بتسجيلات باللغة المصرية للعقائد والعادات المصرية وهو عدد كبير من النصوص تؤكد وجود عدد لا بأس به من المتفرغين للبحث والعلم كما تؤكد على حرص العلماء المصريين على صيانة تراثهم الثقافي وحفظه للأجيال الآتية ليس بصورة موجزة غامضة مليئة بالأسرار كما كان على عهد الفرعنة وإنما بإسهاب كبير ضماناً لعدم دخول عناصر أجنبية عليه^(٣).

ولعل القرائن مجتمعة تؤكد أن دور العلم العالية كانت لا تزال تمارس نشاطاً علمياً على عصري البطالمة والرومان وإنها ظلت تحتفظ داخلها بالعديد من المكتبات وإن هذا الحال لم يطرأ عليه تغيير وإن اقتصر دور تلك المراكز على حفظ وصيانة التراث المصري والحفاظ عليه من تأثير الثقافة الهلينية^(٤).

ولعله من الظاهر هنا أن استرابون حين أتى مصر وذكر دور الحياة بقوله كانت أن هذا كان مرجعه لتراجع واضمحلال الدور التعليمي لهذه الدور أمام الوافد الثقافي الجديد وهذا ليس مستغرب على الإطلاق مع حرص البطالمة على تحويل البلاد لمركز إغريقي قوي، فضلاً عما كان يتعرض إليه كهان مصر من مظاهر كبت مادي ومعنوي وبخاصة بعد أن أصبحت عطاياهم هم ودور العلم من الأباطرة مباشرة وتتوقف على مدى كرمهم، هذا

(١) المرجع السابق، ص ص ٢١١-٢١٢.

(٢) عبدالعزيز صالح: مرجع سابق، ص ص ٢١٢-٢١٣.

(٣) إبراهيم نصحي: التربية والتعليم، مرجع سابق، ص ص ٢١٣-٢١٤.

(٤) Thompson: Ancient Libraries, California, Berkeley, 1940, p. 2.

فضلاً عن انشغال رجال العلم المصريين بما يعانونه من مظاهر كبت تحت حكم الأجانب وإنشغال عدد منهم عن العلم ببث روح الثورة في المصريين ضد استغلال الأجانب لبلادهم ومواردهم، لذا فقد رأوا أن يقصروا دورهم على الحفاظ على حضارتهم من الذوبان داخل الثقافة الوافدة حتى تتهيأ الظروف للخروج بها وهو ما كان من نقل زمام الأمور لمدرسة الإسكندرية التبشيرية المصرية في العصر البيزنطي - القبطي -.

ثانياً: التعليم الإغريقي - الهليني -:

فلسفة وأهداف التربية الهلنستية: كان التعليم في مصر خلال العصرين اليوناني - الروماني سجلاً للحضارة والثقافة الإغريقية التي استمرت إلى ما بعد العصور القديمة وحتى العصر المسيحي وهي الثقافة التي انتقلت للعالم الإسلامي من بعد، والتي نبعت من خلال فلسفة وأهداف واضحة^(١).

كانت الفلسفة الهلنستية تنظر إلى حكماء العالم الهليني باعتبارهم قواد العالم الذي تسوده حضارتهم، ولذا فإن أقصى هدف للإنسان عندهم في الحياة هو الوصول إلى أسمى مراتب الكمال الذي يساعده بالاقتراب قدر الإمكان من الحقائق العليا أو المثل كما أشار إليها أفلاطون، وهذا الكمال لا يتحقق للإنسان إلا بقدر اتساع ثقافته من خلال التعليم فبلوغ الكمال لا يكون إلا عن طريق العقل المتقف الذي يساعده في بلوغ طريقة^(٢).

ومن خلال هذه الفلسفة احتل التعليم مركز الصدارة عند الإغريق في العصر الهلنستي فأصبح هدفهم التربوي الأول هو تهيئة أولادهم للوصول إلى هذا العقل المتقف الذي هو أئمن كنز يحصل عليه إنسان على الإطلاق. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى هدف الإغريق من خلال نظامهم التعليمي إلى الحفاظ على سماتهم الإغريقية المميزة وصقل عقل أبنائهم ليكون مرتبطاً بجذوره القديمة وملتصقاً بترائثه الهليني، خاصة بعد أن تركوا وطنهم الأم واتصلوا بعدد من الحضارات فكان لزاماً عليهم أن يضاعفوا من ارتباطهم بهويتهم الثقافية الخاصة حتى لا يذوبوا داخل تلك الحضارات^(٣).

(١) نجلاء محمد حامد: التعليم في مصر البيزنطية (٣٠٦-٦٤٢م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد الدراسات التربوية، جامعة القاهرة، ٢٠٠١، ص ٨٠.

(٢) Marrou (H. I): Histoire de L'education dans L'antiquite, Paris 1960, pp. 143-144.

(٣) op. cit., p. 146/

محمد حمدي إبراهيم: الثقافة والتعليم في مصر في عصر الرومان، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٠٩.

ومن أجل تحقيق تلك الأهداف نجد عناية الإغريق بالأدب الكلاسيكية التي تمثل أسرار الحياة الإغريقية كأعمال هوميروس التي كانت أساس المناهج في المراحل التعليمية المختلفة حتى نهاية العصر البيزنطي^(١). ولتحقيق هذا الغرض - الحفاظ على هويتهم وثقافتهم الإغريقية - كان حرصهم على تأسيس المؤسسات التربوية والتعليمية الهلينية الخالصة كمعاهد التربية (الجمناسيون) ومنظمات الشباب (الأفبيبا) لتساعد على بناء شخصية إغريقية متكاملة ومتوازنة لأبنائهم كما أوضح افلاطون أهميتها حيث أشار لورها في تربيتهم جسدياً وأخلاقياً ودينياً مما يضمن لهم مستقبل عظيم يتولون فيه أعلى المناصب والمراكز في مجتمعهم^(٢). لذا كان التعليم الهلنستي في كافة أرجاء العالم القديم حينئذ هو امتداد للجذور اليونانية القديمة وظل هو النمط السائد في مصر طوال العصريين اليوناني - الروماني حتى ظهرت منافسة التعليم القبطي المصري في مواجهته في العصر البيزنطي. مؤسسات التعليم في مصر:

لقد اتضح من عرض أهداف التعليم الهليني أن هدف التعليم تمثل في الحفاظ على الهوية اليونانية من الذوبان في حضارات البلاد التي فتحوها والتي قد تكون أقدم أو أعرق كالحضارة المصرية، لذلك أنشئت المؤسسات ذات طابع هليني خالص ليتم من خلالها تحقيق هذا الهدف، وقد انقسمت هذه المؤسسات من خلال ثلاث مراحل تعليمية كالآتي:

- مرحلة التعليم الأولى (الابتدائية).

- المرحلة الوسطى (مرحلة الثقافة العامة - الجمناسيون).

- مرحلة التعليم العالي.

مرحلة التعليم الأولى (الابتدائية): كانت مدارس التعليم الأولى خلال العصور اليوناني - الروماني في مصر عبارة عن مدارس خاصة ينشئها المدير أو المدرس الذي يقوم بالتدريس فيها وكان يسمى مدرس الأبجدية (الجراماتيس)، وكان تمويل تلك المدارس يتم مما يدفعه التلاميذ فلم يكن التعليم مجانياً ولا إجبارياً، وقد انتشرت تلك المدارس في كافة أرجاء مصر وحتى في القرى أيضاً^(٣).

(١) Ibrahim (M. H.): The Study of Homer in Graeco Roman Education, Athena, 1977, p. 188.

(٢) Plato: The Republic of Plato, New York, Everyman's Library, 1935, II, 376e/

- Delorme: Gymnasion, etude sur Les monuments consacres a L'education en Greco, Paris, 1960, p. 337.

(٣) Bawen (J): History of Western Edu., London, 1985, pp. 152-153.

ولما كانت تعتمد على ما يدفعه التلاميذ فقد كان أغلب طلابها من أبناء الطبقتين الوسطى والثرية ممن يقدرّون على تحمل أعباء التعليم، وإن ظل أبناء الطبقة الثرية يفضلون استقدام معلم خاص لمنزلهم (الكاثيجتيس) ليعلم أبنائهم وبخاصة الفتيات^(١).

وعن أبنية تلك المدارس وتجهيزاتها فلم تتعدى كونها مبنى بسيط من حجرة أو أكثر يستأجره الأساتذة وغالباً ما كان يقع المبنى داخل الأسواق، ويتم تجهيزه ببعض المقاعد الخشبية يضاف إليها مقعد مرتفع للمعلم وتزان جدران الحجرة بصور ربّات الحكمة^(٢).

أما عن النظام المدرسي بها: وكان التلاميذ يلتحقون بهذه المدارس بداية من سن السابعة حتى الرابعة عشر حيث يتركونها ليلتحقوا بمعاهد الثقافة العامة، أما اليوم الدراسي فكان يبدأ مبكراً في الصباح حيث كان التلميذ يذهب لمدرسته على هدى مصباح يحمله له المربي (البيداجوجوس) - المرافق الخاص به -، وكانت الدراسة تتخللها فترات للإجازة الرسمية في نهاية كل عام بالإضافة للإجازات الخاصة بالاحتفالات الدينية والحكومية، هذا وقد أثبتت الوثائق كذلك وجود فترات للامتحان يتم بعدها نقل التلاميذ من مرحلة لأخرى^(٣).

أما عن المواد الدراسية بها فكانت تتمثل في دراسة الأبجدية اليونانية، بداية من الحروف ثم المقاطع والكلمات، بالإضافة إلى بعض مبادئ القراءة والكتابة والحساب وبعض المعارف العامة في صورة متدرجة وعلى مراحل، هذا فضلاً عن تعليم بعض المهارات الأخرى كالموسيقى والرسم والألعاب الرياضية وكان يتم تعليم الأخيرة في ساحة الألعاب الرياضية الخاصة بالأطفال - باليسترا-^(٤).

(١) غالباً ما كان معلمي تلك المدارس ما يتصارعون من أجل اجتذاب أبناء الأثرياء لمدرستهم مما جعل مصروفات تلك المدارس تتفاوت حسباً لنوعية التلاميذ الملتحقين بها/

نجلاء محمد حامد: مرجع سابق، ص ٨٥.

(٢) Marrou, op. cit. P. 204.

(٣) حمدي إبراهيم: التعليم اليوناني الروماني في مصر من القرن الأول حتى القرن الرابع الميلادي في ضوء الوثائق البردية، أثينا، ١٩٧٢، ص ص ٢٣٩-٢٤٠/

Barrow (Robin) Greek and Roman Edu. London, 1985, p. 74-78.

(٤) Marrou, op. cit. pp. 207-208/

وعن المواد الدراسية التي يتعلمها الأطفال في تلك المرحلة وطرق تعليمها المتدرجة يمكن الرجوع لهذا الكتاب المدرسي الهام والذي أتضح أنه كان كتاب إرشادي لطرق التدريس خاص بالمعلم.

O. Gueroud & P. Jouguet: Un Livre D'ecolier du III eme siecle, Cairo, 1938.

وقد استمرت هذه المدرسة تؤدي دورها التعليمي في مصر إلى ما بعد القرن الخامس الميلادي في العصر البيزنطي^(١). وكان معلمو هذه المرحلة يتم انتخابهم من بين موظفي الدولة فلم تكن هناك مراكز لإعدادهم ولذلك لم يستدعي الأمر حصولهم على مؤهلات معينة سوى السلوك الخلقي الطيب^(٢).

المدرسة الوسطى (مرحلة الثقافة العامة - أو الجمناسيون): وتتمثل في المؤسسات الخاصة بإعداد الشباب وفق الأهداف التربوية التي ترمي إلى غرس التراث الهليني في نفوسهم، ومعلم هذه المرحلة كان يعرف بمعلم النحو - الجراما تيكوس - ويلتحق بمدرسته الطلاب ممن أتموا المرحلة الابتدائية، وترتكز برامج الدراسة في تلك المرحلة على ثلاثة برامج أساسية وهي:

حلقة الدراسات الأدبية - حلقة العلوم الرياضية - حلقة الريتوريقا^(٣).

وكان فريق آخر من الطلاب يلتحق بمؤسسة - الجمناسيون - للدراسة والتدريب بوصفها مؤسسة خاصة بالجالية اليونانية فقط والتي تتولى الإنفاق عليها، وقد عمل الإغريق على نشر تلك المؤسسات في أرجاء المجتمع المصري وحتى القرى كما أثبتت وثائق تلك الفترة، وكانت بها برامج الدراسة بالجمناسيون مشابهة للبرامج في مدرسة معلم النحو مضافاً إليها برامج الرياضة البدنية والتدريب على السلاح^(٤).

ومباني الجمناسيون كانت تتكون من قاعات متعددة ورواق مسقوف، ومن أهم أجزائه ساحة الألعاب الرياضية - باليسترا - وقاعة المحاضرات المخصصة للشباب - الأفيبيا - وبها أيضاً ساحة استراحة، ومكان يسمى بالحلبة لإقامة المباريات الرياضية وأماكن للتدريب وحمامات، ثم أضيفت في فترة زمنية لاحقة مكتبات لهذه المؤسسة بعد أن زاد بها الاهتمام بحلقات العلوم النظرية، كذلك كانت توجد أماكن للضيوف لمشاهدة المسابقات الرياضية على هيئة مسارح مكشوفة وأخرى مغطاه لمباريات الشتاء^(٥).

وكان الطلاب يلتحقون بالجمناسيون في مصر في سن الشباب وهو الرابعة عشر، بشرط أن ينتمي لأبوين يونانيين خالصين ويتمتعون بحقوق

(١) رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٧١.

(٢) Rost. op. cit., p. 1087.

(٣) حمدي إبراهيم: التعليم اليوناني الروماني في مصر، مرجع سابق، ص ٩٢-١٧٢.

(٤) Brady (T. A): The Ggymnasium in Ptolemaic Egypt Philological Studies in Homur of Walter Miller, V. XI, Part 3, Uni. Of Missouri Studies, 1936, p. 10.

(٥) Marrou: op. cit. pp. 182-184.

المواطنة وكان ذلك يستلزم أن يقدم الوالدين طلب يؤكدان فيه أحقية ابنهم بالالتحاق لتمتعه بشروط المواطنة^(١).

والانفاق على تلك المؤسسة كان يتم عن طريق اشتراكات أعضاء الجيمناس أنفسهم وكانوا يتكونون من كبار أعضاء الجالية اليونانية وأبناء الأثرياء ممن يتمتعون بالإعفاء من الضرائب، ويتولى رئيس الجمناسيون (الجمناسيارخوس) أمور المبنى بالكامل من طلاب ومبان وموظفين وحتى الإشراف على معلم التدريبات البدنية (البيداتريب) كما كان يحظى بمنزلة كبيرة ووضع مرموق داخل المجتمع اليوناني لأهمية المؤسسة التي يتحمل مسئوليتها في الحفاظ على الثقافة اليونانية^(٢).

وكان يتصل بمؤسسة الجمناسيون مؤسستين هامتين يشرف عليهما وهما: ساحة الألعاب الرياضية - الباليستيرا - منظمة الشباب (الأفيبيا). الباليستيرا: وهي مدرسة للرياضة البدنية، وكانت توجد داخل كافة معاهد الجمناسيون، وكانت متاحة للجميع من إغريق ومتأخرقين، وكان من الممكن وجود مبان للباليستيرا دون مبان للجمناسيون ولكن لم يوجد جمناسيون لا يضم داخله مبنى للباليستيرا، وكانت الباليستيرا مدرسة خاصة بالتربية الرياضية والبدنية فقط لذا لم يكن يتم تدريس برامج نظرية داخلها، وكان يشرف عليها معلم يسمى مدرب الصبية (البيداتريب) يشترط فيه الإمام بعلوم الصحة والألعاب الإغريقية يقوم بتدريب الأطفال على الألعاب المختلفة استكمالاً للتعليم النظري لهم من مدارس التعليم العام، وكان يتدرب فيها الأطفال من الجنسين منذ نعومة أظافرهم^(٣).

وكثيراً ما كان يختلط الأمر على المؤرخين فيما بين الجمناسيون والباليستيرا، إلا أن الوثائق أثبتت أن الباليستيرا هي مدرسة للصغار تتمتع بالخصوصية وقد يلتحق بها غير اليونانيين لأنها غير تابعة للمجالس البلدية ودورها تكميلي للمدرسة الأولية، وهي غير الجمناسيون الخاص بالصفوة اليونانية وإن كانت الجمناسيون يضمها داخل جنباته علاقة لا تتعدى علاقة الكل بالجزء^(٤).

منظمات الشباب (الأفيبيا): وكانت المؤسسة التي تتولى إعداد الشباب للحياة المدنية والعسكرية، واتسمت بالطابع العسكري منذ نشبت الحروب بين أثينا واسبرطه من أجل الإعداد الجيد للأبناء، وكان يقدم بها كشافاً بأسماء الأبناء ممن يودون الالتحاق بها وكانت في مصر غالباً في سن الرابعة أو الخامسة

(١) جاء نموذج لأحد هذه الطلبات في البردية الهامة التالية.

P. Oxy, III, No. 493 (138-160M-X)L 7-9.

(٢) حمدي إبراهيم: التعليم اليوناني الروماني، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

(٣) إبراهيم نصحي: مرجع سابق، ص ٤٩: ٥٣.

(٤) Delorme, op. cit., p. 262.

عشر والتدريب بها لمدة عامين، وكان يقوم على استخدام أنواع الأسلحة وعلى الجالية اليونانية توفير احتياجات الطلاب من ملابس ومأكل^(١).
وبمرور الوقت بدأ الطابع التربوي يأخذ موقعه داخل تلك المنظمات فساد بها التعليم الأخلاقي والديني جنباً إلى جنب مع التدريب العسكري مما منح الشباب فرصاً أكبر لاكتساب وضع جديد في المجتمع والحصول على الوظائف المتميزة فيه^(٢).

ولقد استمرت تلك المؤسسات التعليمية تؤدي دورها التربوي طوال العصر الروماني كما أثبتت خطابات بعض التلاميذ والتي كانت ترجع للقرن الثالث الميلادي، وبذلك وكانت المنوطة بحفظ التراث الفكري والروحي الهليني لأبنائها^(٣).

وكان الطالب القادر على اتمام هذه المرحلة الوسطى سواء في الجمناسيون أو ما يعادلها على يد المعلمين الخصوصيين يسافر للإسكندرية لمواصلة تعليمه العالي على يد أساتذة جامعتها وهو النوع من التعليم الذي كانت تختص به الإسكندرية وحدها.
مرحلة التعليم العالي (في الأكاديمية):

كانت مدينة الإسكندرية طوال العصر اليوناني - الروماني تعد أكبر مراكز التعليم العالي الهليني لا في مصر فحسب بل وفي سائر أرجاء العالم الهليني القديم بفضل مؤسساتها العلمية المتميزة في الأكاديمية والمكتبة والتي أطلق عليها مجتمعه مصطلح (جامعة الإسكندرية) وكانت تنقسم إلى:
المجمع العلمي - مكتبة الإسكندرية - معبد السيرابيوم ومكتبته.
المجمع العلمي (الموسيون): وكان بمثابة أكاديمية للبحث العلمي هدفت الحفاظ على ما أنتجه العقل اليوناني من علوم وآداب، وقد أنشأها الملك بطليموس الأول (سوتير) بإيعاز من العالم ديمتريوس الفاليري - أحد تلاميذ أرسطو - فتم إنشاؤها مع مكتبة بالقرب من القصر الملكي - في المنطقة التي عرفت بالحي الملكي حينئذ^(٤).

(١) Nilsson (M. P.), Die Hellenistische Schule, Berlin, 1955, p. 20.

(٢) Rigsby (K. J.), Sacred Ephelic Games at Oxy., Chr. D'Egy., LII, 1977, p.14.

وكان على الشاب ليلتحق بتلك المنظمة خصوصاً أن يقدم ما يثبت أنه ابن لأحد أعضاء طبقة الجمناسيون Hoi- apo gymnasiou وإن أمه من الطبقة الراقية كمواطنة يونانية.

(٣) نجلاء حامد: مرجع سابق، ص ٩١.

(٤) Parson, The Alex. Library, London, 1952, pp. 87- 88.

وقد أولى البطالمة ومن بعدهم أباطرة الرومان عناية كبيرة بجلب العلماء والباحثين إليه وإغداق الأموال عليهم ليتفرغوا للبحث العلمي، كما حرص عدد كبير منهم على أن يحضر المحاضرات العلمية فيه^(١). أما عن المبنى فقد اتسم بالفخامة في البناء والأثاث وضم قاعات عدة للمناقشات والمحاضرات تم تجهيزها بالأدوات العلمية بالإضافة إلى مكتبة كبرى الحقت به وضمت مجموعات هائلة من الكتب في كافة المجالات العلمية والأدبية وحدائق ضمت أندر أنواع النباتات والحيوانات ليقوم العلماء بدراستها، فضلاً عن قاعات للطعام وأماكن لإقامة الأساتذة والعلماء^(٢). لقد أخذ الموسيون في التوسع في العصر الروماني وازدهرت فيه الدراسات اللغوية والتاريخية فضلاً عن علوم البيان والفلسفة التي دخلت إليه في القرن الثالث الميلادي، وقد جذبت شهرة هذه المؤسسة طلاب العلم والباحثين من كافة أرجاء العالم القديم، وكان كل أستاذ يتخير المتميزين منهم مما ساهم في ارتقاء المناقشات والمناظرات العلمية بين الطلاب والأساتذة حتى صار مركزاً للتعليم العالي تلقى فيه المحاضرات في مختلف نواحي العلوم والآداب^(٣).

وقد انتشرت بداخله مدارس للعلوم المختلفة فوجدت مدارس الطب والتشريح والجراحة والرياضيات والفلك والقانون والفلسفة واستمر يؤدي دوره في العطاء العلمي إلى نهاية القرن الرابع الميلادي^(٤). مكتبة الإسكندرية: لقد ارتبطت مكتبة الإسكندرية ارتباطاً مباشراً بالموسيون وكان يطلق عليها دار الكتب أو المكتبة الكبرى - حيث كانت تربطهما أغراضاً علمية متكاملة كما كان يشرف عليها علماء الموسيون ممن يمارسون أبحاثهم في الأكاديمية والمكتبة معاً.

وهذه هي المكتبة التي وضع أسسها بطليموس الأول بين عامي ٣٠٠-٢٩٠ ق.م. بما جلبه لها من نفائس الكتب ثم توسعت في عهد خلفه حتى غدت مع منتصف القرن الثالث ق.م. أعلى مؤسسة فكرية وثقافية في العالم^(٥).

وبدا البطالمة منذ عهد مؤسسها يجمعون إليها أندر المخطوطات من أنحاء العالم كما رتبوا لها الموظفين والنساخ وأقاموا فيها المباريات الأدبية

(١) حمدي إبراهيم: الأدب السكندري، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٥، ص ٣٧.

(٢) Bawen, op. cit., p. 142.

(٣) محمد أحمد حسين: مكتبة الإسكندرية، في العالم القديم، القاهرة، ١٩٤٣، ص ١٩-٢٢.

(٤) الباز العريني: مصر البيزنطية، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٦١، ص ٢٧١.

(٥) Parson, op. cit., p. 89.

بين العلماء وأغدقوا عليهم المنح والرواتب، وحرصوا منذ عهد بطليموس الثالث أن يكون أمين هذه المكتبة من علماء الموسيون أصحاب الخبرة في المخطوطات والفهرسة، فوجد بها تسجيل للكتب والمؤلفين فاحتوت بداخلها على وثائق أجمع المؤرخون أنها لم تكن تقل عن ٤٠٠ ألف لفافة كبيرة من البردي تنتسج كل منها لأعمال كاملة بالإضافة إلى ٩٠٠ ألف لفافة قصيرة تنتسج لكتاب واحد أو جزء من كتاب^(١).

لذلك كان بالمكتبة قاعات للكتب وقاعات أخرى للاستماع والمحاضرات، فلما ضاقت بكثرة ما بها من وثائق منذ عهد بطليموس الثاني أنشأ مكتبة ثانية عام ٢٥٠ ق.م. داخل السيرايوم وأسماها المكتبة الصغرى - الابنة - تميزاً لها عن الكبرى أودع فيها ٤٢,٨٠٠ مجلد وصلت إلى ١٠٠ ألف مخطوط فيما بعد وتضمنت هي الأخرى حجرات للإطلاع وأرشيف وصلات بها حاويات للكتب^(٢).

وقد ضمت المكتبة الكبرى كثير من الكتب التي عدت أساساً للعديد من العلوم ففي تاريخ مصر كان كتاب مانيتون الشهير، كذلك كان للمكتبة الفضل في نشر نظريات اقليدس في الهندسة وكتاب المجسطي في الرياضيات مما جعل الرياضيات علماً سكندرياً خالصاً يأخذ عنه العالم، فضلاً عن نشر ترجمة التوراه المعروفة بالترجمة السبعينية وغيرها من الإبداعات العلمية في كافة مجالات العلوم والآداب والمعارف^(٣).

ولما كانت هذه المكتبة العظيمة قد تعرضت للدمار في الحريق الذي أصاب الإسكندرية أثناء صراع يوليوس قيصر (٤٧ ق.م.) مع منافسه، مما جعل انطونيوس يهدي الملكة كليوباترا السابعة محتويات مكتبة برجامون بآسيا الصغرى - ٢٠٠ ألف مجلد - تعويضاً لها والتي تم حفظها داخل المكتبة الصغرى التي بدأت من وقتها في حمل اللواء رسمياً كخلفاً للمكتبة الأم، واستمرت في تأدية دورها العلمي والثقافي حتى نهاية القرن الرابع الميلادي حيث دمرت أثناء تدمير معبد السيرايوم عام ٣٩١ م^(٤).

السيرايوم: قام معبد السيرايوم بدوره كمركزاً للدراسات اليونانية وعلى رأسها الفلسفة، وبخاصة بعد انحسار دور الموسيون، وساهمت قاعاته العلمية ومكتبته في حفظ المخطوطات والعلوم اليونانية من الإندثار ولا سيما بعد انتشار المسيحية وتأسيس مدرسة الإسكندرية اللاهوتية كمنافس للثقافة الهينية الوثنية، فكان السيرايوم هو معقل الدفاع للفلاسفة الوثنيين، والذي فتح أبوابه لكل الراغبين في المطالعة والدراسة للعلوم الهيلينية حتى من المسيحيين

(١) حمدي إبراهيم: الثقافة والتعليم، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

(٢) Parson, op. cit., p. 349.

(٣) برتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكي نجيب محمود، ج ١، ص ٣٥٧.

(٤) نجلاء حامد: مرجع سابق، ص ٩٥ - ٩٦.

أنفسهم مما أثرى المناقشات والمناظرات العلمية والفكرية به وبخاصة منذ القرن الثالث الميلادي^(١).

وقد ساعدت الجامعة بمؤسساتها على تدعيم دور مصر الثقافي والتعليمي بما أسهمت به من:

- تدريب الدارسين من مختلف الأقطار في كافة العلوم.
- توفير نوع من الدراسة والبحث المنتظمين بالمتحف.
- نقد الأعمال الأدبية ودراسة الألب المقارن مما هيء المجال للتبادل العلمي والثقافي بين الطلاب والأساتذة من سائر الأقطار^(٢).

كل هذا ساعد على وجود ذخيرة علمية كبيرة من الدراسات في العلوم والمعارف المختلفة جعلت لجامعة الإسكندرية مركز الصدارة بين جامعات ومعاهد وأكاديميات العالم القديم.

المناهج وطرق التدريس في المؤسسات الهلينية:

اتسمت المناهج بالترج داخل المراحل التعليمية الثلاثة من المرحلة الأولى التي يلتحق بها التلميذ في السابعة ويتعلم فيها على يد معلم الأبجدية Grammatistes، ثم يلتحق بعدها بمعاهد التربية أو ما يقابلها من مدارس النحو Grammatikos في سن الرابعة عشرة، ثم في مرحلة متقدمة يستكمل تعليمه بدراسة الخطابة (الريتوريقا) أو الفلسفة وحين ينتهي منها كان من يرى في نفس الكفاءة ويرغب في الاستزادة العملية يمكنه الالتحاق بجامعة الإسكندرية^(٣).

مناهج المرحلة الأولى (الابتدائية): وكانت المناهج في هذه المرحلة تعتمد في الأساس على تعلم مبادئ القراءة والكتابة وفق نظام متميز يراعى فيه التدرج من البسيط إلى المعقد ومن الجزء إلى الكل، فيبدأ التلميذ بحروف الهجاء ثم ينتقل إلى المقاطع والكلمات فالجمل فال فقرات^(٤).

وكان المعلم يدرّب التلميذ على كتابه الحروف بداية من alpha حتى آخر حرف omega ثم يبدأ في تدريبيه على كتابتها بطريقة عكسية، وليتأكد من حفظ التلميذ لها كان يدرّبه بجمع كل حرف من بدايتها مع ما يقابلها من آخر الحروف alpha- omega.. إلخ، كما كان المعلمون يعتمدون على

(١) Parson, op. cit., p. 349.

(٢) سليمان نسيم، مرجع سابق، ص ٧٩.

(٣) Cubberly (E. P.): The History of Edu. (Educational Practice and Progress Considered as a phase of the Development and Spread of Western Civilization, London, Houghton Mifflin Company, 1948, p. 72/

وقدم سيادته خريطة متميزة تمثل مراحل التعليم المختلفة والمناهج وأعمار الطلاب في كل منها.

(٤) أيدرس بل: مرجع سابق، ص ص ١٢١-١٢٢.

تنشيط ذاكرة التلاميذ حول حفظ حروف الهجاء بتعدد طرق التدريب عليها فكانوا يعطونهم ألواح مكتوب عليها الحروف لتلاوتها وإنشاءها ثم يترنسون على كتابتها ثم يقومون بعمليات نسخ وتكرار لكل الحروف إلى نهاية الأبجدية^(١).

وبعد انتهاء التلميذ من إجادة حروف الهجاء كان يبدأ تدريجه على دراسة المقاطع بهدف تدريجه على النطق السليم حيث كان عليه إجادة نطق حروف المقطع قبل كتابته، لذا كان التدريب يبدأ بالمقطع المكون من حرفين ثم ثلاثة إلى أربعة بنفس طريقة التدريب بالقراءة قبل الكتابة^(٢).

وكانت تلي مرحلة التدريب على المقاطع مرحلة كتابة الكلمات فيبدأون بالكلمة ذات المقطع الواحد ثم الاثنین فالثلاثة وهكذا، وكان المعلم بداية يقوم بكتابة المقاطع على ألواح الكتابة مراعيًا أن تتضمن جميع الحروف الهجائية وكان على التلميذ أن يقوم بإضافة بعض الحروف ليكون منها كلمات ذات معنى، وقد كان المعلم يراعي التنوع في القوائم التي تتضمن الكلمات فيبدأ بما هو مألوف في حياة التلميذ اليومية وبخاصة المهن والوظائف المختلفة كالخباز - الصباغ - مع مراعاة الترتيب الهجائي فيها^(٣).

وكثيراً ما كان المعلم - تحقيقاً لقدرة التلاميذ اللغوية - يستخدم ألفاظاً نادرة وغريبة فضلاً عن النصوص الشعرية والأدبية أو قراءة أجزاء من القصص حتى يتم تدريب التلميذ على القراءة والكتابة للجمل، بالإضافة لترقية سلوكه بما يحفظه من حكم ومواعظ^(٤).

وكثيراً ما كان يتم تدريب التلميذ على كتابة بعض المختارات الأدبية وبخاصة من ملاحم هوميروس والتي كان لها مركز الصدارة في كافة

(١) Turner: Athenians Learn to Write (Platos, Protagoras, 326d) B.I.C.S., No. 12, 1965, uni. of London, p. 68.

والذي أكد في مقاله على استمرار نفس الأسلوب في التدريس في مصر طوال العصر اليوناني وحتى الروماني.

(٢) Milne (J. G.): Relics of Graeco-Egyptian Schools J. H. S., V. 28, London, 1908, pp. 122-123.

وجاء بهذا المقال نماذج لطرق التدريب على كتابة المقاطع حتى القرن الخامس الميلادي.

(٣) Lindsay (J.), Daily Life in Roman Egypt, London, 1963, p. 57/

وقد ضمت إحدى البرديات هذه القوائم التي كان يتدرب عليها التلاميذ.

P. tebt. II, No. 278, Col. 1.

(٤) Marrou, op. cit., pp. 214-217.

وجاء بإحدى البرديات نموذجاً لتدريب كتابي على إحدى الجمل لست مرات وترجع للقرن الثالث الميلادي

P. Ryl. II, No. 59

المراحل التعليمية، حيث كانت تعد نموذجاً متميزاً للمعلومات والأخلاقيات معاً^(١).

ولما كان التلاميذ غير القادرين مادياً يتوقفون بعد هذه المرحلة ويتجهون للعمل لذا عمل المعلمون على إكسابهم بعض المهارات بتدريبهم على نسخ صور العقود والخطابات الرسمية حتى يؤهلهم ذلك لشغل وظيفة كتابية^(٢).

وقد استمرت طريقة التدريس المتبعة موحدة طوال العصر اليوناني الروماني وحتى البيزنطي معتمدة على قراءة التلاميذ للمختارات الأدبية بصوت مرتفع، ثم يقومون بنسخها وحفظها^(٣).

بالإضافة إلى مناهج القراءة والكتابة كان يقدم للتلاميذ قدر من المعارف العامة والتي تتضمن بعض معلومات التاريخ والجغرافيا عن الحكام والمشاهير والبحار والأنهار وكانت تلك العلوم تقدم شفاهة للتلاميذ^(٤).

وكان آخر ما يقدم للتلاميذ في تلك المرحلة هو علم الحساب وكان يبدأ التدريب عليه في نفس وقت تعليم المقاطع وإن كان بدرجة محدودة في مقابل تعليم القراءة والكتابة، فكان التلاميذ يتعلمون الأرقام الفردية والزوجية ويستخدمون حروف الهجاء كرموز عددية إضافة إلى ثلاثة رموز يتم تقسيمهم في مجموعات تمثل الأحاد والعشرات والمئات حيث يتعلمون كتابة الأعداد من ١: ١٠٠٠٠، كذلك كانوا يتدربون على صفات الإعداد ووحدات القياس والأوزان والعملة مثل تقسيم الفدان (الأورورا) إلى أجزائها والتالنت العملة المستخدمة إلى أجزائها^(٥).

وعن الطريقة المستخدمة في تعليم العمليات الحسابية ما رجحه (مارو) من أن التلاميذ كانوا يستخدمون أصابع اليدين في عد الأرقام، حيث

(١) Milne (J. G.), More Relics of Grec-Egyptian School, J. H. S., V. 43, pp. 41-43

(٢) عن تلك العقود والخطابات كنماذج لتمارين مدرسين في تلك المرحلة يمكن الرجوع إلى:

Collart (P): A L'ecole avec les Petits Grecs d'Egypt, Chr. D'Egy., V. 13, Paris, 1936, p. 499FF.

(٣) نجلاء حامد، مرجع سابق، ص ١٢٣.

(٤) Collart (P): op. cit., pp. 504-506.

(٥) Gueraud-Jouguet: op. cit., pp. 21-26, 235-242/

ووردت بردية هامة حول بعض المسائل الحسابية التي تم فيها استخدام التالنت وطلب فيها من التلميذ أن يحسب الفائدة عن فترة زمنية لمبلغ معين وترجع إلى القرن الرابع الميلادي.

P. Kellis, I, No. 90

كانوا يشكلون بها إشارات مختلفة يمكنهم بها التعبير عن الأرقام من ١: بضعة ألوف^(١).

وبهذا تكون هذه المرحلة قد عنيت بتعليم أساسيات القراءة والكتابة والحساب بغرض تأهيل التلاميذ إما لمواصلة الدراسة في المراحل التالية - أو الاكتفاء بها والاتجاه إلى سوق العمل.

مناهج المرحلة الوسطى (مرحلة الثقافة العامة): كان التلميذ بعد أن يتم دراسته الأولية يستكمل تعليمه بالمرحلة الوسطى، وكانت قواعد اللغة والمواد الأدبية فضلاً عن الرياضيات هي الأساس فيها، ولعل أهمية تلك المرحلة ترجع إلى كونها مرحلة غرس أسس الثقافة الهلينية وتراثها في نفوس الشباب بهدف الحفاظ عليها^(٢).

وكانت تلك المرحلة تتسم بنوع من الإزدواجية في التعليم يرجع إلى ازدواج المؤسسات المختصة بها، والتي تراوحت ما بين مدارس الجرامر الخاصة وبين معاهد التربية - الجمناسيون - والذي كان يعتبر ذا مستوى أرفع في التعليم من تلك المدارس لما اتصف به أساتذته - من يقومون بالتدريس فيه - من مستوى علمي وثقافي مرتفع^(٣).

ومن هنا سيتم التخصيص للمناهج في معاهد التربية لاشتمالها على كافة العلوم فضلاً عن التدريبات الرياضية، وقد انقسمت المناهج داخل تلك المؤسسات إلى: مناهج التربية البدنية - مناهج العلوم النظرية. مناهج التربية البدنية: والتي اشتملت على التدريب على جميع أنواع الألعاب الرياضية فضلاً عن التدريبات العسكرية في الأفيبيا ولقد أولى اليونانيون عناية خاصة بهذه المناهج، واحتل المدرب الرياضي (البيداتريب) منزلة كبيرة في نفوس الشباب المتدربين وقد كان المدرب يقوم بوصف التمرين الرياضي أولاً للطالب ثم يقوم بأدائه بنفسه أمام الطلاب وبعدها يقوم الطلاب بممارسته حتى يتقنوه وكانت التمارين الرياضية الهامة تمارس داخل معهد التربية والتي اشتهرت باسم الخماسي (بنداثلون)^(٤).

(١) Marrou: op. cit., pp. 219-220.

(٢) Morgan (T. J.): Teaching Greek Literature in Graeco, Roman Egypt Berlin, Archiv, Beiheft 3, 1997, p. 738.

(٣) P. Oslo, II, 1931, No. 13.

وهذه البردية الهامة أكدت على أن الشروح لعلم القواعد داخل الجمناسيون كانت تتم بصورة أكثر دقة وتميزاً وبخاصة في شروح النصوص الهومرية عما كان يتم بمدارس معلم النحو الخاصة.

(٤) حمدي إبراهيم: التعليم اليوناني الروماني، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

ومما يبدو أن مناهج التربية البدنية قد أخذت في التضاؤل مع الزمن أمام مناهج المواد النظرية التي دخلت لتلك المعاهد، إلا أن عدد من الوثائق البردية قد أثبتت أنها ظلت تمارس بها حتى القرن الرابع الميلادي^(١). مناهج العلوم النظرية: كانت المناهج في تلك المراحل تتمثل بصورة رئيسية في التمارين النحوية وتمرين الخطابة فضلاً عن الرياضيات والموسيقى والتمارين الأدبية وحتى الدراما المسرحية^(٢). وإجمالاً يمكن تقسيم مناهج الدراسات النظرية داخل ثلاثة برامج أساسية وهي:

١- حلقة الدراسات الأدبية: ويدخل فيها النحو والملخصات وإعادة صياغة الأعمال الأدبية والمعارف العامة ثم المعاجم والتعليقات. واتسمت الدراسات الأدبية بالثراء لكثرة ما تحتويه من أعمال منقولة من التراث اليوناني للشعراء والخطباء مثل أعمال "مينانديروس" الكوميديّة والشاعر التراجيدي "يوريبيديس" وذلك بجانب اثرى الأعمال وهي أعمال "هوميروس"^(٣).

وكان أول ما يبدأ به الطالب في الدراسة الأدبية هو كتابة المواضيع الإنشائية والتعبيرية، وكان دور المعلم يتمثل في تقديم النصوص لطلابه ثم يقوم بشرحها وإيضاح التركيبات ومواطن الجمال بها مستعيناً - في بعض الأحيان - بلوحات ورسوم تحكي النص المختار، ثم يقوم الطلاب بعد ذلك بعمل ملخصات لها يشرف عليها المعلم حتى لا يخلوا بالنص نفسه، وبعد تصويبه له ينسخه الطالب عدة مرات ثم يعيد صياغته بأسلوب حديث بدلاً من الكلمات القديمة للنص الأصلي. وكانت موضوعات الإنشاء والتعبير تلك متعددة الأنواع فمنها التاريخي أو الأسطوري ومنها ما يتعلق بالحكم والأمثال أو الأقوال المأثورة^(٤).

ولما كانت المفردات اللفظية في تلك النصوص الأدبية يتعذر فهمها على الطلاب لبعد الزمن وتغير الألفاظ فكثيراً ما كان يقوم المعلمون بعمل شروح وتعليقات لتلك النصوص والتي تعد كالكتب الخارجية في انظمتنا

(١) P. Oxy I.: 1998, No. 42, (323)/ P. Oxy, XVII, 1927, No. 2110.

(٢) Delorme: op. cit., PP. 255, 310.

(٣) Bell, Hellenic Culture, op. cit, p. 150.

(٤) Milne, Relices of Graeco- Egyptian School op. cit., pp. 128-130.

والذي أورد أحد النماذج الإنشائية، وأوردت بردية هامة نموذج لإعادة صياغة جزء من القيادة هوميروس في القرن الثاني مع تعليق المعلم عليها P. Oslo, II, 12/

التعليمية الحالية، وقد أكدت الوثائق المكتشفة أن النصيب الأكبر لتلك الشروح كان لأعمال هوميروس^(١).

إلى جانب التدريب على النصوص الأدبية كان يتلقى الطلاب تدريباً خاصاً في مادة النحو والصرف والتي تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية، وفيها يتم تدريبهم على استعمال وتصنيف الأفعال اللازمة والمتعدية وعلى تحويل الجمل من المفرد للمثنى والجمع والعكس بالإضافة لاشتقاقات الأسماء والتدريب على الأعراب للجمل والتي غالباً ما كان المعلم يختارها من نصوص (لهوميروس أو لميناندرس) كذلك كان يدرّبهم على وضع علامات الترقيم وعلامات التشكيل فوق الحروف لإظهار الاختلافات الصوتية حين النطق بها^(٢).

ويرجع الفضل لأساتذة الإسكندرية في وضع علامات الترقيم وتشكيل النصوص، كذلك اعتبر كتاب "فن النحو" للنحوي ديونوسيوس التراقي تلميذ العالم السكندري "ارستارخوس" كتاب القواعد الأول في العالم الإغريقي والذي استمرت شهرته حتى القرن السابع الميلادي والذي وضعت على أساسه القواعد للغة اللاتينية ثم اللغات الأوروبية فيما بعد^(٣).

وكانت هناك أيضاً مادة المعارف العامة والتي تدرس كمادة ثقافية تحتوي على الحكم والأمثال والسير والتاريخ والأساطير والأماكن الجغرافية وكانت عادة المعلم أن يدرسها في شكل (سين وجيم) ليسانع الطالب على حفظ تلك المعلومات^(٤).

حلقة العلوم الرياضية: والتي كانت تضم علوم الهندسة والحساب والفلك والموسيقى وكانت الهندسة تأتي في المقام الأول، وكان كتاب "العناصر" لأقليدس هو الأساسي في تدريس هذا العلم لما تضمنه من جميع نظريات الهندسة التي تتدرج من البسيط للمعقد فظل الأساس في تدريس علوم الهندسة

(١) تعددت الوثائق حول تلك الشروح منها في القرن الأول P. Ryl, III, No. 537 وفي الثالث P. Oxy, No. 2405 وفي الرابع P. RYL., No. 487 ومن المراجع الهامة التي عرضت تمارين من القرون الثاني إلى السادس

Andre Bataille, Paul collart, Papyrus d'Homere Aeg, VXi. Milano 1980-1981, pp. 169-178/

Packman (Z-M), Homeric Fragments in The Washington Uni. Collection, A papyrus of Iliad III, B. A. S. P.V. X., 1973, pp. 47-56.

(٢) Kenyon (F. G.): Two Greek School Tablets, J. H. S., V. 29, London, 1909, pp. 31-33.

والتي أورد فيها قائمة بتصريف الأفعال تضم ٢٠٧ فعلاً مختلفاً.

(٣) Criliore (Roffaella): A Homeric Exercise from the Byzantine Schoolroom, Cht. D'Egy. V. XVIII, Paris, 1993, p. 153.

حمدي إبراهيم: التعليم اليوناني الروماني، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(٤) بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٠١.

بالعالم حتى القرن الرابع عشر الميلادي. وكان الطلاب يعتمدون في دراستها على حفظ الأشكال الهندسية وكذا النظريات والبرهنة عليها، وهو ما لا يختلف كثيرا عن طرق تدريسها الآن^(١).

كذلك كان يدرس الطلاب علوم الحساب فيتدربون على حل المسائل وبخاصة مسائل الكسور والرموز الجبرية، وكان المعلمون يضعون جداول بها علم قياس الإعداد لمساعدة الطلاب على الحسابات التجارية وقوائم التكاليف^(٢).

بالإضافة للهندسة والحساب كان الطلاب يتدربون على تعلم الموسيقى والتي ارتبطت بالرياضيات منذ وضع فيثاغورث القوانين العددية التي تنظمها، وكان تدريس السلام الموسيقية والإيقاعات بواسطة التدريبات الصوتية للطلاب لقياس كفاءة أصواتهم^(٣).

أما عن علم الفلك فلصلته بالهندسة فقد اهتم به الإغريق لما له من فوائد في تقدير الشهور والمواقيت والفصول المناخية، وكان أفضل الكتب الدراسية في هذا العلم (مدخل إلى الظواهر الطبيعية) للفلكي "اراتوس" والذي كان يستخدم في تلك المرحلة التعليمية^(٤).

حلقة الدراسات الريتوريكية: وكانت تشتمل على التمارين الريتوريكية الاثنى عشرة التي تسيير على النحو التالي:

الاسطورة - القص - الأمثلة - الرأي - التقنيد - التعزيز - الموضوع العام - المديح - المقارنة - التشخيص - التعبير - القضية - القانون^(٥).

وكانت مادة الخطابة تحتل المرتبة الثالثة من حيث إقبال الطلاب عليها لما يتكبده الطالب من جهد ووقت وأموال في دراستها، إلا أن الطالب الذي يمتلك القدرة على دراستها كانت تتيح أمامه الفرص لتولي المناصب السياسية والقيادية الهامة أو المحاماة وهي المناصب التي كانت قاصرة على أبناء الأثرياء، وكان الطالب يبدأ دراسته الريتوريقا في الخامسة عشرة أو ما فوقها داخل الاقبيبا أو المدارس الخاصة على يد معلم الخطابة (ريتور) وكان

(١) Marrou, op. cit., pp. 244 FF

وقد وردت طرق التدريس في إحدى البرديات المشهورة من مجموعة ميتش

P. Mich, III, 1936, No. 143.

(٢) من برديات المسائل والحساب والكسور في القرن الثالث

P. Oxy, VIII, No.470

P. Kell, No.53

P. Tebt, No. 694

(٣) من البرديات في التدريب على علم الموسيقى

(٤) Boyaval (B) L'Apprentissage scolaire du Calendrier, Chr. D'Egy. V. 57, p.

105.

وقد أورد في مقاله قائمة بالتقويم لأيام الشهر في أحد النماذج المدرسية.

(٥) حمدي إبراهيم: التعليم اليوناني، مرجع سابق، ص ص ١٥٩ - ١٧٢.

يتدرب على دراستها تدريجياً من كتابة النثر والقصص إلى شرح القصائد، ثم الأقوال المأثورة حتى يصل إلى تأليف الخطب أو ارتجالها للأغراض المختلفة (مدح - هجاء - رثاء .. الخ) ثم يقوم بإلقائها علانية^(١).

وبالإضافة لتلك المواد الرئيسية أضيفت مادة اللغة اللاتينية بعد دخول الرومان للبلاد وهي لغة المحلل الذي حاول فرضها وإن ظلت واهنة جداً أمام الثقافة اليونانية حتى أن النصوص اللاتينية التي كانت تدرس كان لأبد من أن يوضع لها ترجمة يونانية، وكان تعلم تلك اللغة قاصراً على الراغبين في الوظائف الحكومية وكانت تدرس بنفس طريقة الأبجدية اليونانية بالتكرار أو النسخ^(٢).

معينات ووسائل التعليم للمعلم والمتعلم: بالإضافة إلى ما سبق إيضاحه من طرق تدريس المواد التعليمية للمرحلتين الأولى والوسطى، كانت توجد أساليب معينة لا ترتبط بمادة معينة ولا يستغنى عنها في العملية التعليمية والتي تتضح في التالي:

أ- معينات المعلم: وتنقسم إلى ثلاثة أنواع.

١- الكتب المساعدة: ومن أشهرها الكتاب الذي نشره "جوجيه" عن مناهج وطرق التدريس بالمرحلة الابتدائية وتضمن نماذج وشروح لأفرع المواد المختلفة من قراءة وكتابة وحساب ومعلومات عامة وظل هذا الكتاب هو الأساس للمدرسين حتى العصر البيزنطي^(٣).

٢- المعاجم والقواميس (جلوساريا): والتي لم يكن للمعلم غني عنها ولا سيما في مرحلة الثقافة العامة لأهميتها في تبسيط المواد الأدبية والنحو والبلاغة والخطابة، لما تحتويه من شروح وأمثلة واستدلالات، وظلت تلك القواميس تستخدم حتى القرن الخامس الميلادي حين خضع التعليم كله لإشراف الكنيسة، فبدأت تظهر فيها إضافات للكلمات القبطية بجوار اليونانية^(٤).

٣- العقاب المدرسي: كان وسيلة رئيسية في التعليم الهليني تهدف لتقويم

الطلاب المقصرين وكان العقاب المدرسي ينقسم إلى نوعين هما:

العقاب الكتابي: بزيادة الواجبات المدرسية وإجبار الطالب على تكرار موات نسخ الكلمات أو الجمل - وهو نوع معروف في مدارسنا حتى الآن

(١) Clark (D. L.), Rhetoric in Greco Raman Edu. New York, 1957 pp.187-182.

(٢) Moore (C): Latin Exercises from a Greek Schoolroom, Cl. Ph, V. XIX, 1924, pp. 317: 319.

(٣) O. gueraud -Jouguet: op. cit.

(٤) Bill, Crum (W E) A Greek-coptic Glossary, Aeg, V. 6, 1925, pp.177-226.

— وكان المعلم يختار في الفقرات المطلوب تكرارها نصائح فيها إنذار للتلاميذ بالعقاب البدني إذا أهمل.
العقاب البدني: ويتمثل في الضرب والذي كان يتدرج من الصفع إلى الجلد. وكان الأهل لا يعارضون هذا النوع من العقاب، بل كان بعضهم يطالب أن يعاقب المعلم أبناؤهم أحياناً نيابة عنهم إذا أساءوا السلوك^(١).

- ب- معينات المتعلم والتي لم تتعدى كونها أدواته المدرسية والتي منها:
- الألواح الخشبية: والتي كانت تغطي بطبقة شمع أو مادة جيرية ليسهل الكتابة عليها.
 - الأقلام: وكانت إما معدنية ذات طرف مدبب للكتابة على الألواح الخشبية وطرفها الآخر يمثل الممحاه، أو خشبية من البوص، للكتابة على أوراق البردي.
 - الأحبار: فكان التلميذ يحمل معه دواة الحبر وكان دائماً ما يصنع من نوع يمكن إزالته بقطعة مبللة من الإسفنج.
 - أوراق البردي: وكانت تستخدم كلفائف أو قطع منفصلة ولكن ليس بكثرة لغلو ثمنها فما كان يستخدم منها في التعليم هو ما خلفته الهيئات الحكومية بعد استخدام وجهه للكتابة فكان يسمح للتلاميذ بأخذه بعد ٥٠ عاماً للكتابة على الوجه الآخر.
 - قطع اللخاف (الاستراكا): وكانت أكثر الوسائل شيوعاً لسهولة الحصول عليها دون مقابل فضلاً عن سهولة إعادة استخدامها بعد محو ما كتب عليها^(٢).

مناهج التعليم العالي: حيث كان الطلاب ممن يرغبون في إكمال تعليمهم العالي يلتحقون بالدراسة تحت إشراف أستاذ الفلسفة أو الريتوريقا^(٣). وكانت الطريقة المتبعة للتدريس في تلك المرحلة ان يقوم المعلم باختيار من سيقوم بتعليمهم لذا كان كل أستاذ يعد مدرسة قائمة بذاتها لطلبتها سواء داخل مبان الجامعة أو خارجها وهو النمط التعليمي الذي ظل سائداً إلى ما بعد القرن السادس الميلادي، اعتماداً على المكتبات التي كانت تعد من أهم معينات التدريس للمعلم والمتعلم والتي كانت كتبها وقاعاتها متاحة للجميع^(٤).

(١) حمدي إبراهيم: التعليم اليوناني، مرجع سابق، ص ٢٨٩: ٢٩٣.

(٢) عن الأدوات التعليمية واستخدامها يمكن الرجوع للمراجع التالية:

حمدي إبراهيم: مرجع سابق، ص ٢٨٦-٢٨٧/

Oldfather, The Greek Literary Texts From Greco Roman Egypt, Madison, 1923, pp. 68ff.

(٣) Duggan (S. P.): History of Edu. New York 1927, p. 61.

(٤) إبراهيم نصحي: مرجع سابق، ص ١٢٦: ١٣٢.

أما بالنسبة للمواد الدراسية في تلك المرحلة فقد كانت الخطابة تحتل مركز الصدارة لما كان يكتنفها اليونانيون من هالات التبجيل والتوقير، حيث كانت هي الوسيلة المثلى لنقل تراثهم إلى أبنائهم، فضلاً عن أنها الأساس للتأهيل للراغبون في العمل بالسياسة أو المحاماة أو لتولي المناصب الحكومية الكبرى في الدولة^(١).

وكانت دراسة الخطابة تتضمن ثلاثة أقسام يحرض الطالب خلالها على التعلم على أحد الأساتذة المشهورين أو بعضهم للاستزادة من علومهم^(٢) وكانت المرحلة الأولى هي مرحلة الأسس وتتضمن تعريفاً بالعلم وبأصوله المختلفة والتي اشتملت على خمس عناصر هي: الابتكار - الترتيب - الخطابة - الاستظهار - الإلقاء^(٣).

بعدها ينتقل الطالب إلى مرحلة تقديم نموذجاً، حيث يستلزم الأمر أن يلقى خطبة من خياله على نهج النماذج الأدبية الشهيرة وأن يلقها بوضوح وإقناع حتى يحقق التأثير على المستمعين له^(٤).

وكانت المرحلة الأخيرة هي مرحلة التطبيقات والتي تتضمن إعداد الطالب لخطب تناسب كافة الأغراض والمناسبات فضلاً عن الخطب القانونية الخاصة بالمحاكم وكان الطلاب في تلك المرحلة يتدربون على نصوص الخطباء القدامى حتى يصلوا إلى مرحلة الكتابة الخاصة بمهارة فائقة، ولذلك كانت دراسة الخطابة على هذا الشكل تستلزم من الطالب ما بين أربع إلى ثمان سنوات من التدريب المستمر ليتم تلك المراحل الثلاث^(٥).

أما عن مادة الفلسفة فقد ظلت تدرس في مصر حتى نهاية العصر البيزنطي، وكان الطلاب ممن يرغبون في تعلمها لم تمنح لهم من قدرات في تهذيب النفس وتنمية العقول مما يصل بصاحبها إلى درجات الكمال والسعادة^(٦).

وكان يتقدم لدراسة الفلسفة الطلاب الراغبون في أن يصبحوا فلاسفة، وكان يتم تدريسها بقراءة وشرح نصوص الفلاسفة القدامى كفكرة عامة عن تاريخ الفلسفة وتاريخ الفكر الفلسفي ومذاهبه، ثم كان يعقب ذلك دراسة للمذاهب الرئيسية في الفلسفة الهيلينية من خلال شروح وتحليلات لمؤلفات

(١) Marrou: op. cit., pp. 269- 277.

(٢) إبراهيم نصحي: مرجع سابق، ص ١٣٥.

(٣) Marrou: op. cit., p. 272.

(٤) Borrow: op. cit., p. 82.

(٥) حمدي إبراهيم: الثقافة والتعليم، مرجع سابق، ص ٢١٩/كذلك تضمنت بردية مجموعة البهنسا عدد رؤوس مواضيع الخطب المختلفة P. Oxy, 24, No. 2400

(٦) حمدي إبراهيم: الثقافة والتعليم، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

الفلاسفة الكبار، يستخدم فيها المعلم أسلوب المحاضرة والمناقشة في التدريس^(١).

بالإضافة لهذين العلمين الرئيسيين كانت هناك دراسة الآداب بأنواعها، وكانت تتضمن نصوص من الأعمال المختلفة في الأدب والشعر والمسرحيات، وكان يتم تدريب الطلاب على تحقيقها بداية من شرح اللغة ثم تفسير الموضوعات ولقد تميز النقد السكندري بارتكازه على قواعد ثابتة وأكدته في النقد الأدبي كان يحتذى بها في العالم القديم^(٢).

كذلك كانت هناك علوم الطب والصيدله والكيمياء والتي تميزت فيها الأرض المصرية منذ عهد الفرعنة، وظلت مصر طوال العصر الهليني المركز الرئيسي لتدريس تلك العلوم، فكان للمدرسة المصرية الفضل في تأسيس علم وظائف الأعضاء والتشريح، ووضع الكتب الطبية التي أصبحت مراجع علمية لتدريس الطب كذاكرة فيليتوس (في الطب التجريبي) وكتب جالينوس (في العقاقير)، فضلاً عن رسائل ابقراط الطبية وكتب جالينوس التي ظلت الأساس النظري لتدريس الطب إلى ما بعد الفتح العربي للبلاد^(٣). وكانت الممارسة العملية في تدريس الطب تتم باصطحاب المعلم لطلابه حين يعود مرضاه ليتدربوا على الفحص والتشخيص ووصف الدواء وذلك تحت إشراف المعلم المباشر^(٤).

أما عن الرياضيات بأنواعها فظلت كما كانت عليه في المرحلة الوسطى مع إضافة مادة الميكانيكا لها. كما استمر كتاب (اقليدس) هو الأساس لتدريسها في تلك المرحلة وأن أولى المعلمين عناية أكبر بالنواحي التطبيقية العملية لهذه المادة^(٥).

كذلك كانت هناك اهتمامات محدودة بدراسة الجغرافيا والتاريخ، (المعارف العامة) اعتمد فيها المدرسون على أسلوب المحاضرة بالإضافة إلى المناقشة، وكان يكتفى في تعلمها أحياناً بإطلاع الطلاب على كتب المؤرخين والجغرافيين في المكتبات لمن يتعلم بمفرده دون معلم^(٦).

(١) Marrou: op. cit., p. 283 FF.

(٢) ايدرس بل: مرجع سابق، ص ١٢٢.

(٣) Chossiant (E) op. cit., - int.

(٤) إبراهيم نصحي: مرجع سابق، ص ص ١٣٠ - ١٣١.

(٥) بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، جزئين، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٨٩، ص ص ٩٠-٩١.

(٦) Sobhy (G.): Education in Egypt during the christian period and amongst the Copts, bulletin de la societe d'archeologie Copt, v. IX, le Caire, 1943, pp. 116-117.

ومما سبق يبدو أن التعليم العالي كان تعليم فردي يتوقف على رغبة الطلاب دون أن يكون هناك نظام شهادات أو امتحانات، فقد كان يكفي الطالب فخراً أن يذكر أنه أخذ العلم عن أحد أساتذة الإسكندرية، التي أفوزت العديد من مشاهير العلماء في كافة مجالات العلم والذين نقلوا علومهم لعلماء المدرسة المسيحية ثم العرب من نقلوها بعد ذلك لأوروبا مرة أخرى^(١).

أحوال المعلم والمتعلم في التعليم الهليني:

١- أحوال المعلم: بالنظر إلى أحوال المعلم في تلك الفترة نجد أنها قد تفاوتت فبالنسبة لمستواه الثقافي والتعليمي فقد تباين من مرحلة لأخرى فبينما كان معلم المرحلة الأولية محدود المعارف قليل الثقافة لا يشترط حصوله على مؤهل معين للتدريس، كان معلم مرحلة الثقافة العامة أكثر علماً وثقافة ولا سيما معلمو معاهد التربية، بينما بلغ معلم المرحلة العليا أعلى المراتب الثقافية لاستغراقه سنوات طويلة في الدرس والبحث ولا سيما أساتذة الأكاديمية ممن كانوا يعرفون بالعلماء والذين بلغت شهرتهم أرجاء العالم القديم.

كذلك فإن المنزلة الاجتماعية للمعلم تفاوتت هي الأخرى وفقاً لمكانته الثقافية فبينما نظر المجتمع الهليني لمعلم المرحلة الأولى نظرة من لا يجد عمل فامتهن التعليم، كان هناك قدراً كبيراً من التقدير لمعلم المرحلة الوسطى لا سيما في معاهد التربية التي حرصت الحكومة والمجالس البلدية على الإنفاق عليها، أما معلم المرحلة العليا فكان أيضاً الأعلى من حيث مكانته الاجتماعية وبلغوا درجة من السمو جعلت الحكام يقربونهم ويغدقون عليهم العطايا والمكافآت.

وعن الأوضاع المالية، فبينما كان أجر معلم المرحلة الأولى محدداً متواضعاً مما جعله حريصاً على جذب أكبر عدد من التلاميذ، كان أجر معلم المرحلة الوسطى أعلى كثيراً وبخاصة معلمي المدن وبصفة خاصة معلمي الخطابة والفلسفة في الأيبيا، كذلك كان الحال بالنسبة لمعلمي الأكاديمية ممن كانوا يتمتعون بدخل مضمون من الحكومة فضلاً عن هبات وعطايا الحكام^(٢).

(١) Bell: Hellenic Culture, op. cit., P. 140.

(٢) نجلاء حامد: مرجع سابق، ص ١٩٤: ١٩٦.

وللمزيد من المعلومات عن الأوضاع الاجتماعية للمعلم:

Lindsay, op. cit., P. 54, 63 / Parrow, op. cit., pp. 75-82.

وعن الأوضاع المالية:

ابراهيم نصحي: التربية والتعليم، مرجع سابق، ص ١٧٥

Rostovizeff, op. cit., pp. 1087-1088.

وعن الكفاءة المهنية للمعلم:

ابدرس بل: مرجع سابق، ص ١٢٣.

٢- أحوال المتعلمين: أما عن أحوال المتعلمين فقد كانوا قليلي العدد وانتشرت الأمية طوال تلك الفترة وكان التعليم يشمل الصبية والفتيات معا وكانوا يذهبون للمدرسة معا وإن كانت الأسر الثرية تفضل جلب معلم لفتياتها في البيت^(١). وكان معظم من يتعلم يكتفي بالمرحلة الأولية حتى يتاح له العمل بها ولم يكن يتجاوز تلك المرحلة سوى لقلّة من أبناء الأسر المتوسطة والثرية^(٢).

أما عما كان يميز المتعلمين في تلك الفترة فهي الحرية العلمية للمتعلّم سواء في اختيار المواد التي يرغب في تعلمها أو اختيار الأساتذة، وحتى المدن التي يرغب في التعلّم فيها^(٣).

لعل ما سبق يوضح أن التعليم الهليني في مصر اليونانية - الرومانية كان تعليم من أجل خلق الصفوة اليونانية المميزة وأغرقه المدن الجديدة التي حل فيها اليونانيون ليظل أبناؤهم متصلون بسماتهم الأصلية في مجتمعهم اليوناني الأم ولذا فقد تم نقل مؤسسات تعليمية تعد نموذجا مماثلا لما كان عليه الحال في بلاد اليونان فضلا عن المناهج وحتى طرق التدريس والتي تشابهت حتى في روما نفسها.

أما عن المصريين من أهل البلاد فقد ظلوا في منأى عن هذا النظام التعليمي إلا القلة القليلة من أبناء الأسر الثرية ذات المصلحة مع الحكام الأجانب، إلا أن تلك الأحوال بدأت تأخذ في التغيير مع ضعف قوة الثقافة الإغريقية أثناء الحكم الروماني فبدأ التزاوج والتقارب بين الإغريق والمصريين ومنذ القرن الثالث فتحت أبواب مؤسساتهم للمصريين يتعلموا بها، وقد استفاد عدد من المصريين من ذلك حين فتحت أبواب الجامعة أمامهم فتمكنوا فيما بعد من حمل لواء تأسيس مدرسة مصرية خاصة الملامح في العصر البيزنطي - القبطي - لتكون أصدق تعبيراً عن الروح والشخصية المصرية والديانة المسيحية ووقف علماءها - بما لديهم من ثروة ثقافية وعلمية أخذوها من جامعة الإسكندرية - يتصدون للوثنية ويقدمون الحجج المقنعة ويدعون للتعليم القبطي وهو التحول الثقافي الذي سيأتي به الفصل القادم.

(١) Lindsay, op. cit., p. 54.

(٢) C. Preaux, op. cit., pp. 971-975.

(٣) نجلاء حامد، مرجع سابق، ص ١٩٦.

الفصل الرابع

التربية في مصر البيزنطية (عصر سيادة الثقافة القبطية)

- أحوال مصر المجتمعية تحت الحكم البيزنطي.
- أهداف التربية في مصر البيزنطية.
- مؤسسات التعليم والمراحل التعليمية فيها.
- المناهج وطرق التدريس في المؤسسات التعليمية.
- أحوال المعلم والمتعلم داخل المؤسسات التعليمية.

الفصل الرابع التربية في مصر البيزنطية (عصر سيادة الثقافة القبطية)

وترجع أهمية هذه الفترة ليس في مجرد كونها حلقة من حلقات تاريخ التربية والتعليم في مصر ولكن لكونها الامتداد الحقيقي للثقافة والحضارة المصرية الفرعونية والتي ظلت هادئة مستكينة حتى تهيأت له الفرصة الثانية بعد الثقافة الهلينية لتعود قوية مميزة يقدم الدليل على أن حضارة مصر هي حضارة المصري الذي أبدع وابتكر، وقبل أن ندلل على هذا الرأي نجد أنه لزاماً أن نحدد فترة الدراسة بدقة ليسهل التتبع التاريخي لها.

وستتخذ الدراسة الحالية حداً زمنياً يبدأ منذ أوائل القرن الرابع الميلادي وحتى دخول الفتح العربي للبلاد، وهذه الفترة تحديداً تمثل سيادة الثقافة المصرية القبطية رغم دخول المسيحية لمصر منذ عام ٦٠ ولكنها الفترة التي تمكنت فيها الثقافة المصرية من محاربة الثقافة الهلينية بل والإحلال محلها في مصر، وفي سائر أنحاء العالم المسيحي وقتئذ^(١).

وسنحاول في دراسة هذه الفترة استقصاء القوى الفكرية والدينية التي كان لها أكبر الأثر في إظهار قوة ومكانة الثقافة المصرية الخالصة، تلك الثقافة التي نبعت حقاً من خصائص المجتمع المصري - التي كانت نتيجة لتفاعل المصري مع مجتمعه - تلك الخصائص التي لم تقتصر على حد العامل اللغوي والتعليمي وإنما اعتمدت بالدرجة الأولى على وضوح الشخصية المصرية وتأثيرها ودور التكوين الثقافي للمصريين فيها، الذي اعتمد على فكر يسعى لتحقيق الريادة والقيادة، فإذا تأملنا للخصائص الرئيسية للشعب المصري نجد أن الطبيعة المصرية اتسمت بخاصتين رئيسيتين وتميزت بهما عن غيرها من الشعوب القديمة التي سادت الأرض وهما - القدرة على الضبط والتحديد، النزوع إلى الكمال وهما ولا شك الخاصيتان اللتان ساهمتا في أن يسعى المصريون دائماً للانتهاج لشيء ثابت وباق تنطلق أثره إلى العالم بأسره^(٢).

وهذا ليس من قبيل المبالغة أو التفاخر بتاريخنا القومي بقدر ما هو واقع أثبتته الاكتشافات العلمية والدينية فضلاً عن القيم الخلقية والاجتماعية والتي كان للمصريين فضل السبق والريادة فيها وهي الاكتشافات التي أدت

(١) نجلاء محمد حامد: مرجع سابق، ص ٢٩ وجاء بهذه الدراسة بعض التحليلات للاختلافات الزمنية بين المؤرخين حول تحديد بدايات ونهايات هذه الفترة.

(٢) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ص ٢٧-٢٨.

إليها العقلية المنظمة، والتي تمكنت من تنظيم المظاهر الكونية حولها والتي قادت بها إلى دعائم الحياة والفكر بل وما بعد الحياة والمصير أيضاً. لذا لم يكن من الغريب أن يكون المصريون أول من اكتشف الكتابة، وأول من وضع تقويماً مضبوطاً على أسس فلكية علمية، وهي العمليات التي تحتاج إلى قدر كبير من تنظيم التفكير، وانتقل أثر ذلك لما اكتشفه من ترتيب الفصول وتنظيم كل العمليات المتصلة بها وبخاصة الزراعة، وتحديد أعياد الآلهة وسماتهم، هذا بالنسبة لنزعة المصري للتنظيم أما نزعه للكمال فتبدو واضحة في فكرة البعث بعد الموت، وحرصهم على العمل للحياة الآخرة وضبط سلوكهم والتمسك بمكارم الأخلاق والدعوة إليها، والإيمان بالحساب بعد الموت، وقد ظهرت تلك النزعة فيما أسسوه من معابد وما وضعوه من عقائد وما أبدعوه من فنون اتصلت مباشرة بتلك الفكرة كالأهرامات والمقابر وغيرها، فكما ساهمت نزعتهم للتنظيم إلى الوصول للكثير من الأدوات والأفكار التي قدمت إبداعهم في سائر النواحي الفكرية والعلمية أدت نزعة الكمال إلى أن يسبقوا العالم بما أكملوا في الكثير من مظاهر الحضارة الإنسانية، بفضل ما تميز به المصريون من عقلية خاصة مميزة ميزت هذا الشعب عن سائر شعوب الأرض حتى وقتنا الحاضر^(١).

وإذا قلنا أن تلك الخصائص انتقلت للمصريين في العصر المسيحي – القبطي – فهذا حقيقي فكما وضع المصري أول تقويم ونقسيمة للفصول، كذلك قدم في العصر المسيحي حساباً للأعياد المسيحية وما ارتبط به من فرائض وسنن الصوم التي أخذ عنها العالم المسيحي كذلك ما أبدعه من عظات وتعاليم، أوصلت أحد رجاله – القديس اثناسيوس – أن يضع "قانون الإيمان" ليكون المنهج للعالم المسيحي بأسره والقانون للرد على أصحاب البدع والهرطقات، وكان دور مدرسة الإسكندرية المصرية وعلمائها في قيادة العالم المسيحي في المجامع الكنيسة، هذا فضلاً عما أبدعته من نظام رعوي كنسي بداية من الأسقف للشماس أصبح هو المنهج في كافة الكنائس (روما – انطاكية....)

كما ساعدت أرض التنسك فيما عرفته عن دور الكهنة المصريين فيه في إبداع نظم الرهبة والديرية وهي نفس الأرض التي وضعت أسس قياس النسك التصوفي للمتصوفة في الإسلام، فكما كانت جامعة أون مركز العلم القديم وأصبحت جامعة الإسكندرية ثم مدرسة الإسكندرية التبشيرية سيأتي الأزهر جوهره مراكز العلم في العالم الإسلامي، وكل هذا إنما يعبر – بلا شك – عن الفكر المصري المنتظم والراغب في الكمال.

(١) المرجع السابق: ص ص ٢٨-٢٩.

وحول هذا المعنى ما أوضحه أمين الخولي عن الشخصية المصرية بقوله "إن الشخصية المصرية الدينية قد هيأت لمصر المشاركة في الأديان الكبرى بمعرفتها ولقائها وتقبلها في أناة ويقظة وتمكينها من الحياة في بيئتها الاعتقادية ثم الوقوف إلى جانبها بعد التمثيل لها وقوف المستشهد العميق الإيمان" (١).

وإذا قلنا أن تلك الفترة كانت بلا شك تجسيد لتلك الروح والخصائص المصرية وإنها سجل للقومية والشخصية المصرية في أقوى صورها فهذه حقيقة ولا شك ولا أدل على ذلك من وصف صاحب سندباد مصري لقدرة وتمسك هذا الشعب بقوميته وعدم فناؤه في بوتقة غازيه بقوله "لو أنك استجمعت كل الظروف والمحن التي مرت بالمصريين، منذ قضى الفرس على استقلالها، حتى آخر العهد الروماني والبيزنطي، لما توقعنت سوى نتيجة واحدة: هي القضاء على القومية المصرية، إن لم يكن محو المصريين من على وجه الأرض ومع ذلك، لم تستطع كل تلك الأرزاء والاحن أن تقضي على القومية المصرية. وكلما زادت محنهم، كلما ازدادوا استمساكاً بقوميتهم. وسوف يقدم لنا تاريخ المسيحية في مصر أروع صور مقاومة المصريين للغرباء" (٢).

ولعل التأكيد على هذا الدور المصري يتطلب إلقاء نظرة سريعة على الأحوال المجتمعية في هذا العصر لبيان أثر الشخصية المصرية فيها من ناحية وأثرها على النواحي الفكرية والتعليمية من ناحية أخرى. أحوال مصر المجتمعية تحت الحكم البيزنطي:

على الرغم من أن العصر البيزنطي - أو القبطي - كان امتداداً طبيعياً للحكم الروماني والتغير في الاسم راجع فقط لتحول مصر بعد تقسيم الإمبراطورية الرومانية لجزئين شرقية وغربية إلى ولاية الشرق وعاصمتها بيزنطة، إلا أنه كان من الضروري إلقاء الضوء بصورة سريعة على الملامح العامة لنقف على مظاهر التغير في القوى المجتمعية والتي لا شك تؤدي بالتالي إلى تغير في المنظومة التربوية كذلك، فهذا العصر لم يأتي بديانة جديدة فقط - المسيحية - وإنما هذه الديانة اشتملت على مبادئ ونظم وقيم جديدة اختلفت اختلافاً جذرياً عما كان قبلها ومن ثم كان لها أثرها ولا شك في خطة التربية في تلك الفترة.

فعن الأحوال السياسية: ظل الوضع الإداري لمصر كما كان منذ عهد اكتافايوس واستمرت التقسيمات الإدارية كما هي حتى المصالح الحكومية ظلت تدار كما كانت عليه منذ عهد الفراعنة وإن اقتصررت الوظائف الهامة

(١) أمين الخولي وآخرون: تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٥٣٦.

(٢) حسين فوزي: مرجع سابق، ص ١٢٩-١٣٠.

فيها على الرومان ثم الإغريق فالمصريين المتأخرين ونظراً لتدني أحوال البلاد وبخاصة تنظيمات القرى حاول بعض الأباطرة منذ عهد دقلديانوس (٢٨٤: ٣٠٥م) إلى تحسين الأحوال فأعاد التقسيمات للولايات كما فصل السلطة المدنية عن العسكرية حتى يتجنب الثورات التي أخذت في الازدياد لكرهية المصريين للأوضاع القائمة إلا أنه بذلك زادت الأعباء المالية الملقاه على مصر^(١).

ونظراً للمكانة الاقتصادية الهامة لمصر بالنسبة للشعب الروماني، فقد حاول دقلديانوس إرضاء أهلها بعد أن كثرت ثرواتهم ضد الحكم وضد الضرائب والأعباء والخدمات الإلزامية^(٢).

فاضطر الفلاحين لهجرة أراضيهم لقلّة المحاصيل وتراكم الضرائب فلحق الضرر بالبلاد فاضطر الإمبراطور لمنح السكندريين أكثر الفئات ثورة نسبة من حيازة القمح لرفع الجوع عن المدينة، كما قام بنظام النقد الموحد وجعل مصر كسائر أنحاء العالم الروماني لإصلاح النظام النقدي بها فضلاً عن بعض التعديلات الإدارية رغبة في تيسير الأمور^(٣).

إلا أن حقيقة الأمر أن كل تلك الإصلاحات لم تتعدى كونها قشوراً خارجية فلم تقضى على أي من العوائق الإدارية أو الاقتصادية بقدر ما أضعفت الثقافة الإغريقية التي سادت أكثر من تسعمائة عام، وبدأت لأول مرة تحل اللاتينية محلها كلغة للإدارة والحكم مما مهد لانبعث القبطية هي الأخرى كبديل قومي للشعب المصري وتأكيداً على سمتها الشخصية الخالصة حتى أنها اتخذت اسمها من كلمة مصر باليونانية "ايجيبيتوس"^(٤).

كذلك كان من التغييرات التي تعيننا مباشرة ما شهده عصر تابعة الإمبراطور "قسطنطين" (٣٠٦-٦٤٢م) وهو العصر الذي شهد حدثين هامين أولهما: الاعتراف بالديانة المسيحية كأحدى ديانات الدولة الرسمية والثاني تحول مصر للقسم الشرقي في الإمبراطورية والعاصمة البيزنطية الجديدة -

(١) Thomas J. D.: The Strategues in Fourth Century Egypt Chr. D. Eg. V. xxxv, Paris, 1960, pp. 262FF.

(٢) أشار رستوفتريف إلى تدني الوضع بداية من القرن الثاني الميلادي حتى أن الدولة حين كانت لا تكفي بالضرائب تفرض ما يعرف بالخدمات الإلزامية - الخدمات العامة على المصريين - وأنه بحلول تلك الفترة أصبحت كل الوظائف في مصر من نطاق الخدمات العامة تقدم دون مقابل أو أجر تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة محمد سليم سالم، ج٢، القاهرة، ١٩٥٨، ص ص ٤٥٠-٤٥٢.

(٣) الباز العريني: مرجع سابق، ص ٤٨/ وأشار سيادته أن الحاكم الروماني في مصر استغل هذه القرارات من الإمبراطور وقام بتشديد أثرًا لتخليد ذكراه وهو يعرف الآن بعمود السواري.

(٤) سيد توفيق: مرجع سابق، ص ٢٥٩.

القسطنطينية — (١). ولهذا سيكون عصره هو بداية التحديد للفترة الزمنية قيد الدراسة.

ومن هذا الوقت غدت مصر ولاية بيزنطية حتى فتحها العرب في عهد هرقل (٦١٠-٦٤١م) ٦٤١م، ونتج عن هذا التقسيم الإداري أن أصبحت مصر جزءاً من القسم الشرقي ولغته الرسمية اليونانية في مقابل القسم الغربي ولغته اللاتينية وهو القسم الذي ما لبث أن إنهار تحت غزوات الجرمان وغيرهم، بينما تحول القسم الشرقي إلى مركز لحضارة مسيحية إغريقية بيزنطية تمتعت فيها مصر بمركز فريد بفضل سلطة كنيستها القومية لذلك درج المؤرخون على تسمية العصر البيزنطي في مصر بالعصر القبطي (٢).

ولم تتعرض البلاد لتغيرات إدارية تذكر حتى عصر جستنيان ٥٢٧-٥٦٥م، الذي أطلق على نفسه المصلح والمشرع وسعى لإصلاح كافة الأمور الإدارية في الولايات المختلفة في مرسومة الإصلاحية عام ٥٣٨م الذي عرف (بمرسوم رقم ١٣) والذي لم يصب مصر منه غير تغييرات طفيفة في بعض المناصب الإدارية كزوال الشخصية الخاصة للوالي واعتباره مجرد حاكم إداري يجمع السلطات العسكرية والمدنية بيده فضلاً عن بعض التغييرات في التقسيمات الإدارية للولايات المصرية (٣). وقد استمرت هذه النظم حتى نهاية العصر البيزنطي بدخول العرب للبلاد.

أما عن ملكية الأراضي فاعتبرت كلها ملكاً للإمبراطور — على نهج البطالمة — وهو يعطي منها المعابد والجنود وغيرهم وقد قسمت إلى أراضي التاج: وضمت كافة الأراضي والملاحات يقطع الإمبراطور منها لمن يرغب كأجور مما أدى لظهور نظام الضياع الكبرى والإقطاع بعد ذلك (٤).

ثم أراضي المعابد والكنائس: وكانت هبات تسمى الأراضي المقدسة والتي بدأت تتحول بكثرة للكنائس منذ عهد دقلديانوس حتى كان القرن السادس الذي أصبح للكنيسة المصرية الحق في امتلاك ما تريد من أراضي (٥).

(١) حسنين ربيع: تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٨٣، ص ١١-١٢.

(٢) سيد توفيق: مرجع سابق، ص ٢٦٨.

(٣) ايدرس بل: مرجع سابق، ص ١٨١.

(٤) Bell(H. I.): An Egyptian Village in The Aeg of Justinian, J. H. S., v. LXIV, London, 1944, p. 23.

(٥) الباز العريني: مرجع سابق، ص ٩٨-١٠٠.

أما الأملاك الخاصة: فهي ما انتزعه الأباطرة من الملاك الأصليين وأعادوا بيعه أو أقطعوه للعساكر والمقربين لهم حتى ظهرت عن طريق ذلك طبقة أصحاب الضياع الكبرى^(١).

أما عن نظم الضرائب: ففرضت على الأراضي الصالحة للزراعة وكان تقديراً وفقاً لفيضان النيل وتضمنت جزء عين يشمل كافة أنواع المحاصيل وآخر نقدي على الكروم والبساتين واختلفت تبعاً للأراضي وكان لزاماً على المزارعين أن يسدوا كافة الضرائب عنم يعجز أو يلزمون بأعمال سخره في المشاريع الزراعية مقابل سدادها^(٢).

وبغير الدخول في تفصيلات أنواع الضرائب وهي كثيرة إلا أن العنصر الرئيسي الواضح أنها كانت تختلف من فئة لفئة فبينما أعفي منها أهل الإسكندرية بالكامل وكذا الرومان وعلماء الجامعة، وأعفي مواطني الجمناسيون من ريعها، إلا أن المصري القح كان يلتزم بسوادها كاملة رغم قرار الإمبراطور (كراكالا) ٢١٢م بمنح الجنسية وحقوق المواطنة لكافة سكان الإمبراطورية إلا أن الوضع لم يتغير بالنسبة للمصريين^(٣).

والذي بين مدى شدة وقسوة تلك الضرائب والتي أجبرت الفلاحين فيما بعد على هجرة أراضيهم وقد دلت على قسوة الضريبة بخطاب هو إخطار بحالة وفاة مشفوعاً بالتماس لرفع اسم المتوفي من الضريبة. الأنشطة الاقتصادية: والتي ارتبطت بدرجة رئيسية بكل من النظم الإدارية والمالية، حقاً اتسمت الحياة الاقتصادية في مصر الرومانية البيزنطية ببعض مظاهر الرخاء وبخاصة الإسكندرية وذلك لما تميزت به من تنوع في الأنشطة الصناعية والتجارية^(٤).

وانقسمت الأنشطة الاقتصادية في الزراعة - الصناعة - التجارة.

(١) Jones (A. H. M.): The Later Roman Empire, V. 2, Oxford, 1964, pp. 776-780, 800-803.

(٢) Naphtali (L.): op. cit., p. 48./ Wallace, 1936, pp. 30FF.

وقد أولى سيادته عناية خاصة لضريبة الكمح والتنظيمات الخاصة بها لأهميتها لإطعام الشعب الروماني حتى أنها عرفت بالشحنة السعيدة.

(٣) Winter: Life and Letters in The Papyrus, Univ. of Mich. Press, An Arbor, 1933, p. 132.

(٤) وحول هذا الرخاء ما ذكره جونسون من أن الإسكندرية كانت "مدينة شديدة الثراء والرخاء، ولا يوجد بها عاطل عن العمل ... حتى أصحاب العاهات".

Johnson (A. S.): Byzation Egypt, Economic Studies, London, 1947, p. 100.

- الزراعة: والتي يعمل بها معظم سكان البلاد، والتي كان للحكم الروماني السيطرة الكاملة عليها واعتبرت القرية المصرية هي أهم وحدة مالية وإدارية عند الحكومة^(١).

- أما الصناعة: فقد تنوع النشاط الصناعي والصناعات المصرية وبخاصة في الإسكندرية فكانت صناعات البردي - النسيج - الزجاج والفخار وحتى الجواهر والأدوية والعقاقير وغيرها^(٢).

- أما عن التجارة: فقد تميزت بالتنوع نظراً لتنوع الأنشطة الزراعية والصناعية واحتلت الإسكندرية أكبر مركز تجاري في البحر المتوسط في العصر البيزنطي فكانت صادرات مصر من الحبوب والفواكة والزهور والمنتجات الصناعية كالمنسوجات والعقاقير والطور والورق، في حين اشتملت وارداتها على المواد الخام اللازمة للصناعة كالأخشاب والمعادن والحريير الخام^(٣).

(إذا وما لا شك فيه أن الأرض المصرية كانت طوال التاريخ أرض منتجة ومصنعة خلافاً للمقولة التي حاول أن ينشرها المحلل البريطاني فيما بعد بأن مصر لا تصلح للصناعة)

حقاً شهدت مصر قدراً من الرواج الاقتصادي في العصر البيزنطي، إلا أنه كان مقدرًا له الزوال نظراً لسياسات الاحتكار والاستغلال، فهجر الفلاحون قراهم، وبدأت الملكيات الكبيرة على حساب أراضي الحكومة والأفراد، حتى أهل الحرف لجئوا للاعتصام بالصحارى والأديرة هرباً من الضرائب وكان لهذه الآثار الاقتصادية أكبر الأثر على ضعف نفوذ واضمحلال المؤثرات الهلينية والرومانية أمام التأثير المصري الجديد الأخذ في النمو والذي وجد فيه المصريون الملجأ والملاذ إلا وهو تأثير الكنيسة القبطية المصرية^(٤).

ومما لا شك فيه أن النظم الإدارية والمالية كانت ولا شك ذات تأثير على مظاهر الحياة الاجتماعية في تلك الفترة والتي تمثلت في الانقسام الطبقي للمجتمع المصري في العصر البيزنطي كما كان عليه في العصر اليوناني - الروماني ما بين عدد من الجنسيات بدرجات اجتماعية متفاوتة كالتالي:

(١) I. b. l. d., pp. 106-107.

(٢) زبيدة عطا: الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية، القاهرة، دار الأمين للنشر، ١٩٨٣، ص ص ٧٣-٧٥، ٩٦-١٠٠.

(٣) الباز العريني: مرجع سابق، ص ٢٤٩.

(٤) نجلاء حامد: مرجع سابق، ص ٥٦.

- مثل الرومان والإغريق أعلى طبقات المجتمع من أصحاب الحكم وكبار الملاك وأصحاب الأراضي وأصحاب حق المواطنة وأصحاب مركز السيادة في الإسكندرية^(١).
- وجاء بعدهم طبقة صفوة أهل الإسكندرية من الأجانب من العلماء والتجار فضلاً عن اليهود أصحاب المصالح المالية والتجارية وجميعاً كانوا يتمتعون بمنزلة خاصة في المجتمع البيزنطي^(٢).
- ثم يأتي المصريون أهل البلاد وأكبر فئة في تعداد السكان عاش معظمهم بالقرى وكانت حرفهم الزراعة أو بعض الصناعات البسيطة التي توارثوها من أجدادهم في عهد الفراعنة وكانوا أكثر من عانى من ظلم الرومان وأكثر من تحملوا الضرائب، إلا أنها الطبقة التي حافظت على الهوية المصرية^(٣).

ولعل العنصر الرئيسي الذي كان يجمع تلك الطبقات معاً هو الصراع الدائم بينهم نظراً لعدم رضا أي منهم عما لديه - عدا الرومان بطبيعة الحال - فالإغريق لم ينسوا للرومان أنهم سلبوهم حكم مصر، كذلك اليهود لم يكتفوا - كدأبهم - بما حصلوا عليه وحسدوا الإغريق على حق المواطنة، أما الأجانب فأغلب الظن أنهم كانوا راضين لأن أوضاعهم من اختيـارهم، بينما المصريين فلا يوجد مبرراً واحداً يجعلهم يشعرون بالرضا فيما يلقونه^(٤).

أما عن الإسكندرية فكان لها شأنها الخاص فقد عرفت طبقة خاصة بها فجاء على قمتها الارستقراطية من الرومان واليونان والأغنياء وأصحاب البيوت التجارية والمصارف، ثم طبقة رجال الكنيسة بأملاكها الشاسعة وأراضيها واسطولها فضلاً عن الطبقة الوسطى من التجار والصناع، وأخيراً طبقة العامة والتي كانت ولا شك أفضل من مثلتها في باقي أنحاء القطر المصري فكانت ضرائبهم أقل ولهم حق حضور الأعياد والمهرجانات والحصول فيها على الأطعمة مجاناً، ثم المرأة السكندرية والتي بلغت مكانة كبيرة جعلت كثير من مؤرخي الفترة يتحدثون عنها، ومنهن من بلغ شأن كبيراً في العلم كالعالمة هيبياتيا ابنة الفيلسوف الكبير ثيون وآخر علماء مدرسة المعبد^(٥).

(١) El-Abadi (M. A. H.): op. cit., p. 116.

(٢) Bell (H. I.): op. cit., p. 100/
Naphtali (L): op. cit., pp.28-30.

(٣) Winter: op. cit., pp. 30: 32.

(٤) نجلاء حامد: مرجع سابق، ص ٥٩.

(٥) الباز العريني: مرجع سابق، ص ٢٥٥-٢٥٦، ص ٢٦٦-٢٦٨.

ومما لا شك فيه أن هذا التنوع في فئات المجتمع المصري وطبقاته جعلت المصريين يتطلعون لرمز خاص بهويتهم وخصوصيتهم يمنعهم من الانصهار والذوبان داخل كافة تلك العناصر والقوميات المتباينة، فتمسكوا بكنيستهم وجعلوها رمزاً لشخصيتهم وهو ما سيظهر في كافة المجالات الثقافية والعلمية والتربوية.

الحياة الدينية وظهر القومية المصرية: ولعلها أبلغ المعالم في الأحوال المجتمعية والتي كان لها أكبر الأثر في التغيرات السياسية والاجتماعية وحتى الثقافية والتعليمية وهو ما يعيننا بالدرجة الأولى فكما هو معروف أن مصر عبر التاريخ هي أرض الديانات وشعبها أول شعب عرف الإيمان، سواء في عهد دياناتها الوثنية (كعبادة ايزيس) التي نشرتها على سائر الشعوب، أو السماوية (كاليهودية) كذلك عرفت عاصمتها الإسكندرية بالعاصمة الدينية والثقافية للعالم جمعت داخلها كافة الأديان والثقافات، لذا كان من الطبيعي حين تأتي المسيحية لأرض مصر أن تكون لها سماتها وملامحها الخاصة والتي لم تعرف لها نظير - بحق - في سائر البقاع التي دخلت إليها^(١).

رغم تضارب الأقوال حول كيفية دخول المسيحية إلى مصر، لكن المتفق عليه أن موقع مصر بالنسبة لبلاد الشام كان لا بد من أن يكون العمل الأول لنقل مبادئ المسيحية لها، سواء بواسطة التجار دائمي الترحال إليها، أو اليهود المقيمين بها من داوموا على الترحال بين مصر وبيت المقدس وبالتالي عرفت تلك الديانة وأخذت في الانتشار ولا سيما في مدينة الإسكندرية^(٢).

أما حركة التبشير الرسمي بالمسيحية في مصر فترجع للقديس مرقس الرسول الذي عاصر تعاليم السيد المسيح وبدأ تبشيره منذ عام ٤٥م في عدة بلدان منها مصر حيث استقر بالإسكندرية عام ٦١م واتخذها مركزاً لما تمتعت به من تعدد الأجناس والثقافات^(٣).

وبعد أن أخذت دعوته في الانتشار قام بتأسيس أول كنيسة في مصر وهي الكنيسة المرقسية بالإسكندرية كما أسس أول مدرسة لاهوتية بها لتعليم مبادئ المسيحية ومواجهة فلاسفة الوثنية، ولما أحس الوثنيون بمدى قوة

(١) امين الخولي وآخرون: مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(٢) Tadros (F. R.): Introduction to the Coptic Orthodox Church, Alex., 1993, p. 16.

(٣) منسي القمص: كتاب تاريخ الكنيسة القبطية، ط ٣، القاهرة، مطبعة القاهرة الحديثة، ١٩٨٢، ص ٢٣-٢٧.

وسرعة انتشار الديانة الجديدة قامت سلطات الحكومة بإلقاء القبض على القديس مرقس وعذبه حتى توفي ودفن بالإسكندرية عام ٦٨م^(١).

ولكن رغم ذلك سرعان ما غدت الكنيسة المصرية مركزاً للديانة المسيحية وأصبحت بمثابة الحاضنة لوجدان الشعب ورمزاً لكرامتهم وللتخلص من عبودية الإمبراطور المقدس فبدأ الإقبال عليها حيث تمكنت ببساطة وسماحة تعاليمها من الدخول سريعاً لنفوس أهل البلاد ولا سيما لدى شعب يؤمن بطبيعة البعث والحساب ومكارم الأخلاق فأقبل أفرادها عليها ولا سيما الطبقات الكادحة، باعتبارها رمز الحرية والاستقلال الروحي في غيبة الاستقلال السياسي^(٢).

وبالفعل كان للكنيسة المصرية دوراً كبيراً في ظهور ملامح القومية المصرية، حيث أصبح المصريون يفضلون سلطان رجالها على سلطة الحاكم الروماني، كذلك أسرعوا في التحول إلى القبطية واستخدامها بدلاً من لغة المغتصب - اليونانية - والتي هي آخر صورة لتطور اللغة المصرية القديمة - الديموطيقية^(٣).

ولما ارتبطت نشأة الكنيسة القبطية بمدينة الإسكندرية ذات الرصيد الثقافي الكبير كان لابد لها من أن تقيم صرحاً فكرياً وثقافياً يقف على قدم المساواة ويتمكن من دحض وإبطال مزاعم الوثنية فكانت نشأة المدرسة التبشيرية المسيحية لتعليم حقائق الديانة، وتسليح رجالها بالفلسفة والعلوم اليونانية نفسها للدفاع عن عقيدتهم^(٤).

إلا أنه مما قد يثير الجدل هو لماذا اضطهدت الدولة الرومانية الديانة المسيحية والكنيسة المصرية رغم ما عرفت عنه بالتسامح الديني وبعدها كسابقتها الدولة البطلمية عن التدخل في عبادات الشعوب، إذاً ولابد أن سبب هذه الاضطهادات ليس سبباً دينياً وإنما راجع ولا شك لخشية الدولة على سلطانها من قوة تلك الديانة الوليدة وتأثير مبادئها^(٥).

(١) Tadros, op. cit., pp. 18-21.

(٢) وليم قلاده: المسيحية والإسلام على أرض مصر، القاهرة، دار الحرية، ١٩٨٦، ص ٧٩-٨١

ولعل ما أكد على سرعة انتشارها ما جاء في بردية في مستهل القرن الثاني والتي تضمنت كثير من فقرات الإنجيل مما جعل المؤرخون يجمعون على أنه مع حلول هذا القرن كانت المسيحية قد انتشرت في ربوع البلاد

P. Ryl. III, 457.

(٣) وليم قلاده: الأقباط وكنيستهم في مسار التاريخ المصري، إيداع، ٢٤، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٣، ٣٩.

(٤) إيدرس بل: مرجع سابق، ص ١٣٥-١٣٦.

(٥) رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢، ج ٢، عصر قسطنطين، ص ١٥٦.

فقد تدرعت روما بما اعتبرتّه خروجاً من جانب المسيحية عن الأعراف الرومانية برفضهم تقديس تماثيل الإمبراطور، كذلك أدعوا أن صلوات المسيحيين الدينية ما هي إلا تجمعات سرية ضد الحكم، فضلاً عن اتهامهم بالقيام بشعائر محرمة وممارسات شاذة أثناء طقوسهم، مما تسبب في الكوارث الطبيعية التي بدأت تحل بالدولة لغضب الآلهة منهم^(١).

لذا أخذت مظاهر اضطهاد الأباطرة في الظهور من عقوبات كالنفي والتعذيب وأخذت تلك المظاهر تزيد حدة منذ عهد سيفيروس ١٩٣-٢١١م بإضطهاد الطلبة المسيحيين ثم كرا كالا ٢١١م بمضاعفة الجزية على المسيحيين ومن يرفض يصلب أو يقدم للوحوش، ثم كان دكيوس ٢٤٩-٢٥١م الذي أمر بتقديم شهادة من كافة المواطنين تثبت تقديمهم للقرابين لتمثال الإمبراطور ومن لا يفعل يعذب ويقتل وكانت من أشد الفترات قساوة على المسيحيين، ثم كانت أكبر مظاهر الاضطهاد في عهد دقلديانوس (٣٠٣-٣١١م) رغم أنه بدأ عهده ببعض السماحة ومحاولة عمل إصلاحات للدولة، إلا أنه ما لبث بتحريض من قيصره (جاليريوس) أن أمر بحرق الكنائس والكتب وإعدام كل من يرفض، فبلغ عدد من لقي مصرعه في عصره حداً كبيراً حتى سمي بـ "عصر الشهداء" واتخذت منه الكنيسة المصرية بداية للتقويم القبطي فيها، وأدى لظهور الأدب السكندري المسيحي للشعب على غرار الأدب السكندري الوثني تسجيلاً لمعاناة الشعب المصري في عهده^(٢).

واستمر اضطهاد الدولة الرومانية لمسيحي مصر حتى كان اعتناق الإمبراطور "قسطنطين" للمسيحية وإعلان مرسوم ميلاد ٣١٣م الذي نص على السماح الديني وحرية ممارسة العقيدة الدينية، والذي جاء رافة بالمصريين بعد طول معاناة من موجة الاضطهادات^(٣).

ورغم توقف موجة اضطهاد الأباطرة الدينية إلا أن المسيحية المصرية ما لبثت أن تعرضت لمحنة أخرى وهي ما أطلق عليه بعض المؤرخين الهرطقات وهي مجموعة أفكار فلسفية امتزجت بالعادات الوثنية

(١) ولعل أفضل ما قيل في ذلك ما ذكره إيدرس بل عن المؤرخ تروتوليان حيث قال "فإذا فاض التبير على الأسوار، أو غاض النيل فلم يبلغ الحقول أو حدثت مجاعة، أو انتشر وباء، تتعالى الصيحات على الفور صائحة فليلق المسيحيون إلى الأسود"، مرجع سابق، ص ١٢٩.

(٢) حول هذه الاضطهادات يمكن الرجوع إلى/

Winter, op. cit., p. 190, No. 2, p. 141- No. 1

والذي قدم أمثله من شهادات تقديم القرابين وكذلك بردية

P. Mich, III, No. 157, 158.

Milne (J. G.) A History of Egy. Under Roman Rule, London, 1930, pp. 85-87.

(٣) Munier (H.): Precis de l'histoire d'Egypte, Caire, 1828, p. 20.

القديمة كتحنيط الموتى وغيرها، وهي التي تمثلت أولاً في الغنوسية^(١). والتي أخذ اتباعها في الإزدياد منذ بداية القرن الثاني الميلادي حتى تصدّت لها مدرسة الإسكندرية التبشيرية ومؤسسها "فالنتينوس السكندري" بوضع أسس العقيدة وتعليم الفقه المسيحي في مدرسته حتى انقرضت آخر فرقها في القرن السادس الميلادي.

ثم كانت الأفلاطونية الجديدة: وهي التي ظهرت نتيجة لتعمق المسيحيين في الدراسات الفلسفية وظهرت بالإسكندرية على يد امونيوس سكاس ٢٤٣م وهو فيلسوف مسيحي حاول المزج بين تعاليم أفلاطون وأرسطو وبين الدين المسيحي، وإن اشتهرت على يد الفيلسوف المصري (أفلوطين ٢٠٥ - ٢٧٠) واتسمت الأفلاطونية بالميل للتفكير العقلي المحض والتحرر من عبودية الجسد وتعلق أصحابها لذلك بالسحر والغيبيات وكانت من أهم الأسباب التي أدت لقيام المدرسة التبشيرية لمواجهة تلك البدع^(٢).

كنيسة الإسكندرية والجدل حول طبيعة المسيح: وما لبث الجدل الديني في مصر أن أخذ صورة أخرى عن صراع الوثنية المسيحية أو الهرطقات وهو الجدل حول تفسير طبيعة السيد المسيح وهل هي واحدة أم ثنائية والذي اشتد بين الكنيسة المصرية وكنيسة روما وبيزنطة وأخذ فيه قساوسة وبطاركة الإسكندرية موقفاً قوياً سجل لهم في العالم المسيحي حتى كان وضع القديس المصري اثناسيوس لقانون الإيمان الذي حسم النزاع وأخذ به العالم المسيحي بعد طول خلاف وبعد عقد العديد من المجمع الكنسية وكان هذا القانون يمثل فوزاً كبيراً للعقيدة المسيحية في مصر. وأصبح للكنيسة المصرية مكانة روحية خاصة بين أبناء العالم المسيحي^(٣).

ولعل أفضل ثمار هذا النزاع حين أدان مجمع خلقونونية ٤٥١م مذهب الطبيعة الواحدة المصري كان رد الفعل الوطني بإبطال التعامل باللغتين اليونانية واللاتينية واستبدالهما بالقبطية، ورفض الاعتراف بقرارات المجمع من جهة، ثم تمسك المصريين بمذهبهم وأسموه بالأرثوذكسية - وتعني المذهب الصحيح - فكان هذا المجمع بمثابة الشرارة ولظهور شخصية الكنيسة القبطية المستقلة^(٤).

(١) "هي مبدأ صوفي تزعم أنها المثل الأعلى للمعرفة، وترجع بأصلها إلى وحي أنزله الله منذ البدء وتناقله المريدون سرا"، يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٣، ص ٢٣٤.

(٢) نجيب بلدي: تاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٨٠: ٨٣.

(٣) متي المسكين: القديس اثناسيوس الرسول ... سيرته ودفاعه عن الإيمان ضد الأريوسيين ولاهوته، وادي النظرون، مطبعة دير القديس انبا مقار، ١٩٨١.

(٤) Hardy: Christian Egypt, New York, 1952, 114-115/

ولقد بلغ من قوة الكنيسة المصرية وشدتها وتمسكها بمبادئها أن سعى كثير من الأباطرة لاستمالتها وكانت آخر المحاولات هي محاولة "هرقل" في القرن السابع أن يخترع مذهباً توفيقياً يقضي على الخلاف بين المذاهب وحاول نشره في مصر فرفض بطريرك مصر "بنيامين" وأضطر للفرار حتى إعادته "عمرو بن العاص" مكرماً للكنيسة بعد فتح العرب لمصر^(١).

الرهبة والديرية: وكانت آخر السمات العامة للحياة الدينية المسيحية هو ما ابتدئته مصر كوسيلة لمقاومة الاضطهاد الديني وهو الفرار بعقيدتها إلى الصحارى وتأسيس الرهينة التي أخذت عنها إلى سائر أنحاء العالم المسيحي بعدئذ، فكان نظام الزهد والتسك وهي البصمة المصرية الخاصة في كل الديانات والتي عرفوها منذ عبادة سيرابيس عند الفراعنة، فقامت الرهينة المسيحية كنوع من التسك والانفراد والانعزال بغرض العبادة على يد الزهاد المصريين الأوائل "أنطونيوس"، "باخوميوس"، "مكاربيوس" الذين أسسوا دعائمها فكانت أولاً في صورتها الفردية ثم الجماعية - الديرية - حتى انتشرت الأديرة المصرية في أنحاء البلاد ثم غدت منذ القرن الرابع الميلاد مراكز تاهيلية وإنتاجية كما سارت أيضاً جامعات لراغبي العلم والدراسة في كافة العلوم فحفظت التراث الإنساني للمصريين وكان للرهبان الفضل في نسخ نفائس الكتب وأندرها^(٢).

وكان كثرة ما لاقاه المصريون من اضطهادات دينية ثم مذهبية سبباً وراء الاستبسال في تمسكهم بكنيستهم ومذهبهم واعتبروها الجامع لقوميتهم، فجعلوا الصلوات، والعبادات بها بلغتهم القبطية وجعلوها مركزاً لأول مدرسة تبشيرية لمقاومة الثقافة الهلينية، كذلك ما يعلمون فيها من مبادئ ديمقراطية في اختيارهم لرجال الكنيسة بداية من البطريرك نفسه ثم مبادئ الرحمة والمساواة التي افتقدوها في حياتهم السياسية كل ذلك زاد من تمسكهم بكنيستهم، حتى بدت رمزاً للاستقلال القومي لأبنائها في غياب الاستقلال السياسي وصار لرعائتها دوراً مؤثراً حتى على الأباطرة أنفسهم فتعصب المصريون لكنيستهم واستعادوا بها مكانتهم العلمية والفكرية في مؤسساتها التعليمية وإسهامات علمائها^(٣).

وكل هذه الأصول وبخاصة الدينية انعكست على التربية والتعليم في تلك الفترة وظهرت في توجيه التربية وصياغة أهدافها.

(١) Munier : op. cit., pp. 50-51.

(٢) حكيم أمين: دراسات في تاريخ الرهينة والديرية المصرية، مع دراسة مقارنة رهينة وادي النطرون حتى الفتح العربي، القاهرة، مطبعة رمسيس، ١٩٦٣، ص ١٧ وما بعدها.

(٣) نجلاء حامد: مرجع سابق، ص ٧٦: ٧٨.

أهداف التربية:

وسيمت الاقتصار هنا على الأهداف الخاصة بالمؤسسات التعليمية الدينية، حيث أن الأهداف الخاصة بالمؤسسات الهلينية تم ذكرها في الفصل السابق.

نبع هدف التربية القبطية من الديانة المسيحية نفسها، وهو هدف علم للتربية في كافة الأديان السماوية نشأ من مفهوم استخلاف الإنسان في الأرض ليعبد الله ويحفظ وصاياه حتى يحظى بنصيه في السموات^(١).

ومن هذا المنطلق أصبح غرض التربية في المسيحية هو العمل على تحقيق التكوين الديني للفرد المؤمن، وهو التكوين الذي لا يتحقق إلا عن طريق تعليم الفرد كيف يعبد الخالق كما يجب عن طريق استخدام العلوم والمناهج التي تساعد على تجديد سلوكه الروحي^(٢).

وحتى يتجدد السلوك الفردي ليغدو سلوكاً روحياً، فإن الأمر يتطلب تدريباً قوياً لإرادته، وهو ما يتم بالتعليم الروحي الخالص الأمر الذي يستتبع وقتاً طويلاً لتحقيق البناء الروحي السليم والذي لا يأتي بوسائل التربية العقلية العادية المعروفة وإنما عن طريق الوظيفة التربوية للكنيسة^(٣).

وتحقيقاً لهذا الهدف بدأت الكنيسة القبطية في مصر البيزنطية في تشييد مؤسساتها الخاصة التي عملت من خلالها على نقل الفكر الديني والروحي لتلاميذها، في مقابل التعليم الكلاسيكي الهليني الذي كان راسخ القوي، بل وسعى أساتذة هذه المؤسسات وعلمائها إلى الوصول لمحاولات توفيقية للربط بين الفلسفة الكلاسيكية وبين التعليم الإيماني لمدارسهم مستخدمين من الفلسفة وسيلة للدفاع عن الإيمان. ولذلك تركت الكنيسة لأبنائها الفرصة كاملة لدراسة كل فروع المعرفة حتى ولو كانت يونانية أو إنسانية روحية وعلمية وهو الوضع الذي استمر قائماً حتى حلول القرن السادس الميلادي^(٤).

ولعل ما سبق يوضح أن الخطة المزدوجة في التربية ظلت قائمة في تلك الفترة أيضاً، فقد استمرت المؤسسات الهلينية تلبية لأهداف ثقافتها، واستجدت إلى جوارها المؤسسات الدينية المسيحية التي اتخذت من دينها معيناً للتربية والتعليم. فضلاً عن وجود مؤسسات أخرى وهي مؤسسات

(١) Brubacker: Modern Philosophies of Edu. 2nd ed., New York, 1950, p. 293.

(٢) Tadros (F. R.): Lecture in Patrology the school of Alex. Before Origen, Jersey City, St. Mark Orthodox Church, 1995, p. 12.

(٣) العهد الجديد: رسالة القديس بولس إلى كنيسة أفسس، الفصل الثاني.

(٤) انطون فهمي: التربية عند آباء البرية، القاهرة، الانبارويس، ص ص ٢٠: ٢١، ٢٤.

التعليم الحرفي التي هدفت لحفظ التراث الثقافي المصري وتحقيق وإنتاج لوازم الحياة المعيشية في البلاد.

ونظراً لازدحام مدينة الإسكندرية العاصمة الثقافية العالمية بطلاب من كافة أرجاء العالم يمثلون كافة الأجناس والديانات والثقافات فقد ازدهرت فيها المناقشات والحوارات العلمية، وساعد على ذلك توفر نوعين من المؤسسات الوثنية الهلينية والدينية القبطية جنباً إلى جنب في كافة أنحاء الإسكندرية مما ساعد على حدوث إنماج وتمازج حضاري وفكري وثقافي، إلا أنه رغم ذلك ظل معظم أهل البلاد على أميتهم يحفظون تراثهم فيما أبدعوه من حرف وفنون.

المؤسسات التعليمية الهلينية ومرآحليها:

- مرحلة التعليم الأولى: وقد استمرت في المدرسة الأولية كما كانت عليه في العصر اليوناني الروماني - تقدم مبادئ الثقافة الإغريقية من نحو وقراءة وكتابة وحساب وغيرها - حتى ما بعد القرن الخامس الميلادي يتعلم فيها إغريق مصر ورومانها بالإضافة إلى أقباطها أيضاً حيث كانت هي المدارس السائدة إلى أن بدأت الكنيسة في الانتباه لضرورة إنشاء مدارس أولية مسيحية لتعليم أبنائها مبادئ القراءة والكتابة بدلاً من مدارس التراث الوثني، ولعل ما يدل على استمرار تلك المدارس هو ما درج عليه المسيحيون من إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس للاستفادة من الثقافة الكلاسيكية، حتى أن بعض رجال الدين المسيحي درجوا على إرسال تلاميذهم للتعليم فيها كما فعل البطريرك اليكساندروس حين أرسل تلميذه اثناسيوس للتعلم في إحداهما، فظل الوضع قائماً حتى كان مجمع قرطاج ٤١٩م والذي قضى بإنشاء مدارس كنسية خاصة يديرها رجال الكنيسة لتعليم أطفال المسيحيين^(١).

- مرحلة الثقافة العامة (المدرسة الوسطى): والتي تمثلت - كما سبقت الإشارة في الفصل السابق - في مدارس خاصة أو مؤسسات الجيمناسيون وكانت تركز على الدراسات الأدبية والعلوم الرياضية - والريثورية فضلاً عن الرياضات المختلفة في مؤسسات الجيمناسيون، وفيما يتعلق بمؤسسات الجيمناسيون فإنه من المؤكد أنها استمرت حتى القرن الرابع تقدم دورها كما أشارت الوثائق وأنه لم يعد يسمع عن دورها التربوي في العصر البيزنطي، بينما استمرت المدارس الموازية تؤدي دورها في حفظ الثقافة الهلينية وتخرج الباحثين للدراسات العليا

(١) Jones, op. cit., V. 2, p.99F.

فيما بعد حيث أن من الثابت استمرار المدارس العليا وعلماؤها إلى نهاية القرن السادس على الأقل^(١).

- مرحلة التعليم العالي (في الأكاديمية): سبقت الإشارة إلى المكانة المتميزة التي حظت بها جامعة الإسكندرية بمؤسساتها في العالم الهليني. طوال العصر اليوناني - الروماني ولعل ما يؤكد على استمرار دورها حتى العصر البيزنطي هو ما أشارت إليه الدراسات بدخول الفلسفة إليها على يد مدرسة الأفلاطونية الحديثة، ثم انتشار العلوم التجريبية كالتطب والفيزياء وبخاصة مع القرن الرابع^(٢).

كذلك وعلى الرغم من الثابت من اندماج مدارس الموسيون داخل السيرايبون بعد زمن الإمبراطور ثيودوسيوس والذي أمر أيضاً بتدمير معبد السيرايبون عام ٣٩١م والذي احترقت داخله المكتبة الصغرى نتيجة للنزاع بين الوثنيين والمسيحيين، فإن الثابت أن المدارس الخاصة التي أسسها علماء هذه الجامعة ظلت تعطي ثمارها في كافة العلوم التي تميزت بها جامعة الإسكندرية، حتى أن المسيحيين أنفسهم ورغم تأسيسهم لمدرستهم الكبرى قد استفادوا من علوم تلك المؤسسات وعملوا على استخدامها للدفاع عن المسيحية على يد عمداء المدرسة المستتيرين ككليمنس الإسكندري وأوريجينيس ممن مزجوا الفلسفة بالفكر المسيحي^(٣).

وعلى الرغم من تدمير السيرايبون إلا أن دوره العلمي استمر في مدارس العلمية على يد علمائها، وأن تم ذلك بصورة محدودة ودرجات متفاوتة بين القوة والضعف حتى القرن السابع الميلادي، وساعد على ذلك ظهور المدارس الخاصة لهؤلاء العلماء والتي وإن أصبحت تخضع رسمياً لإدارة مسيحية من قبل الإمبراطور والمدينة إلا أنها لم تكن تابعة للكنيسة بحال من الأحوال، وضمت تلك المدارس علوم الفلسفة والنحو والطب والنقد والتحق بها عدد كبير من الطلاب المسيحيين والوثنيين على السواء مما أشعل المنافسة العلمية بين الفريقين^(٤).

ولعل الملفت للنظر في تلك الفترة أن الثقافة الهلينية لم تعد قاصرة على الإغريق أو مواطني الإسكندرية وإنما أصبحت متاحة للجميع حتى صعيد مصر والذي أظهر علماء مثل الفيلسوف هورابوللون والذي كان

(١) Bell: Hellenic Culture, op. cit., p. 153: 154.

(٢) بلتر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، ج٢، القاهرة، دار الكتب، ١٩٨٩، ص ٣٥٢-٣٥٣.

(٣) Matter: op. cit., V. 1, pp. 321-322, 333.

(٤) Parson: op. cit., pp. 367- 369.

رئيساً للمدرسة الوثنية في النصف الثاني من القرن الخامس وكان والده أستاذاً بها من قبل^(١).

وكانت أهم المجالات العلمية التي ظلت متألقة بفضل هؤلاء العلماء هي الفلسفة والتي أخذت في الازدهار نظراً لاهتمام علماء الكنيسة بها، وقد بلغت شهرة مدارس الفلسفة المصرية أقصاها حين أغلق الإمبراطور جستنيان مدارسها في أثناعام ٥٢٩م فرحل علماؤها وتلاميذها للإسكندرية التي أصبحت حصناً لهم وملاذاً لراغبيها^(٢).

كذلك ظلت أسماء علمائها ذائعة حتى القرنين الخامس والسادس في أنحاء العالم القديم، فمنهم الفيلسوف ثيون وابنته هيباتيا عالمة الفلسفة والرياضيات وأوريون وهيسيخيوس في المعاجم وثيو دوثيوس السكندري في النحو فضلاً عن كل من باسيليكوس وسرجيوس وهيرون وأتيكوس وجونفيلوبونوس في الطب^(٣).

هذا فضلاً عن بعض المعارف والعلوم الأخرى التي جذبت الطلاب لدراستها ولاسيما من فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى فنجد الفقه والأدب والشعر والطب والفلك والتنجيم وعلم البلدان لضرورته للتجار والرحالة (الجغرافيا) فنجد العالم الجغرافي كوزماس كما نجد يوحنا النقيوسي المؤرخ الكبير الذي عاصر فتح العرب لمصر وأرخ له^(٤).

ولا شك في أن المكتبات الخاصة ظلت تقدم دورها التعليمي في تلك الفترة نظراً لانتشارها في أرجاء المجتمع المصري قد ساهمت بدرجة كبيرة في حفظ التراث الهليني حتى نهاية العصر البيزنطي، وقد احتوت على نفائس الكتب والمجلدات والتي كان يقوم أصحابها بإتاحتها لطلاب العلم وراغبي القراءة، كما سمح لهم باستعارتها ونسخها أيضاً، هذا فضلاً عما كان يقام في منازل أصحاب هذه المكتبات من ندوات ومناظرات علمية، وكان من أشهر أصحاب تلك المكتبات في تلك الفترة الجغرافي الشهير كوزماس، والذي زار

(١) Bell: Hellenic Culture, op. cit., p. 154/

وقد أورد سيادته ما ذكره هذا الفيلسوف عن حياته العلمية كأستاذ في جامعة الإسكندرية ودور أبيه كأحد علماء الموسيون المشهورين.

(٢) Matter: op. cit., p. 332.

(٣) مايرهوف: من الإسكندرية إلى بغداد، بحث في التعليم الفلسفي والطبي عند العرب، إحدى دراسات مجموعة من المستشرقين جمعها وترجمها عبدالرحمن بدوي: بعنوان: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، القاهرة، النهضة المصرية، ص ٤١-٤٤.

(٤) Hardy: op. cit., p. 167.

مكتبته عديد من العلماء كالرحالة المشهور يوحنا موسخوس وتلميذه سوفرونوس الدمشقي وكتبوا عنها^(١).

وقد أشار ونتر إلى انتشار تلك المكتبات في أرجاء القطر المصري كالبهنسا وAntinopolis وغيرها وعن تنوع مقتنياتها في الأدبين اليوناني والروماني، كما أشاد بكثرة النساخ والوراقين ممن ساهموا في انتشار الكتب للراغبين^(٢).

رغم الدور الذي مثلته تلك المؤسسات الهلينية إلا أنها بدأت في الضعف كلما أخذت الثقافة المسيحية في القوة وهو الدور الذي ظهر جلياً في مؤسساتها العلمية ذات الهدف التربوي الواضح والتي تمثلت في الآتي:

ب- المؤسسات التعليمية الدينية المسيحية ومراحلها:

لقد كان التعليم الديني يسير جنباً إلى جنب مع التعليم الهليني رغم انفصاله عنه من الهدف والفكر، وكان يقوم به رجال الدين ولم يكن هناك ما يمنع من وجود عنصر ربط بينهما يسمح بالخروج من التعليم الهليني بما يفيد رجال الدين في عمليات الرد على المعارضين.

وقد تميز التعليم الديني في العصر البيزنطي بوجود ثلاث مراحل تعليمية تقدم في المؤسسات الدينية وهي: مدارس مرحلة التعليم الأولى - مدارس التعليم العالي - التعليم داخل الأديرة.

مدارس التعليم الأولى: وهي المدارس التي كانت تقدم المعارف الأولية بالديانة المسيحية وقد انقسمت إلى مؤسستين وهما: المدرسة الأولية لتعليم الأطفال - مدارس الموعوظين للكبار.

المدرسة الأولية لتعليم الصغار: في بداية الأمر كان الأطفال المسيحيون يتعلمون في المدارس الهلينية الوثنية حتى بدأ رجال الكنيسة يشعرون بالخطر من تأثير مناهج تلك المدارس على عقيدة أطفالهم فبدأ التفكير في إنشاء مدرسة مسيحية لتعليم الأطفال من ناحية ومن ناحية أخرى تساعد على تدعيم الإيمان وحمايته^(٣).

وكان إنشاء أول مدرسة مسيحية على يد القديس مارمرقس نحو عام ٥٨م لتعليم المصريين المسيحيين حقائق الدين الجديد، إلا أنها لم تكن خاصة

(١) Roberts (C. H.): A Latin Parchment from Antinoe, aeg. XIII, 1935, pp. 300-301.

(٢) Winter, op. cit., p. 65.

كذلك أورد كنيون عدد من البرديات التي اكتشفت وترجع للقرن السادس وأكدت على استمرار دور هذه المكتبات في حفظ الثقافة الهلينية حتى أخذ عنها العرب العديد من العلوم والمعارف.

Kenyon (F.): The Library of a Greek of Oxy., J. E. A., V. 8, pp. 17-18.

(٣) Marrou, op. cit., p. 425.

بالأطفال فكان يلتحق بها الكبار والصغار مما استوجب وجود نوع من التنظيم دفع بعمداء تلك المدرسة لتحويلها لأكاديمية للتعليم العالي، وتأسيس مدارس للأطفال تلحق بالكنائس لتقوم بتعليم مبادئ الدين الجديد للأطفال المسيحيين^(١).

فبدأ ظهور تلك المدارس مرتبطة بالكنائس وكانت في صورة بسيطة للغاية لتعليم الأطفال في الريف والمدن – فكانت أقرب ما تكون في الشكل للكتاب في العهد الإسلامي – ثم أخذت في التنظيم قرناً بعد قرن حتى وضحت مناهاجها في القرن الرابع حين ألحقت بالأديرة^(٢).

ولقد كان تعليم الأطفال في تلك المرحلة غير خاضع لتحديد سن معين، وإن كان يبدو أن المسيحيين حرصوا على إرسال أبنائهم إليها في سن مبكرة، كذلك لم تتحدد لها مدة دراسية معينة لانتهاء منها وإنما توقفت على استعدادات وقدرات كل تلميذ، كما كان التعليم فيها مجانياً وإجبارياً – لأول مرة في التعليم المصري – حيث كانت تعتمد في تمويلها على منح وعطايا المسيحيين^(٣).

أما عن مناهج تلك المرحلة فقد كان التلميذ يدرس الكتاب المقدس والتي يحتمل أنها كانت تستخدم كنوع من التربية الأخلاقية – هذا بالإضافة لبعض العلوم والمعارف العامة كاللغوية والرياضيات والحساب، ثم أضيفت إليها القبطية بعد ذلك وبهذا فقد قدمت نوعاً من التعليم المتميز جمع بداخله العلوم الدينية والعقلية معاً^(٤).

وكان أكثر ما ميز تلك المدرسة هو ما حققته من مبادئ المساواة فكانت تستقبل الأطفال من الجنسين الأغنياء والفقراء معاً دون فرق بين طبقة أو جنس أو عقيدة أو عمراً أو ثقافة^(٥).

مدارس الموعوظين: تم إنشاء مدارس حديثة العهد بالمسيحية – الموعوظين – للكبار كنتيجة للحاجة الملحة لأن يندمج هؤلاء في تعاليم الدين المسيحي، حيث كان معظمهم يرجع لأسر وثنية ولم يتلقوا تعليماً مسيحياً أولياً، وبالتالي يجهلون أصول الإيمان فكان على الكنيسة أن تقوم بتعليمهم قبل تعميدهم^(٦).

(١) انطون فهمي جورج: مرجع سابق، ص ص ٢٤-٢٧.

(٢) Coptic Ency., V. 1, p. 931/

بول منرو: الموجز في تاريخ التربية، ترجمة عبدالعزيز صالح، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٤٩، ص ص ٢٣٠-٢٣١.

(٣) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ص ١٩٥-١٩٦.

(٤) Buching (S): Christian Edu. Texts from Egypt: A Preliminary Inventory, Archiv Fur papyrusforschung, Beiheft 3, 1997, pp. 132-138.

(٥) أمين الخولي وآخرون: مرجع سابق، ص ٢٤٤.

(٦) بول منرو: مرجع سابق، ص ص ٢٣٠-٢٣١.

بدأت المدرسة داخل مدرسة الإسكندرية وضمت طلاب العماد ممن كانوا وثنيين أو يهود فتحت أبوابها للجميع بصرف النظر عن عقائدهم وثقافتهم أو مراكزهم الاجتماعية وحتى أعمارهم، ثم ألحقت بعد ذلك بالكنائس حيث وضع نظام تعليمي خاص للراغبين في الدخول في الإيمان، وتحددت مدة التعليم الوعظي بها من عامين إلى ثلاثة^(١).

وكان هذا النوع من التعليم خاصاً بالشباب ممن يتدربون كموعوظين، في حين تم تخصيص دراسة أخرى لمدة أربع سنوات - في نفس المدارس - للأطفال من الأسر المسيحية حديثة الإيمان كمستمعين لسماع العظات والقراءات^(٢).

وبالنسبة للمناهج في تلك المرحلة فقد كان الواعظ يتدرج بين ثلاث مراحل وهي الاستفسار - الاستماع - التأهيل للعماد، حتى تتحقق الكنيسة من أن يصبح أعضاؤها من الموعوظين على درجة من المعرفة بحقائق الإيمان^(٣).

وكان تعليم الموعوظين يتم عدة مرات أسبوعياً داخل رواق الكنيسة ويتم خلالها التعليم والتربية الخلقية والتدريب على الحياة النسكية، وكان رجال الأكليريوس المتقدمين في السن والحكمة كما حددهم القديس بولس هم من يتولون تلك المهمة التعليمية^(٤).

واستمرت تلك المدارس في إعداد الراغبين في الدخول للكنيسة حتى استقرت أركان المسيحية في القرن الخامس وقضى على الوثنية، فلم تعد هناك حاجة لهذا النوع من المدارس والتي استبدلت فيما يعرف بمدارس الأحد والقائمة حتى الآن في سائر أنحاء العالم المسيحي^(٥).

مدارس التعليم العالي: (مدرسة الإسكندرية اللاهوتية): كان من المنطقي أمام قوة أكاديمية الإسكندرية الوثنية العلمية أن تسعى الكنيسة لإقامة مدرسة عليا تستطيع مواجهة فكر الأكاديمية، فأقامت مؤسسة كنيسة بمثابة أكاديمية بحثية عرفت بالديداكاليا أو الكاتشيتيكس لتلقين مبادئ الدين المسيحي وتعالمه، وهي المؤسسة التي تمكنت بفضل علمائها من أن تبلغ شأواً كبيراً في العملية التعليمية في مصر في العصر البيزنطي، حيث أصبح خريجياً

(١) البابا شنودة: سلسلة آباء الكنيسة، القاهرة، دار فيليبوترون للنشر، ١٩٩٢، ص ١٠/ وقد تم تحديد فترة الدراسة وفقاً لما حدده القديس بولس لنفسه من فترة اعتزال للتعلم رسالة القديس بولس إلى كنيسة غلاطية، الكتاب المقدس، الفصل الأول: ١٧، ١٨.

(٢) انطون فيهي جورج: مرجع سابق، ص ص ٣٠-٣١.

(٣) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ص ١٩٨-١٩٩.

(٤) رسالة القديس بولس إلى تلميذه تيموثيوس، الكتاب المقدس، فصل ٥: ١٧.

(٥) Tadros, op. cit., p. 288.

باباوات الإسكندرية هم أنفسهم قادة المجامع المسكونية في العالم المسيحي وقتئذ^(١).

وكان ما دعى لإنشائها هو رغبة رجالها في مواجهة التحديات الفكرية الوثنية والهرطقات من ناحية، فضلاً عن الرغبة في وضع أسس منهجية ليتدرب عليها المسيحيين الداخلين في المعمودية هذا بالإضافة للضرورة الملحة لوجود مؤسسة علمية عقلية لاهوتية لديها القدرة على إشباع حاجات المسيحية العلمية والثقافية في مدينة من أرقى المراكز العلمية في العالم الإسكندرية^(٢).

وتم تأسيس تلك المدرسة على يد القديس مرقس في النصف الثاني من القرن الأول — بداية — كمدرسة للموعوظين بصورتها البسيطة ثم أخذت في التطور حتى غدت أكاديمية علمية كبرى منذ نهاية القرن الثاني بفضل مديريها وعلمائها بانتيوس وكليمنتس وأوريجينيس^(٣).

كان أول مركز للمدرسة في بيت انيانوس اليهودي أول من دخل المسيحية بالإسكندرية في صورة بسيطة ثم استقلت عن مدرسة الموعوظين — التي ضمت للكنايس — حتى غدت مع القرن الثالث أكاديمية كبرى، إلا أنه لم يكن لها مركز بنائي واحد بسبب اضطهاد الأباطرة، وإن اقتترنت بصورة رئيسية بأستاذتها أينما وجدوا وليس بمبنى ما، فكان يقال مدرسة أوريجينيس مثلاً، وقد فتحت تلك المدارس لكل راغب سواء أكان مسيحي أو وثني وبلا أجر^(٤).

أما عن مناهجها فقد بدأت بسيطة اقتصر على علوم الكتاب والترانيم ودراسة تعاليم الرسل ولم يتعدى دور المعلم — حينئذ — أن يكون واعظاً ومرشداً، ثم نتيجة لانتقادات الفلاسفة الوثنيين ممن درسوا الكتاب المقدس لها ولما عثروا عليه من بعض المتناقضات بين العهدين أن قام علماء المدرسة إلى مناقشتهم ومحاورتهم بوسائل علمية نتج عنها تطوير المناهج ودخول العلوم الفلسفية والأدبية والأخلاق والقانون وحتى المنطق والرياضة والخطابة والطب بعد ذلك^(٥).

(١) The Coptic Enc.: op. cit., V. 1, p. 931.

(٢) Marrau: op. cit., p. 427/

(٣) Tadros: op. cit., p. 10.

(٤) Alfonsi Luigi: Didaskaleion Cristiano Egypt, v. LVI, Aeg., Milano, 1976, pp. 101-102.

(٥) يوسف كرم: مرجع سابق، ص ٢٦٩.

وكان للمعلم في تلك المدرسة الحرية في اختيار المنهج والأسلوب وإن غلب عليها طريقة المناقشة والسؤال والجواب كالطريقة الهلينية للقديمة^(١).

كذلك كان يقدم بها إلى جانب المناهج الدينية والعقلية مناهج خاصة بالسلوك الروحي والخلقي للمسيحيين وكانت تتم بطريقة الممارسة كالصوم والعبادات، يمثل المعلمون فيها القدوة الصالحة لتلاميذهم^(٢).

وقد تمكنت تلك المدرسة من قوة هدفها ووضوح منهجها من أن تنتشر نماذج لها في أنحاء العالم المسيحي القديم في انطاكية وبيروت وروروس وميلانو وروما ومارسيليا واثينا وغيرها، التفت بأكملها حول مدرسي الإسكندرية وعلمائها. باعتبارها المدرسة الأم - وهو الوضع الذي ساعد على انتشار الرحلة العلمية كأسلوب للطلاب بين أرجاء تلك المدارس للأخذ على أساتذتها ناقلين معهم الأفكار والمناقشات مما أثرى الدراسات الدينية بين تلك المؤسسات^(٣).

ويرجع فضل تلك المدرسة على العالم المسيحي في مقاومة البدع، وفتح أفق التعليم للجميع دون تفرقة، كذلك ما منحته لأساتذتها من مكانة سامية لدورهم في المجامع الكنسية وأثرها على العالم المسيحي، فضلاً عما أسهمت به من إخراج علماء مسيحيين في المجالات العلمية المختلفة كجالينوس^(٤) في الطب و"هيرون" في التشريح وغيرهم^(٤).

التعليم بالأديرة: لم يكن التعليم الديني قاصراً على الكنائس ومدارسها فقط، بل امتد أثره إلى الصحراء والتي لعبت دوراً كبيراً في العملية التعليمية ولا سيما في القرن الخامس الميلادي حين أمر مجمع خلقدونية ٤٥١م بغلق مدرسة الإسكندرية فانتقلت بعلمائها إلى دير الأنبا مقار بوادي النطرون، مما يوضح سبب مكانته المميزة في العالم المسيحي حيث تخرج منه ٥٢ بطرك من بطاركة الكنيسة القبطية من إجمالي ١١٧ بطريركا حتى اليوم^(٥).

قامت الرهينة في بداية الأمر على نظام التوحيد على يد القديس انطونيوس - كما سبقت الإشارة - ثم عرفت نظام الجماعة مع باخوميوس الذي أسس نظام الديرية - الرهينة الجماعية، وهو القديس الذي أشار

(١) Hardy: op. cit., p. 13.

(٢) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٣) زكي شنودة: مرجع سابق، ص ١٣.

(٤) Delacy (O.): How the Greek Science Passed to the Arabes, London, 1952, p. 92.

(٥) زكي شنودة: المرجع السابق، ص ١٢٠.

لضرورة القضاء على الأمية عند راغبي الرهبنة لذا أرسل أوامره بأن تعلم القراءة والكتابة شرط لمن يرغب في دخول دير^(١).

وكان نتيجة لرغبة القديس باخوميوس في القضاء على الأمية أن ظهر نوعان من التعليم في الأديرة - جنباً إلى جنب، أولهما خاص بتعليم الأطفال، والثاني عبارة عن تعليم لاهوتي للرهبان وكاتبا كالاتي:

مدارس الأطفال: كان الدير الباخومي أول مؤسسة ديرية قامت بتعليم الأطفال داخل الدير وخارجه من القوى المحيطة واعتبروهم مبتدئي رهبنة وقد بدأت تلك المؤسسات في الانتشار، وضعت نظام تعليمي يستقبل الأطفال في سن السابعة لتلقي تعليماً علمياً وروحياً في آن واحد، حيث كان الرهبان هم من يتولون التدريس وهم في نفس الوقت كانوا بمثابة آباء روحيين لهم^(٢).

ولقد حرص المسئولون عن تلك المدارس على الدقة في اختيار المدرسين من أفضل الرهبان حتى يتمكنوا من اكتساب ثقة واحترام الأطفال وأسرهم ويكونوا قدوة لهم ومن أجل ذلك كان لا يسمح للراهب بالتدريس إلا بعد اجتياز عدة اختبارات تؤهله لذلك^(٣).

المدارس الرهبانية: وهذه المدارس أيضاً قامت نتيجة لرغبة القديس باخوميوس في القضاء على الأمية بين طلاب الفضيلة والحياة النسكية، وكذلك قام بتنظيم تلك المدارس وحدد الدراسة فيها في ثلاث سنوات يتم إعداد طالب الرهبنة فيها - سنوات التجربة - حيث يتعلم القراءة والكتابة على يد أحد الرهبان الأكفاء، كما وضع جدول للدراسة انقسم ما بين دروس يومية وأخرى أسبوعية محدداً ما يقدم فيها من أعمال زعماء المسيحية، وكان التعليم في هذه المؤسسة للرهبان والراهبات أيضاً ممن بلغ عددهم ٤٠٠ راهبة، يتلقين نفس الدروس بنفس النظام الباخومي^(٤).

وقد كان للأديرة فضلاً كبيراً في سيادة اللغة القومية والذي ظهر أولاً في أديرة شنوده الأخميمي - غرب سوهاج - والذي أضاف بجانب التعليم الديني والأدبي والثقافي للرهبان والراهبات دروساً في اللغة القبطية، وقد كان هو نفسه صاحب فضل في تخليصها من التأثيرات البيزنطية كما كان من أفضل من كتبوا بها^(٥).

(١) Machean: op. cit., p. 65.

(٢) George Sobhy, op. cit., p. 114.

(٣) انطون فهي جورج: مرجع سابق، ص ١١٦: ١١٧.

(٤) عزيز سوريال: الرهبنة القبطية، رسالة تصدرها جمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية،

٢٢ مايو ١٩٤٨م، ص ١٧٠.

حكيم أمين: مرجع سابق، ص ٢٧.

(٥) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٢٢٩-٢٣١.

كذلك يرجع الفضل للأديرة في إثراء العلوم والآداب، لما تمتعت به من مكتبات ثرية بنفائس الكتب - وبخاصة أديرة وادي النطرون - فمكنت الراغبين في البحث من الوقوف على علوم اللغة والرياضيات والهندسة والطب والقانون والفلك والزراعة فضلاً عن الآداب اليونانية والقبطية وكان للمناقشات والمناظرات بين الرهبان أكبر الأثر في إثراء الحياة الفكرية والثقافية فيها^(١).

ولقد ساهم النساخ من الرجال والنساء في ازدهار مكتبات الأديرة، فضلاً عما أسهم به المترجمون من دور في إثراء قواعد اللغة القبطية بترجمة المعارف والآداب إليها ولعل أفضل ما ترجم إليها كان ترجمة التوراة السبعينية من اليونانية للقبطية^(٢).

وبالإضافة للإنجازات التعليمية للأديرة كان لها فضلها كذلك في نشر العبادات النسكية في العالم، كما كان لها الفضل في مزج العلم بالدين، فضلاً عما ساهمت به مكتباتها من دور في إثراء العلم والثقافات^(٣).

ومما لا شك فيه أن أديرة صحراء مصر كانت جامعة لكل أبناء مصر ينهلون من ثقافة ومعارف رهبانها، كما كانت مركز حفظ الحضارة والفنون المصرية الأصيلة، وظلت مركزاً تعليمياً وفنياً طوال العصر البيزنطي وإلى ما بعد الفتح العربي، والذي شعر معه أقباط البلاد بالاستقرار فظلوا يمارسون علومهم لما بعده بقرنين من الزمان حتى انتقل الزمام العلمي للعرب^(٤).

وبالإضافة إلى مؤسسات التعليم الهليني والتعليم الديني المسيحي وقفت إلى جوارهما مؤسسات تعليمية أخرى حفظت التراث الفني المصري على مر العصور وهي مؤسسات التعليم الحرفي، لذا كان من المنطقي أن نشير إلى دورها الهام والذي لم يخمد في عصر من العصور. مؤسسات التعليم الحرفي: وهي المؤسسات التي اقتصر على المصريين وحافظوا من خلالها على الفنون - كالنحت والزخارف والتصوير - والصناعات - كالمسوجات والحلي والزجاج وغيرها - والتي برع فيها المصريون وعرفت - بالفن السكندري - والذي امتزجت فيه فنون الحضارات الفرعونية والبطلمية والرومانية والقبطية معاً^(٥).

(١) George Sobhy: op. cit., pp. 116FF.

(٢) يسى عبدالمسيح: فهارس المخطوطات القبطية والعربية (الموجودة بالمتحف القبطي والدار البطريركية وأهم كنائس القاهرة والإسكندرية وأديرة القطر المصري)، ج ١، ١٩٣٩م، ص ٤٤.

(٣) حكيم أمين: مرجع سابق، ص ص ٢٩-٣٠.

(٤) George Sobhy: op. cit., p. 119.

(٥) بتلر: مرجع سابق، ص ص ٩٢-١٠١.

ولقد كان الحرفيون في ذلك العصر منتظمون داخل نقابات رسمية تضم حرف الرجال والنساء معاً وتتولى تسديد الضرائب عن أعضائها، وكان على من يمارسون مهنة واحدة أن يندرجوا في نقابتها ويلتزموا بتعليماتها والتي تشمل شروط مزاوله المهنة وما على أعضائها من خدمات إلزامية للدولة فظل هذا النظام حتى تغير اسمه للطوائف في مصر الإسلامية فيما بعد^(١). وقد تمثلت تلك المراكز التدريبية الحرفية في:

١- البيوت. ٢- الورش. ٣- الأديرة.

١- البيوت: كان البيت منذ عهد الفراعنة هو المركز الأول للتدريب، كما كان يعد أول مصنع داخل القرى، حيث كان الأبناء يتوارثون حرف أبائهم^(٢). وقد كانت أهم الحرف التي تمارس في البيوت هي النسيج لتوفير احتياجات الأسرة أولاً وبيع ما يفيض، وقد ساعد انتشار النول اليدوي في الدور المصرية على أن تصبح معظمها مراكز للإنتاج وبخاصة في مصر الوسطى والصعيد^(٣).

ولقد كان التدريب في البيوت يتم عن طريق التقليد والممارسة فيبدأ الطفل في تقليد أبيه وأخوته حتى يتقن الحرفة، ومن ثم كانت البيوت تعتبر نموذجاً مصغراً للورش، وقد سمحت الدولة بالإنتاج الفردي في البيوت، وقد كانت الأسرة بأكملها تعمل معاً حتى العبيد بنفس الحرفة^(٤).

٢- الورش: لقد بلغت مصر شهرة بالغة في العالم البيزنطي بفنونها التي عرفت بالفن السكندري والذي شمل سائر المنتجات من فخار وزجاج وعطور وأخشاب وحتى الورق والمعادن والمنسوجات بكافة أنواعها. بفضل ورشها المتميزة^(٥).

وقد اعتمدت تلك الورش على العمال المدربين، وكانت أحياناً تدريبهم في وجود عقود ملزمة للطرفين يتحدد فيها نوع ومدة التدريب وشروط العمل

(١) زبيدة عطا: مرجع سابق، ص ٧٥-٧٦.

(٢) The Coptic Ency: op. cit., V. 1, p. 931.

(٣) الناصري: الناس والحياة في مصر، زمن الرومان في ضوء الوثائق والآثار (٣٠ ق.م- ٦٤١م)، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٩٥، ص ٢٧٥.

(٤) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٧٥.

(٥) Johnson: op. cit., pp. 112-114/

وحتى الأجر، وقد كانت مدد التدريب تتدرج من سنة إلى خمس حسب نوع الحرفة وذلك كما أوضحت البرديات المختلفة والخاصة بالتدريب الحرفي^(١). وقد كان معلم الحرفة - الأسطي - هو المسئول عن أمور المتدرب الصبي من طعام وكساء وأجر وفقاً لما تحدده النقابة من شروط وبخاصة سن التدريب^(٢).

وكان التدريب بالورش يتم بأسلوب التلمذة الصناعية بأن يزول الصبي المهنة كما يدربه عليها معلمه الأسطي حتى يجيدها، وبعد انتهاء فترة التدريب يقوم الأسطي بإجازته عضو في المهنة، ثم تقوم النقابة بعدها بمنحة تصريحاً لمزاولتها، وهو الوضع الذي استمر إلى ما بعد الفتح العربي للبلاد^(٣).

ومن الجدير بالذكر أن الطب كان يعد حرفة يتم التدرب عليها داخل أحد العيادات حتى يزكى للطبيب الأكبر هذا المتدرب لمزاولة المهنة وكان يكفي أي طبيب أن يذكر أنه تدرب على أحد أطباء الإسكندرية لتزكيته، كذلك كان هناك تدريب خاص للمرضات أيضاً^(٤).

٣- الأديرة: نظراً لمبادئ الحياة النسكية التي كانت تنادي بأن الكسول لا يأكل فقد تحولت الأديرة إلى مراكز إنتاجية كبرى تمارس داخلها كل أنواع الحرف والصناعات اليدوية، وغدت أديرة باخوميوس وشنودة من أكبر المراكز التدريبية فبرع الرهبان في صناعة النسيج والحصر والمقاطف والنجارة والحدادة وحتى صناعات الخبز والعجن فضلاً عن أعمال النسخ والكتاب أيضاً^(٥).

ورغم عدم وجود معلومات محددة عن نظام الإعداد الحرفي بالأديرة، إلا أنه كان على الطالب بعد انتهاء سنوات التجربة الثلاث أن يتعلم حرفة أو مهنة حتى يتقنها، وكان هذا التدريب إجبارياً يلزم فيه الطالب بعدد من الساعات اليومية، حتى يتحقق الاكتفاء الذاتي للأديرة، وقد كان لكل حرفة

(١) Westerman: *Apprentice Contracts and the Apprentice System in Roman Egypt*, Cl. Ph., V.LX, 1914, p. 296.

فالذي قدم في مقاله جدولاً يتضمن تواريخ عدد كبير من العقود في العصر الروماني شمل أنواع الحرف وسنوات التدريب وأسماء المتدربين أيضاً.

(٢) زبيدة عطا: مرجع سابق، ص ٧٧-٨٧.

(٣) Winter: *op. cit.*, pp. 71FF.

(٤) George Sobhy: *op. cit.*, pp. 118-119.

(٥) حكيم أمين: مرجع سابق، ص ١١١.

رئيس يشرف على العاملين فيها ويخضعون جميعاً لإشراف رئيس الدير نفسه^(١).

وقد قام القديس شنودة بتطوير التدريب الحرفي وأنشأ مدرسة للتدريب ملحقة بالدير وأضاف إليها الحرف الفنية كتحسين الخطوط ونسخ الكتب المقدسة لحفظ التراث، فغدت الأديرة على عهده شبه قرعة متكاملة الخدمات يعمل كل فرد فيها وفق قدراته^(٢).

ومما سبق يتضح وجود أنواع من المؤسسات عملت على تحقيق الأهداف التربوية في العصر البيزنطي، ولا شك أنها تميزت بأنواع مختلفة من المناهج وطرق التدريس وهو ما شتسى الدراسة لمحاولة إبرازه، مقتصرة على التعليم الديني حيث أن التعليم الهليني سبق الحديث عنه باستفاضة في الفصل السابق وذلك تجنباً للتكرار.

المناهج وطرق التدريس في المؤسسات الدينية:

وهي العلوم والمواد التي سعت الكنيسة المسيحية لاستخدامها داخل مؤسساتها التعليمية لتحقيق الإشباع الفكري والثقافي لأبنائها في مواجهة الفكر الهليني الوثني والتي انقسمت على النحو التالي:

* مناهج المرحلة الأولية (بالكنائس والأديرة):

١- مناهج المدرسة الأولية: بعد إنشاء المدرسة المسيحية لتعليم الأطفال، بدأت الكنيسة أولاً ثم الأديرة في وضع مناهج منظمة لتلك المدرسة، والتي اشتملت على علوم اللغة اليونانية والرياضيات والفلك والتاريخ وسير القديسين، ثم أضيف لها بعد ذلك قراءات في الإنجيل وتعلم المزامير واللغة القبطية والتي أصبحت فيما بعد هي لغة العلم والتعليم المسيحي، كذلك كانت الكنيسة تدرب الأطفال على الموسيقى لما لها من أثر روحي كبير على نفوسهم، فقدمت تلك المؤسسة الأولى للأطفال قدراً مناسباً من العلوم الدينية والعلمية معاً^(٣).

أما عن طرق التدريس في تلك المدارس فبالنسبة للعلوم العقلية استمرت كما كانت عليه في المدرسة الهلينية تعتمد على تحفيظ الأبجدية ثم كتاب الحروف فالمقاطع حتى تتم إجادتها قبل البدء في تعلم الكلمات.

(١) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٢٣٣.

(٢) حكيم أمين: مرجع سابق، ص ١١١.

(٣) Hardy, op. cit., p. 172.

أما علوم الرياضيات فقد اعتمدت على تدريب التلاميذ على بعض التمارين البسيطة في حساب المساحات والموازين كما كان عليه الحال في المدرسة الهلينية كذلك^(١).

أما عن تدريس العلوم الدينية فكان عادة ما يبدأ بتدريس مبادئ اللغة القبطية، وكان تعليمها يبدأ - كاليونانية - بالتدريب أولاً على هجاء الحروف وقرأتها ثم كتابتها، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة كتابة الكلمات والتي كانت عادة ما تتضمن قوائم من الأسماء أو القصص والتي تركز على مفردات تساعد في العناية بالقواعد النحوية^(٢).

وبعد ذلك تأتي مرحلة التدريب على القراءة وكان يستخدم فيها المعلم فقرات من الإنجيل أو تعاليم الرسل، كذلك كان يتم تدريبهم على إنشاد بعض المزامير الدينية لما كان يراه المعلمون من أثر الموسيقى الروحاني الكبير في نفوس التلاميذ^(٣).

ولقد كان المعلمون في تلك المرحلة يستعينون باستخدام القواميس القبطية اليونانية للربط بين معاني الكلمات في القبطية ولغة الثقافة الأولى - اليونانية^(٤).

وكانت تلك هي المناهج الرئيسية لتلك المرحلة - منذ بداية القرن الخامس - ومدارسها سواء التي ألحقت بالكنيسة أو الأديرة وهي النموذج الذي ساد العالم المسيحي وحتى بيزنطة نفسها قامت بنقلها عن مصر^(٥).

٢- مناهج مدارس الموعوظين: وهي المدارس التي اضطلعت بتعليم الراغبين في الإيمان قبل المعمودية، وقد اتخذت الكنائس نظاماً موحداً في تعليمهم وقد انقسمت الدراسة في تلك المدارس لثلاث مراحل وكان لكل منها مناهجها الخاصة فأما مرحلة الاستفسار، كان على الطالب أن يلم بالمعلومات

(١) Boak (A. E. R.): Greek and Coptic School-Tablets at the Univ. of Mich. Cl. Ph., XVI, 1921, pp. 120FF.

وقد أورد سيادته مجموعة كبيرة من البرديات الخاصة بتعليم اليونانية والقبطية التي تؤكد استمرار نفس الأسلوب التعليمي.

(٢) Klakowicz (B. F.): Coptic Papyri in the Palau - Ribes Collection, Studia Papyrologice, V. 20, (1981), pp. 33-47.

(٣) انطون فيي جورج: مرجع سابق، ص ٢٥/

وقد جاء في مقال هام عدد من البرديات التي اشتملت على نماذج من الترانيم التي كان يتم تعليمها في تلك المرحلة وما يليها.

Bagnall, (R. S.), Worp, (K. A.): Christian Invocations in the Papyri, Chr. D. Egy., V. 56, 1981, pp. 112-133.

(٤) وقام الأستاذ Crum بنشر نموذج لأحد تلك القواميس في كاتالوج الوثائق القبطية

Bill (W. E.), Crum: op. cit., pp. 177-226.

(٥) رانسيمان: مرجع سابق، ص ٢٧٠.

الأساسية عن المسيحية عن طريق التعليم الفردي باستخدام أسلوب السؤال والجواب عن طريق "اشبين" يتولى رعايته وإعداده وكان الطلاب في تلك المرحلة يقسمون صفوف - خوارس - كل حسب قدراته ومستواه الروحي^(١).

وحين يثبت الطالب كفاءته في تلك المرحلة كان ينتقل لمرحلة الاستماع، حيث يسمح له بدخول الكنيسة والاستماع للصلوات، ومواد تلك المرحلة تتضمن قراءات المزامير وسير الأنبياء وحضور قداس الموعوظين^(٢).

وبعد اتمام مرحلة الاستماع ينتقل الطالب لمرحلة العماد، والتي يتدرب فيها على طرق الصلاة الربانية ويدرس بها قانون الإيمان بالإضافة للسماح له بحضور القداس كاملاً، وكان يطلب من طلاب تلك المرحلة أن يجتازوا تدريباً على الحياة النسكية والفضائل وكان من يجتازه يحصل على المعمودية^(٣).

وكان أساتذة تلك المرحلة يختارون من حكماء رجال الكنيسة ممن عرف عنهم الخبرة والعلم - وفقاً للسمات التي اوصى بها القديس بولس - حيث كانوا يختارون من كبار الكهنة ممن أطلق عليهم اسم Catachistes^(٤). وقد استمرت تلك المدارس في أداء أدوارها حتى استقرت دعائم الديانة المسيحية وأصبحت الديانة الوحيدة في العالم الروماني، وغدت المبادئ الدينية تلقن بطريقة آليه من جيل لآخر، فلم يعد هناك الحاجة لوجودها فتم إغلاقها^(٥).

ثانياً: مناهج مدارس مرحلة التعليم العالي (المدرسة التبشيرية اللاهوتية):

وهي المدرسة اللاهوتية التي تولت عبء التعليم العالي - الجامعي - المنظم لتقف في مواجهة المؤسسات العلمية الوثنية الكبرى في الأكاديمية، لذا فقد تبنّت منذ القرن الثالث منهجاً تعليمياً نظامياً، تم تقسيمه إلى ثلاث مراحل رئيسية اشتقت علومها من الكتب الرئيسية الثلاثة للقديس كليمنس السكندري وهي "النصح للوثنيين" والثاني هو "المربي" وهو من أهم الكتب التي تحض على التعليم وأعلنت من شأن المربي أو المعلم، والثالث هو كتاب "المتفرقات" والذي يوضح الحياض والموضوعية العلمية للمؤلف والذي عسى

(١) سليمان نسيم: ص ٣٠، ١٩٨.

(٢) بول منرو: مرجع سابق، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٣) انطون فهي جورج: مرجع سابق، ص ٣١.

(٤) العهد الجديد: رسالة القديس بولس الأولى إلى تلميذه تيموثيوس، فصل ٥، ١٧.

(٥) Todros: op. cit., p. 288.

الرغم من أعلائه لقدر العلوم الدينية إلا انه أكد فيه على ضرورة الأخذ بالعلوم العقلية الوثنية كضرورة معيشية^(١).

ورغم مناهج القديس كليمنس إلا ان صاحب الفضل في أن تصبح تلك المدرسة أكاديمية للبحث العلمي كان راجعاً للقديس "أوريجينيس" الذي وضع لها مناهجها التي استمرت في العمل بها ومن ثم فقد قسم الدراسة والمناهج فيها لقسمين:

- قسم للمبتدئين تقدم فيه مواد دراسية مشابهة لتلك التي تقدم للطلبة الموعوظين والآخر قسم عالي لإعداد طلبة الكهنوت وتولى هو رئاسته ووضع له مناهجه^(٢).

وعن مناهج المرحلة العليا الخاصة بقسم الكهنوت فقد قسمت كالآتي: المرحلة الأولى: وكانت تدرس فيها كافة العلوم العقلية بغرض تنمية ملكات الطلبة وإشباع رغباتهم العقلية والثقافية وكانت تتم بنفس طرق أكاديمية الإسكندرية الوثنية وكان الطلبة يطالعون كتب تلك العلوم داخل المكتبات الوثنية نفسها^(٣).

المرحلة الثانية: وهي مرحلة دراسة الفلسفة والتي اتخذت كوسيلة للرد على الوثنيين وكانت تدرس فيها كافة المؤلفات الفلسفية وكان المعلمون يتولون تفسيرها لطلابهم عن طريق مناقشتها معهم^(٤).

وفي تلك المرحلة أيضاً كانت تتم دراسة الشعر، وقد كان دأب كافة علماء المدرسة جمع الأدب مع الفلسفة حيث كان معظمهم من الشعراء^(٥). المرحلة الثالثة: وهي مرحلة العلوم اللاهوتية، وكانت مناهجها تهدف إلى تعليم أصول العقيدة وشرحها عن طريق حفظ الكتاب المقدس والتسبيح والترتيل ودراسة تعاليم الرسل التي أكد عليها القديس "اثناسيوس" منذ القرن الرابع الميلادي^(٦).

وكان التعليم في تلك المرحلة يعتمد على استخدام المعلم للمنهج الجدلي في المناقشة، وهي طريقة تعليم الطلاب للمعاني المجردة كالخير

(١) الانبا غريغوريوس: اكلينخس السكندري: القاهرة، الكلية الاكليريكية اللاهوتية للقبط الأرثوذكسي، ص ١٢-١٥.

(٢) الانبا غريغوريوس: العلامة اوريجانوس: القاهرة، الكلية الاكليريكية، (دب)، ص ٦-٧.

(٣) Coptic, Enc., p. 100.

(٤) الانبا غريغوريوس: الفلسفة المسيحية الشرقية، ص ٥١.

(٥) البابا شنودة: سلسلة أبناء الكنيسة، ص ١١-١٢.

(٦) الانبا غريغوريوس: الفلسفة المسيحية، ص ٥١.

والشر والفضيلة، حيث تستمر المحاورات والمناقشات حتى يصل الطلاب لتلك المعاني^(١).

وبالإضافة للمنهج الجدلي استخدم الأساتذة كذلك طريقة جلسات البحث - السيمانار - كوسيلة لمناقشة المشكلات اللاهوتية والعلمية على حد سواء وللرد على المبتدعين مثلما حدث أثناء بدعة اريوس^(٢).
مناهج التعليم العالي بالأديرة:

وهي المراكز التي غدت بعد مجمع ٤٥١م بمثابة جامعة دينية تقدم كافة العلوم والمعارف لطلابها كأقرب ما يكون عليه الحال للنظام الموجود في الأزهر^(٣).

وانقسمت المناهج داخل الأديرة إلى مرحلتين وهما:
مرحلة الإعداد (سنوات التجربة) وهي ثلاث سنوات يتعرف خلالها الطالب على أصول الحياة الديرية ويتعلم على أحد شيوخ الدير مبادئ القراءة والكتابة ويقوم بحفظ عشرين مزمور ورسالتين من العهد الجديد^(٤).
مرحلة النسك: وتتضمن تمارين نسكية قاسية كالصوم والسهرة للصلاة بالإضافة إلى دروس عامة يومي الأربعاء والجمعة في العلوم الدينية والسير والتراجم والتاريخ والأدب واللغة القبطية كذلك^(٥).

وكان للتاريخ منزلة خاصة لدوره في تدوين سير البطارقة وتاريخ الكنيسة واشتهرت مدرسة التاريخ المصرية والتي كان من أهم معلمها "حننا النقيوسي" الذي دون تاريخ دخول العرب لمصر وكان معاصراً له^(٦).
كما كان لدروس الطب شأناً كبيراً في الأديرة المصرية واسهم الأطباء المصريون بالعديد من الإنجازات ووضعوا وصفاً لكثير من الأمراض^(٧).

ولقد ابتكر رهبان الأديرة طرق تعليمية متميزة لتحقيق رسالتهم التعليمية مع طلابهم كان منها الوسائل اللفظية (عامة وخاصة) وأخرى غير لفظية كالآتي:

(١) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٢) المرجع السابق: ص ٢١٧.

(٣) Machean: op. cit., p. 65.

(٤) سليمان نسيم: مرجع سابق، ص ٢٢٦.

(٥) حكيم أمين: مرجع سابق، ص ١٨١.

(٦) عمر صابر: مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغات الشرقية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨١، مقدمة الباحث محققة المخطوط.

(٧) مراد كامل: حضارة مصر في العهد القبطي، دار العالم العربي، القاهرة، (د.ت)، ص ١٠٠.

- التعليم بالوسائل اللفظية: الشفاهية والكتابية وكان يراعى فيها التدرج من البسيط للمركب ومراعاة قدرات كل متقدم لذلك نجد فيها طرق الوعظ والحوار أو التوبيخ أو النصح والإرشاد^(١).

- أما الوسائل غير اللفظية: فتتوعد أيضاً ما بين التعبيرات الصامتة للآباء أو القدرة الشخصية للمعلم في زيه وسلوكه وغيرها^(٢).

وهذه المناهج وطرق التدريس المتنوعة تعبر - بدون شك - على حرص رجال الدين على نشر تعليم ديني قائم على أسس قوية يستطيع أن يكون عاملاً وراء نشر مبادئ الإيمان الصحيح وأن يقف حائلاً في نفس الوقت أمام البدع والهرطقات التي تحدثت الديانة المسيحية.

وقبل الحديث عن وضع قطبي العملية التعليمية في تلك الفترة وهما المعلم والمتعلم ربما نجد أنه من الضروري الإشارة إلى وضع المرأة المصرية في هذا النوع من التعليم وهل كانت كمثيلاتها الهلينية من قبل أم اختلفت عنها.

لقد كان التعليم متاحاً للمرأة المصرية منذ عهد الفراعنة، كما كانت تتعلم في العصر البطلمي وكذا اليوناني الروماني، وهناك العديد من الخطابات التعليمية التي عثر عليها وتشير إلى فتيات يتعلمن ويخاطبن اسرهن لطلب كتب أو أدوات تعليمية. وقد ظل الوضع قائماً والخاص بتعليم الفتيات حتى العصر البيزنطي ومنهن من وصلن لمصاف الأساتذة والعلماء كالعالمة الكبيرة هيباتيا - آخر علماء مدرسة الموسيون^(٣).

ومن الواضح أن النهج نفسه استمر في المدرسة المسيحية، وكان يسمح للفتيات بالتعليم في المدارس كالرجال^(٤).

ولعل أكبر دليل على ذلك ما جاء في رسالة القديس بولس إلى كنيسة روما يشيد فيه بمن وصل من النساء لمصاف الشماسة - كفيبي وبريسكلا وغيرهن - مما يؤكد دخول النساء لمدارس الموعوظين وترقيتهم فيها لخدمة الكنيسة كالرجال^(٥).

أحوال المعلم والمتعلم في المؤسسات التعليمية:

وستقتصر الإشارة هنا على المؤسسات الدينية لمنع تكرار ما سبق ذكره عن علماء المدارس الوثنية الهلينية فعن الوضع الثقافي للمعلم، كانت

(١) الانبا متازوس: الأنبا باخوميوس، بني سويف، لجنة التحرير بمطراقة بني سويف، (د.ت)، ص ٢٠.

(٢) حكيم أمين: مرجع سابق، ص ص ١٨٠ - ١٨١.

(٣) Parson: op. cit., p. 353.

(٤) Alfons Luigi: op. cit., p. 101.

(٥) رسالة القديس بولس إلى أهل رومية، الكتاب المقدس، فصل ١٦.

مكانة علماء الإسكندرية لها شأنًا علمياً وثقافياً كبيراً حيث تميزوا باتساع المعارف العقلية والدينية، كذلك عرفوا بالبراعة في طرق التدريس واشتهروا كفلاسفة وخطباء إلى جوار كونهم معلمين، كذلك حظى علماء المدارس الدينية ولا سيما مدرسة الإسكندرية بوضع اجتماعي متميز عند جموع المسيحيين حيث نظروا إليهم باعتبارهم القدوة والمرشدين ورمز القوة الروحية والمدافعين عنهم في المجامع وواضعي أسس الإيمان الديني.

وعن الوضع المالي لهم سواء أكانوا بالكنايس أو الأديرة، كانوا يشعرون بالاكتماء حيث كان ينفق على المؤسسات العلمية من تبرعات المؤمنين ومن نذورهم ومن الأراضي التي أوقفوها على الكنيسة.

أما عن وضع الطلاب داخل المؤسسات التعليمية الدينية، فقد تنوعوا فكان منهم المحامون والأطباء وحكام الأقاليم والموظفين كذلك كانوا من الرجال والنساء معاً، وملتوا كافة الطبقات الاجتماعية، وقد كان هؤلاء الطلاب يدرسون العلوم العقلية إلى جانب العلوم الدينية، وكان النابغون منهم يختاروا لإكمال مسيرته العلمية لهذه المؤسسات ولا سيما المدرسة التبشيرية، كذلك تمتع هؤلاء الطلاب بالحرية العلمية كأقرانهم الوثنيين، فكانوا يتعلمون على يد علماء المدرسة الوثنية كما تعلموا على يد علماء المسيحية كذلك كانت لهم الحرية في دراسة ما يرغبون في أن يتقنوا أنفسهم به من علوم ومعارف وأن يطالعوا كافة الكتب والثقافات هذا فضلاً عن حرية الارتجال لأي قطر يرغبوا في الأخذ عن علماؤه وأساتذته^(١).

وبالنظر لطبيعة العلاقة بين المعلم والمتعلم في ظل النظام التعليمي المدروس والواضح الهدف، يتضح لنا نجاح هذا النظام التعليمي والذي أثمر عنه وجود علماء مبشرون ومكانه دينية كبيرة منحت أبناء البلاد استقلال ديني وروحي كبير في غياب الاستقلال السياسي، حمل علماؤه مشعل القومية المصرية، وتصدي رجاله للرد على البدع والهرطقات ووضعوا قانون الإيمان الذي أخذ به العالم المسيحي بأسره وحققوا للبلاد مركزاً دينياً وعلمياً كبيراً كان على نفس القدر من التميز بالنسبة للأكاديمية الوثنية القديمة، كذلك مثلت أديرته معقلاً للثقافة الدينية المصرية الملامح، وظلت محتفظة بسماتها ومعالها المصرية والتي لم تسمح لأحد بالاقتراب منها إلا حين شعرت بالأمان في كنف الدولة الإسلامية فامتزجت معها مفرزة لملامح مدرسة مصرية إسلامية ذات سمات ثقافية حضارية خاصة تجلت في مؤسساتها ولا سيما الأزهر والذي ظل معقل الثقافة الإسلامية حتى الآن.

(١) نجلاء حامد: مرجع سابق، ص ١٩٥، وما بعدها.

الفصل الخامس

التربية في الحضارة الإسلامية في مصر

- أحوال مصر تحت حكم الولاة.
- عوامل انتشار الإسلام والثقافة العربية في مصر.
- أهداف التربية والتعليم في الإسلام.
- مؤسسات التعليم في الإسلام.
- أحوال المعلمين المتعلمين وطرق التحصيل العلمي.
- أنواع العلوم والمناهج.

الفصل الخامس

التربية في الحضارة الإسلامية في مصر

إن المتأمل في تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية في مصر لينتابه كثير من العجب والتساؤل، كيف دخلت مصر سريعاً في حوزة الإسلام منذ عام ٦٤٠م، ولم تخرج عنه حضارة أخرى منذ ذلك التاريخ، فإن الأمر — ولا شك — ليس أمر مجرد ديانة اعتنقها المصريون رويداً رويداً أو حتى مجرد لغة حلت شيئاً فشيئاً محل اليونانية والقبطية — لغة الحكم ولغة الشعب —، ولكن الذي حدث كما وصفه صاحب سندباد مصري:

"هو أن مصر أصبحت، منذ ذلك التاريخ، ركناً هاماً من أركان العالم الإسلامي، وارتبطت مصائرنا بمصائر الإسلام، وأصبحت لغتها القومية هي لغة العالم الإسلامي السائدة وهي اللغة العربية.. فمصر اعتنقت الإسلام ديناً واتخذت الضاد لغة، ولعبت دوراً خطيراً في التاريخ الإسلامي كله، دوراً سياسياً بحكم تراثها ونظامها ومركزها الجغرافي، ودوراً ثقافياً بفضل جامعها الإسلامية العتيقة"^(١).

ولابد أن هذا التحول الكبير في تاريخ مصر كان راجعاً لعدد من العوامل وليس فقط لطبيعة الإسلام ولغته، فمما لا شك فيه أن مصر قد هجرت كثيراً من عاداتها القديمة حين دخلت المسيحية حتى أن المسيحيين المتشددين أنفسهم عام ٣٩٥م هدموا الكثير من المعابد بما فيها مقر السيرابيوم العلمي نفسه، كذلك ما كان من بعض مظاهر التأثر باللغة الرسمية للدولة اليونانية — اللاتينية، والفن والثقافة البيزنطية، هذا عن العوامل السابقة عن الإسلام والتي مهدت له، ثم كانت العوامل الأخرى الخاصة بالحضارة الإسلامية نفسها، فمنها العوامل السياسية بالتحول للدولة الجديدة التي اتخذت من الإسلام والعربية أساساً بها، ومنها العوامل المالية وما تبع العصر الجديد من مظاهر رخاء بعد كساد ونهب، ولكن الشعب المصري تعرض لكثير من التغيرات السياسية في الحكومات وكثير من مظاهر الكساد والجذب ولم يتحول عن قوميته، لكن هذه العوامل كان يدعمها عامل هام خاص بالدين الجديد وسماته وخصائصه ومقوماته والتي حملها الفاتحون معهم وكانوا مثالا حياً لها، فنشروا تلك السمات والخصائص مع ما وضعوه من أسس لنظام تعليمي لنشر الإسلام واللغة العربية أتت ثمارها سريعاً حتى ما كاد ينتهي

(١) حسين فوزي: سندباد مصري، مرجع سابق، ص ١١٥.

عصر الولاة، إلا وتحول غالبية المصريين للإسلام، حتى من بقى منهم على مسيحياتهم استخدموا العربية كلغة للحديث وحتى الكتابة^(١). ومن الطبيعي أنه لا يمكن الوقوف على هذا التأثير القومي وثماره التربوية بصورة سليمة إلا بالنظر للعوامل المجتمعية المختلفة في ظل الإسلام والتي مهدت مجتمعه لأحداث هذا التغير الفكري والثقافي والعقائدي الكبير.

ونظراً لاتساع الفترة الزمنية التي تمثل الحضارة الإسلامية في مصر فتيسيراً لتحديد سمات النظام التعليمي فيها ستقوم الدراسة بتقسيمها إلى فترتين تجمع كل منهما سماتها الخاصة وهما:

التعليم في عصر الولاة: وهي فترة الخضوع للخلافة مباشرة، والفترة التي تم فيها إرساء دعائم الحضارة الإسلامية في مصر، ٦٤٠م - ٨٦٨م.

التعليم في عهد الدول المستقلة: بداية من الدولة الطولونية ٨٦٨م - ١٥١٧م

بنهاية حكم دولة المماليك وعودة مصر لسيطرة الخلافة المباشرة - تحولها لولاية عثمانية - مرة أخرى وما حملته تلك النظم المستقلة من تغييرات أثرت بدورها على نظم التعليم في مصر إبان تلك العصور، وذلك ببيان كل من: ملامح نظم الحكم المختلفة لمصر في عصر الولاة ثم الوقوف على: عوامل انتشار الإسلام واللغة العربية في مصر.

أحوال مصر تحت حكم الولاة: ٢١-٢٥٤هـ / ٦٤٢-٨٦٨م

- لقد كانت كافة أحوال البلاد في مصر في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي - أي قبيل الفتح الإسلامي مباشرة - توحى بضرورة التغيير ولعل أبرز المظاهر الدالة على ذلك يمكن تلخيصها كالتالي:
- ما لاقاه المصريون - الأقباط - من إضطهاد ديني شديد من البيزنطيين للاختلاف المذهبي، حتى أن الإمبراطور هرقل أجبر المصريين على تقبل رجل الدين البيزنطي قيرس - المقوقس - عام ٦٣١م والذي كرهه المصريون لسوء معاملته، ولتسببه في هزب بطريركهم "بنيامين" والذي أعاده فيما بعد عمرو بن العاص مكرماً بعد أن تم له فتح البلاد.
 - التقسيمات السياسية والإدارية: الأقاليم (الدوقيات) التي لم تمكن البلاد من أن يكون لها جيش موحد ليوقف أمام الجيش العربي المنظم.
 - الأحوال الاجتماعية المتفاوتة بين الأقاليم ففي حين كانت الإسكندرية - مركزاً أجنبياً على أرض مصر - تزخر بالثراء والتقدم، عانت باقي الأقاليم من إضطهاد الحكام وتعسف جباة الضرائب.

(١) نجلاء محمد حامد: التعليم في مصر في عصر الولاة (٢١- ٢٥٤هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات التربوية، جامعة القاهرة، ١٩٩٦م، التمهيدي.

هذه المظاهر مجتمعه تسببت - كما سبقت الإشارة - إلى أن تعم مظاهر الفوضى والإهمال في الزراعة والصناعة وحتى اضمحلال التجارة وانتشار الفقر، ولم يك لدى المصريين في تلك الفترة سوى بصيص النور الذي ألقته كنيستهم فتمركزوا حولها كرمزاً لوجودهم واستقلالهم الروحي عن الحاكم البيزنطي في غياب الاستقلال السياسي، والتفاف المصريون حول كنيستهم ساعدهم على التمسك باختيارهم وساعد على ظهور شخصيتهم الخاصة التي فضلت السلطة العربية عوضاً عن البيزنطية، ولا سيما لما وصلهم عن سماحة العرب مع أهل البلاد التي فتحوها، وإنهم إنما يحاربون الحكام الذين يمنعون إعلان دعوتهم ولا يتعرضوا لأهالي البلاد، لذا فقد رجحوا كفة العرب ليس هذا فحسب بل إنهم أسدوا إليهم أيضاً يد العون والمساعدة لدخول مصر.

وقد بدأت أحداث الفتح العربي لمصر منذ ذهب الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام لتسلم بيت المقدس - بناء على طلب بطريركها صفرنيوس - وهناك أستأنه عمرو بن العاص بالمسير إلى مصر لفتحها، وذلك لما لمصر من مكانة متميزة في قلوب العرب عامة وعند عمرو بن العاص خاصة فضلاً عن تكرار ذكرها في القرآن مرات عديدة^(١).

كذلك كان من مظاهر المكانة الخاصة لمصر عند العرب ما ورد عنها في الأحاديث النبوية الشريفة، وما عرفه العرب من الرحالة عن الكثير من فضائل أرضها وشعبها، وما عرفوه عما يعانيه شعبها من مظاهر الاضطهاد الديني، كل هذا من جهة، فضلاً عن الضرورة الحربية لتأمين الفتوحات العربية في الشام بالسيطرة على الموقع المتميز لمصر لمنع البيزنطيين من محاولة استرداد ما فقدوه ثانية من ناحية أخرى^(٢).

ورغم إدراك الخليفة عمر بهذه الأهمية فقد نبه على قائده بأنه إذا وصله كتابه قبل دخول مصر فعليه الرجوع، وذلك لخشية الخليفة من إنهاك جيوشه لكثرة ما خاضوه من معارك طويلة وشاقة^(٣).

وبدأت مسيرة عمرو لفتح مصر من قيساريه بجيش من أربع آلاف رجل أواخر عام ١٨هـ / ٦٣٩م متخذاً طريق القادمين من مصر من الشرق

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد صبيح، القاهرة ١٩٧٤م، ج ١، ص ٥٧.

وقد أشار المقرئ إلى ذلك بقوله "إن مصر ذكرت في القرآن بضعا وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة ليماء". المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة، بولاق، ١٢٧٠هـ، ج ١، ص ٢٣.

(٢) ابن الكندي: فضائل مصر، القاهرة، مكتبة وهبه، ١٩٧١، ص ٣.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، لجنة البيان العربي، ١٣٢٩هـ، ص ٨١.

فوصل العريش، ثم دخل الفرما بعد قتال بيزنطي شديد وذكر ابن عبدالحكم أن عون القبط كان له أثر كبير في دخول عمرو إليها بقوله "إن القبط في الفرما كانوا نعم العون لعمرو"^(١).

ثم بدأ دخوله للمدن المصرية واحدة تلو الأخرى فكانت بلبيس، ثم أم دنين - شمال بابليون - حتى وصل عين شمس (هليوبوليس) - حيث أمده الخليفة بأربعة آلاف آخرين فتغلب على البيزنطيون وشتت جمعهم^(٢).

. وبعد تمام النصر لعمرو أخذ في مفاوضة حاكم مصر - المقوقس - فكانت معاهدة بابليون الأولى سنة ١٩هـ / ٦٤٠م والتي تم فيها تحديد وضع المصريين كأهل نمة عليهم الجزية، إلا أن الإمبراطور رفض المعاهدة وأمر بحرب المسلمون فاستعد البيزنطيون لمعركة في الإسكندرية^(٣).

فكان زحف عمرو للإسكندرية لتعقب فلول البيزنطيون وسحق آخر مركز لسلطتهم في مصر، ولكن لوفاة هرقل، عاد المقوقس لمفاوضة عمرو، وتم الصلح - صلح الإسكندرية - في ٨ نوفمبر سنة ٢٠هـ / ٦٤١م والذي نص على الجزية على البالغين ما عدا الشيوخ والنساء والأطفال، وجلاء الروم بأموالهم ومتاعهم وألا يسعوا ثانية للعودة لمصر، كذلك جاء فيها الأمان للمسيحيين وكنائسهم وحرمتهم الدينية وللإهود أيضاً، وعلى أقباط مصر استضافة من ينزل عليهم من العرب لمدة ثلاثة أيام مفترضة، وقد تم الجلاء النهائي عن مصر عام ٦٤٢م وأواخر سنة ٢١هـ ودخلت البلاد تحت لواء الإسلام^(٤).

وبعد الفتح العربي لمصر بدأ العرب في إرساء دعائم الحكم وتنظيم أمور البلاد وكانت البداية في تحديد العلاقة بين الحكام الجدد وأهل البلاد، فعن القبط وعلاقتهم بالعرب فقد كانوا - وفقاً لشهادة العرب أنفسهم - خير عون لعمرو والعرب، وحتى من امتنع منهم عن تقديم العون التزم الحياد ليرى ما سيكون عليه حال العرب وبالتالي لم يجد العرب صداً أو معاداة من أهل البلاد بل العكس كان هو القائم^(٥).

(١) المرجع السابق: ص ٤٩.

(٢) الواقدي: فتوح مصر والإسكندرية، طبع ليدن، بريل ١٨٣٥م، ص ٧٥-٧٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، القاهرة، المطبعة الكبرى، ١٢٩٠هـ، ج ٢، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٤) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٥) الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ١٥٩.

أما عن العرب فقد حرصوا على أن يكسبوا محبة أهل البلاد والعمل بأحاديث الرسول الكريم (ص) والذي أوصى بأهلها خيراً، فما أن أتم عمرو بن العاص فتح البلاد حتى أرسل للبطريق بنيامين يؤمنه ويعيده للبلاد مما جعل السرور والغبطة يعمون أهل مصر، كذلك أحسن لرهبان الأديرة ومنحهم الأمان، كما أصلح وأقام ما تهدم من كنائس ومنح الأقباط الحرية في إنشاء كنائس جديدة، ليس هذا فحسب بل حرص العرب على مشاركة المصريين احتفالاتهم الدينية والاجتماعية، كذلك كانت الجزية ترفع عن اسلم عكس المواطنة التي لم تكن أبداً حقاً للمصريين قبل ذلك منذ قرون عدة فشعر المصريون بالسماحة والحرية والعدل من الحكام لبلادهم^(١).

ولذلك شعر القبط بقرب ما جاء به العرب من خلق وما دعى إليه كتابهم المقدس، وأحسوا في بساطة معيشتهم وسماحتهم بأخلاق قريبة من أخلاقهم، وهي المعاملة التي أثمرت سريعاً وأدت لإقبال الكثير من القبط على اعتناق الإسلام^(٢).

تأسيس العاصمة مركز الحكم: بدأ المسلمون بعد الفتح في تأسيس عاصمتهم الجديدة لتكون رمزاً للسيادة العربية، فاختط عمرو بن العاص مدينة الفسطاط قرب حصن بابلون لاتصاله بمركز الخلافة في المدينة من ناحية ولتتميز موقعه على ضفة النيل الشرقية من توفير المطالب المعيشية للمدينة بسهولة من ناحية أخرى^(٣).

وحيث أن الفسطاط أنشئت كي تكون مركز الحكم لذلك كان أول ما بنى فيها هو المسجد - جامع عمرو بن العاص - ليكون محل إقامة الصلاة

(١) للمزيد من التفاصيل حول موقف عمرو بن العاص والعرب من أقباط البلاد يمكن الرجوع للمصادر التالية:

- الاسحاقى: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، القاهرة، دار الكتب، ١٩٢٧، ص ٥٣ وما بعدها/

- الشراقوي: تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، القاهرة، دار الكتب، ١٩٢٧، ص ٥ وما بعدها.

- الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة، بيروت، ١٩٠٨م، ص ١٣٢ وما بعدها.

(٢) Arnald, T. W., B. A.: The Preaching of Islam, London, 1896, pp. 84: 89.

(٣) العمري: مسالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، طبع المعهد الفرنسي،

١٩٨٥، ص ٨٤: ٨٥/ وعن اسم المدينة الفسطاط فهو يرجع للفظ اليوناني

"فساطن" أي المعسكرات الحربية وهو أقرب ما كان عليه شكل المدينة حين تأسيسها.

القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩١٣،

ج ٣، ص ٣٣٠.

وممارسة الشعائر الدينية وأيضاً مركز الحكم والقضاء ومقرراً لمدرسة دينية لنشر الإسلام^(١).

وبدأت القبائل العربية والصحابة في الاختطاط حوله وإنشاء المدينة الإسلامية الأولى على أرض مصر، كما سمح لأهل البلاد ممن يرغبوا في الاختطاط أيضاً بالفسطاط، فكانت الخطوة الأولى في إرساء دعائم الحكم والعمل على نشر الإسلام في مصر^(٢).

ب- نظم الحكم في مصر في عهد الولاية:

والتي اشتملت على النواحي الآتية:

النظام الإداري - المالي - الحربي - القضائي فبالنسبة للنظام الإداري فقد حرص العرب على الإبقاء على النظام الإداري المصري العريق كما هو دون تغيير واختصوا أنفسهم بالمناصب الإدارية العليا - التنفيذية - وتركوا ما دونها للقبط أبناء البلاد الذين أصبحوا لأول مرة منذ الحكم البطلمي يشاركون في إدارة بلادهم^(٣).

وتكون النظام من الوالي وهو أمير الجيش وممثل الخليفة والمسئول عن تعيين القاضي وعامل الخراج حتى لا تكون سلطته وحده مطلقة، وقد كان عمرو بن العاص أول من ولى البلاد بعد فتحها وبعد عزله عام ٢٤هـ - أعاده الخليفة عثمان ثانية عام ٢٥ لهزيمة الروم وظل بمصر حتى وفاته^(٤).

وكان يعاون الوالي كل من صاحب الشرط للحفاظ على الأمن والأخلاق في البلاد، بالإضافة للقاضي وكان يشترط أن يكون من بين العلماء والفقهاء، ثم استحدثت الدولة الأموية منصب صاحب البريد لإبلاغ الخليفة سريعاً بأخبار الولاية^(٥).

أما النظام المالي: فقد ظهر حرص العرب من البداية على تنظيم الأحوال المالية وعدم الإضرار بأهل البلاد - وأن ظهر بعض الولاية المتعسفين - واشتمل النظام المالي على الجزية والخراج، والجزية هي الضريبة التي كانت يدفعها أهل الذمة في مصر - مسيحيون ويهود -

(١) المقدس: لحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، ليدن برول ١٩٠٩، ص ١٩٩.

(٢) البري: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٩٢، ص ٥٩، ١٤٠، ١٧٢.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، دار الفكر، ١٩٨٣، ص ٢٨: ٢٩.

(٤) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وإخبارها، مرجع سابق، ج ١، ص ١٨٧.

(٥) سيده كاشف: مصر في عصر الولاية، ص ٢٥: ٢٧.

وكانت دينارين على كل بالغ وتم إعفاء الشيوخ والأطفال والنساء، ثم أعفوا كذلك الرهبان استرضاء لأهل البلاد كذلك كانت تراعى الحالة المالية فمن الذميين من كان يدفع أقل، وفي المقابل كان المسلمون يدفعون الزكاة والصدقات فشعر أهل البلاد بدرجة من المساواة ارتضوا معها الأوضاع^(١).

وبالنسبة للخراج والملكية العقارية، والذي كان الأساس لاحتساب الضرائب فنظراً لأن المسلمين اعتبروا أنهم فتحوا أرض مصر سلماً لأن أهلها لم يقاوموا العرب فقد تركوا لهم الأرض لزراعتها مقابل قدر من الخراج وذلك لكسب قلوب أهل البلاد من جهة ولضمان عدم إنشغال الجند بالزراعة عن الجهاد من جهة أخرى، وكان تقدير الجباية يعتمد على مساحة الأرض وجودتها ومقدار فيضان النيل وكان يجب نقداً أو عيناً وينفق منه على الجند المرابط في مصر^(٢).

لذلك كان ديوان الخراج والأموال من أهم الدواوين في الإدارة الإسلامية من ثم كان حرص المسلمون على تعريبها، فكان تعريب الخليفة عبدالملك بن مروان لها عام ٧٥هـ وتم سك العملة الإسلامية بدلاً من الرومية والفارسية^(٣).

أما النظام الحربي : فقد انقسم إلى الجيش وكان يتمثل في العرب وتصرف لهم أرزاقهم من ديوان الجند، والبحرية والتي تعلمها العرب من المصريين الذين اشتهروا بها منذ قديم الزمن لحاجتهم لها لإتمام فتوح المغرب فتم إنشاء أسطول مصر عام ٣٤هـ لصد هجوم الروم عن مصر، وكان ديوان الجند يتولى الإنفاق على الفرقتين حتى تم إسقاط العرب منه عام ٢١٨هـ فأضطر العرب للعمل في المهن المختلفة وانتشروا بين المصريين واختلطوا بهم^(٤).

وعن النظام القضائي فقد قام بهدف تطبيق أحكام الشريعة والفصل بين المسلمين في قضاياهم، وكذلك كان ينظر أيضاً في قضايا أقباط البلاد أيضاً، وكان الحكم يكون وفقاً للمذاهب أو الاجتهاد لذلك كان يحرص الوالي دائماً على اختيار أفضل للعلماء والفقهاء لولاية القضاء، وكان يمنح القاضي رزقاً من بيت المال يكفي الحاجة، ولقد كان للقضاة في مصر في عصر

(١) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، دار الكتب، ١٩٦٩، ص ١٢٥.

(٢) ابن الأثير: مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٣٨ : ٢٣٩.

(٣) محمد ضياء الدين الرئيس: الخراج والنظم المالية في الدولة الإسلامية، ط ٤، القاهرة، دار الأنصار، ١٩٧٧، ص ١٤٨، ٣٠٩.

(٤) المقرئ: الخطط، مرجع سابق، ج ٣، ص ٦.

مصطفى بدر: مصر الإسلامية، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٥٤، ج ١، من الفتح الإسلامي، ص ٥٦ : ٥٧.

الولاة دوراً كبيراً في ازدهار الفكر التربوي آنذاك حيث كان غالبيتهم من علماء الفقه والتشريع ممن لهم مجلس علم في المسجد الجامع أيضاً^(١).

ثانياً: عوامل انتشار الإسلام والثقافة العربية في مصر:

لم يكن الفتح العربي وحده هو العامل الرئيسي وراء سرعة انتشار اللغة العربية والدين الإسلامي في مصر وإلا لكان من المنطقي أن تحقق الثقافة التي استقرت على أرض مصر ما يقرب من الألف عام هذه النتيجة - الثقافة الهلينية - وإنما كان لتضافر مجموعة من العوامل منها ما هو راجع لسياسة ونظم الحكم ومنها ما هو راجع لطبيعة العلاقة بين الفاتحين وأهل البلاد وأهمها ما اختلف بطبيعة الرسالة التي جاء هؤلاء الفاتحون محملين بها وساعين لنشرها، تلك العوامل مجتمعة هي التي حولت غالبية السكان في تلك الفترة القصيرة نسبياً - عصر الولاة - إلى الدين الإسلامي وإلى أن يصبحوا من أهم الشعوب الحاملة للواء الإسلامي والعربية بل ومن الشعور الفاتحة والتي كان لها الفضل في فتوحات المغرب والأندلس فيما بعد ويمكن إجمال تلك العوامل في الآتي:

- العوامل السياسية والإدارية.
- العوامل المالية والاقتصادية.
- العوامل الاجتماعية.
- العوامل الدينية والثقافية.

العوامل السياسية والإدارية: والتي اشتملت بدورها على عدة مظاهر منها: استعانة العرب بأهل البلاد في القيام بالأعمال، حيث تم تنظيم العلاقة على أن يتفرغ العرب للقتال والدفاع عن البلاد بينما يتولى القبط كافة الأعمال بالبلاد في الزراعة والصناعة والحرف، حتى أن عمرو بن العاص استخدم نحو مائة ألف عامل قبطي في إصلاح طرق الري مصر، لذا كان من المنطقي أن يحاول هؤلاء تعلم العربية لتكون وسيلة للتفاهم بينهم وبين الحكام الجدد ولعرض مطالبهم فكانت أول اللبانات في دعائم العربية^(٢).

- الاستعانة بأهل البلاد في الشؤون الإدارية: لم يقتصر الأمر على الأعمال والحرف بل أن العرب تركوا أمور الإدارة لأهل البلاد ليس هذا فحسب

(١) للكندي: مرجع سابق، ص ٣٠٠، ص ص ٣١٤: ٣١٧/

ابن عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت، ص ١١٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، بولاق،

١٩٨٢، ج ١، ص ٢١٧/

العبادي وآخرون: الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، القاهرة، دار نهضة مصر، د.ت، ص ٣٦، ٣٧.

بل حرصوا على إحلال الأقباط مكان اليونانيين والرومان في الإدارات وقد غدا بعضهم كتاب ورؤساء كور وحتى أن صفوة الأطباء المتميزين في العهد العباسي الأول كانوا من أقباط مصر، وكان لزاماً على هؤلاء أن يتعلموا لغة الحاكم ولا سيما بعد تعريب الدواوين وأمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز بالأبلي غير المسلمين أمراً^(١).

- حسن معاملة العرب لأهل البلاد، ولعلها من أقوى العوامل فقد اتسمت معاملة الحكام العرب في الغالب بروح التسامح والعدالة والرفق مع أقباط مصر ولعل أكبر الأمثلة على ذلك حين عرض الخليفة عثمان بضعف خراج مصر على عهد عمرو فأجابته عمرو بقوله "أدرتم بولدها"^(٢). هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد التزم العرب بمساواة من أسلم من أهل البلاد العرب في كافة الحقوق والواجبات، فضلاً عن إلزام عمال مصر ألا يجيء خراجها إلا بعد فيضان النيل، وأن يكون خراج كل قرية حسب وقت نضج ثمارها وحسب إنتاجها^(٣).

- ولعل أكبر صور السماحة كانت في التسامح الديني الذي أظهره العرب نحو الأقباط والسماح لهم بتعمير كل ما تهدم من كنائسهم وحرية ممارسة شعائهم بل وحرية بناء الكنائس حتى في الفسطاط نفسها فضلاً عن مشاركتهم لهم في احتفالاتهم الدينية والسماح لهم كذلك بعرض قضاياهم في جامع الفسطاط وطبقت عليهم الشريعة كالمسلمين تماماً^(٤).

- تعريب الدواوين ودور الطرز: حيث أنه بعد التعريب غدت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الدولة العربية، فكان تحول ديوان مصر للعربية عام ٨٧هـ مؤشراً للتحول في الإدارات من القبطية - التي حلت محل اليونانية بعد الفتح العربي - للعربية، فكان على الأقباط ممن رغبوا الاستمرار في مراكزهم أن سارعوا إلى استخدام العربية ثم الدخول في الإسلام تبعاً لأوامر الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وهذا التعريب ساعد على حركة ترجمة قوية للعلوم القديمة أسهم فيها الأقباط ممن تعلموا العربية أو دخلوا للإسلام^(٥).

(١) أحمد مختار: تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٢، ص ٥٦.

(٢) حسين فوزي: مرجع سابق، ص ١٤١.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ط ٢، ليدن بـريل، ١٩٦٧م، ص ١٣٦: ١٣٧.

(٤) الخربوطلي: مرجع سابق، ص ١٦٠: ١٦٥.

(٥) سعد السباعي وسعيد محمد أحمد: تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها، القاهرة، دار الإخلاص، ١٩٨٤، ص ١٤٥.

ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، ط ٣، لبنان، دار الثقافة، ١٩٦٩، ص ٤٣٢.

كذلك تبع تعريب الدواوين الأمر بتعريب دور الطرز لما كانت تحتويه الأقمشة من كتابات قبطية فاستبدلت بعبارات عربية مع ذكر اسم البلاد التي صنعت بها - كما هو الحال الآن في أصول الصناعة -، كذلك تم تعريب مصانع ورق البردي وتم استبدال العلامات المسيحية من على القراطيس بعبارة "قل هو الله أحد"، وهذا التعريب ساعد على اعتياد أهل البلاد على العربية حتى أنه ما أن جاء عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) حتى كانت الكتابة في مصر عربية واضحة دون عبارات قبطية أو يونانية^(١).

ولقد ساهمت تلك العوامل السياسية - بلا شك - بنصيب وافر في انتشار الإسلام واللغة العربية في مصر مع باقي العوامل التي ستم الإشارة إليها.

العوامل المالية والاقتصادية: والتي ساهمت بقدر كبير في انتشار الإسلام واللغة العربية ولعل أهمها ما أختص بأمور الجزية والخراج: فقد أظهرت المصادر لتسام النظام المالي العربي بالعدالة فالجزية كانت معقولة، وكان يعفي منها غير القادرين ورجال الدين أيضاً مما كان له أكبر الأثر في استتباب الأمن وأدى لتألف المصريين مع الفاتحين بالإضافة إلى الكثير من الفقراء كانوا يسرعون للإسلام أو الانخراط في سلك الرهبنة ليعفوا تماماً من الجزية أو للحصول على أنصبه من عطايا بيت المال ولتولي المناصب الهامة في الدولة أيضاً^(٢).

كذلك كان تقدير الخراج يتم أيضاً بصورة عادلة وفقاً لظروف الفلاح والأرض والفيضان، حتى لا يترك الفلاح أرضه ويهرب كما كان في العهود السابقة^(٣).

كذلك كان لتعريب دور السكة أثراً كبيراً حين تم توحيد العملة بدل عملات الأمم المجاورة كالبيزنطية والفارسية، وقد أدى ذلك لضرورة تعلم العاملين بتلك الدور اللغة العربية لسلك العبارات الإسلامية المطلوبة بصورة سليمة^(٤).

(١) جروهمان: أوراق البردي العربية، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون السفر الأول،

١٩٣٤م، ص ١١: ٦١

السيد محمد يونس: الحضارة الإسلامية في مصر في العهد الأموي، ٣٨-١٣٢هـ،
دكتوراه غير منشورة، جامعة الأزهر، ١٩٨٨م، ص ٣٠١، ٣٠٢.

(٢) ابن ظهيره: مرجع سابق، ص ١٢٥

ابن الراهب: تاريخ، نشر مطبعة اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٣م، ص ١٣٢.

(٣) ابن حوقل: مرجع سابق، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٤) الريس: مرجع سابق، ص ١٤٨، ٣٠٩.

ومن أهم المظاهر الاقتصادية ما أولاه العرب من اهتمام بشئون البلاد كبناء مقاييس على النيل وشق الترع وتطهيرها وإصلاح نظم الري بل وأحياء الأرض البوار أيضاً^(١).

العوامل الاجتماعية: والتي ساهمت أيضاً بقدر كبير في سرعة انتشار الإسلام بين أهل مصر ولعل أبرز تلك العوامل هو رغبة بعض المصريين في التمثل بالطبقة الحاكمة، فدائماً ما كان هناك من يرغب بمحاكاة الحاكم والقوى وهذه الفئة الراغبة في امتيازات الطبقة الحاكمة سارعت لاعتناق الإسلام للتمتع بالعطايا والمناصب البارزة حتى لقد وصل الأمر ببعضهم بعد الدخول في الإسلام إلى إدعاء نسب عربي لألقابهم حتى لا يشعروا بأنهم في منزلة أدنى من الفاتحين للبلاد^(٢).

كذلك ساعدت عملية التجاور والمشاركة بين العرب والأقباط في زيادة الود بينهم فقد استرعت أخلاق الفاتحين – وغالبيتهم من الصحابة – انتباه الأقباط، كما كان للجوار في السكن بين القبط والعرب أثره في تقليل الحواجز بينهم، كذلك ساعد تعلم أبناء الأقباط في الكتاتيب الإسلامية مع أبناء المسلمين على ظهور جيل يتحدث العربية ويتمتع بالخلق الإسلامي، كما ساعد كل ذلك من جهة حرص العرب على مشاركة أهل البلاد كافة احتفالاتهم – من جهة أخرى – على شعور الأقباط بالمساواة مع العرب في ظل الدين الجديد فسارعوا في التعرف على الإسلام والإقبال على لغته^(٣).

ولعل أهم ما يرجع لتلك المشاركة أنه كما أنها عربت أهل مصر لغة فإنها مصرت العرب طابعاً أيضاً^(٤). كذلك ساهموا الولاة وقبائلهم بدور كبير في عملية التعريب ونشر الإسلام، حيث كانت معرفة الأقباط بالقبائل العربية قديمة وهم من كانوا يأتون البلاد كتجار لقرون طويلة وكان منهم عمرو بن العاص نفسه، كذلك فإن الرسول (ص) نفسه قد راسل المقوقس حاكم مصر والذي رد عليه رداً حسناً فكان العرب محملين بصورة حسنة عن شعب

(١) جمال حمدان: شخصية مصر، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨١، ج ٢، ص ١١٢/ وقد دلت ابن ايباس على مظاهر مراعاة الولاة العرب لمصالح البلاد بموقف الولاة أثناء الأزمات الاقتصادية وخاصة حين قام الوالي بن المغيرة عام ١٣١هـ برهن حلي جواريه لدى التجار مقابل توزيع القمح على الفقراء، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٩: ١٣٠.

(٢) سعيد عاشور: بحث في تاريخ الإسلام، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٧، ص ١٨١.
(٣) الخربوطلي: مرجع سابق، ص ١٦٦: ١٦٨.

الرافعي وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٨٦، ١١٧.

(٤) عبدالرازق حميدة: الأدب العربي في مصر من الفتح إلى الفاطميين، القاهرة، الأنجلو، ١٩٥١، ص ٢: ٣.

مصر وأرضها التي خطا عليها كثير من الأنبياء، فلما أتوا للبلاد وبدعوا النزول في البلاد سادت بينهم وبين جيرانهم علاقة طيبة^(١).

حقاً كان العرب في البداية مرابطين على الثغور للتفرغ للجهاد إلا أنه مع بدء إسقاطهم من الديوان تم اندماجهم بكثرة مع أهل البلاد وانتشروا في أنحاء مصر ليس في المدن فحسب واشتركوا بالزراعة والتجارة والمهن فبدأ اندماجهم الحقيقي بأهل البلاد وكثرت موجات هجرتهم لمصر - بلغوا حوالي ٢٤٤ قبيلة في مصر أكثرها قحطان - وتزوجوا بالمصريين فأوجدوا جيلاً من المولدين الجامعين للصفات المصرية والعربية فانتشر الإسلام بين زوجات العرب من المصريات وذويهم بدرجة كبيرة حتى أن عدد كبير منهم اشتركوا في جيوش العرب لفتح المغرب^(٢).

كذلك ساهم نظام الارتباج الذي وضعه عمرو بن العاص وهو نوع من ضيافة أهل البلاد للعرب في ريف مصر للتريف والصيد وتدريب الخيول، ولأن القبائل العربية كانت تغطي أنحاء البلاد أثناء الارتباج فقد ساهم ذلك لحدوث تقارب بين العرب وأهل البلاد بل وساهم كذلك في تبادل اللغات والعادات - خاصة وأن تلك الفترات كانت تمتد أحياناً إلى ثلاثة أشهر كاملة - كل ذلك ساعد على تعريب مصر ثقافياً بواسطة العرب وتمصير العرب جنسياً^(٣).

وقد ساعدت كل العوامل الاجتماعية على سرعة تعريب مصر حتى إذا ما حل القرن الثالث الهجري حتى كان قد تم تعريب القبط جميعاً وحتى رهبانهم أيضاً^(٤).

العوامل الدينية والثقافية: وهي العوامل التي ترجع لطبيعة خصائص وسمات الديانة الإسلامية نفسها والثقافة العربية وطرق نشرها.

إن حقيقة الأمر أن الجيوش العربية لم تدخل مصر وحدها وإنما صاحبها الإسلام، ومما لا شك فيه أن بعض المصريين قد أسرعوا للإسلام رغبة في التمثيل بالفاتحين الجدد، كذلك ساهمت خصائص الإسلام وسماته في إقناع الكثيرين بهذا الدين الجديد^(٥).

ولعل أهمها بساطة ويسر العقيدة الإسلامية: والتي كانت موافقة للفترة الإنسانية وظهرت في يسر العبادات والشعائر وقد أكدت النصوص

(١) محمد كامل حسين: الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥٩، ص ٢٥: ٢٦.

(٢) المقرئزي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٦١، ط ١، ص ١٠٥، ١٤٧.

(٣) سيده كاشف: مصر في فجر الإسلام، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٦، ص ٢٢٩.

(٤) لين بول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن: القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥٠، ص ٧١.

(٥) سيده كاشف: مصر في عصر الولاة، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٤٧، ص ١٠٧.

القرآنية على بساطة العقيدة الإسلامية ومنها "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" البقرة ١٨٥ (١).

كذلك اشتملت الديانة على الخصائص السلوكية العالية، فقد دعى الإسلام إلى أسمى القيم الروحية والخلقية والاجتماعية والإنسانية أيضاً، وظهر ذلك أول ما ظهر في السماحة والحرية الدينية التي تمتع بها أقباط البلاد وحتى من خالفهم المذهب في ظل الإسلام، كذلك دعوة المسلمين لنبذ الخلافات العنصرية وحسن المعاملة والجوار والحفاظ على الحقوق والعدالة في الحقوق والواجبات (٢).

كذلك من السمات التي ساهمت في خلق ثقافة عربية إسلامية هي إعلاء الإسلام لقيمة العقل والعلم في الإسلام، فقد جعل من العلم وسيلة للتفكير والمعرفة فاتخذه العرب الإسلامي للقضاء على الوثنية في جميع الأقطار التي فتحوها وأسسوا به مدارس إسلامية أينما حلوا ونزلوا (٣).

ولقد ساهمت خصائص وسمات الديانة الإسلامية ومن جاءوا بها في نشأة مدرسة دينية مصرية إسلامية اتخذت من العلوم الدينية واللغوية أساساً لها، وساعد على ذلك أن الفاتحون لمصر كانوا أنفسهم من صحابة رسول الله (ص) وتلاميذه من كان لهم الفضل في وضع أسس الثقافة العربية الإسلامية في مصر، ولأن العرب أول ما انشأ العرب في مصر كان المسجد الجامع فقد جعلوه نواة للمدرسة الإسلامية الأولى في نشر العبادات والعلوم الإسلامية (٤).

فأصبح مسجد عمرو بالفسطاط مركزاً دينياً وعلمياً وساهم الصحابة الفاتحون في إزدهار حلقاته العلمية والفكرية والأدبية فلقد كان كل منهم مدرسة بذاته في علوم القرآن أو الحديث أو اللغة كعبد الله بن عمرو بن

(١) وقد أوضح الأستاذ أرنولد، أن بساطة العقيدة الإسلامية كانت سر نجاحها فيما فشلت فيه سائر العقائد والمذاهب الأخرى في مصر وكانت من أكبر عوامل انتشار الإسلام فيها أرنولد (توماس) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ط ٢، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٢٦: ١٢٧.

(٢) Arnold: op. cit., p. 89, 90/

حامد عبدالقادر: الإسلام ظهوره وانتشاره في العالم، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٥٦، ص ٢٢٤، ص ٢٢٩: ٢٣٥.

(٣) لويون (جوستاف): حضارة العرب، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٩، ص ١٢٦/

شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣، ج ٢، العصر الإسلامي، ص ١٦: ١٨.

(٤) ابن ظهيره: مرجع سابق، ص ١٠٣: ١٠٧ وقد أكد على الدور العلمي لمسجد جامع عمرو بن العاص وما تبعه في مصر بقوله "إن كل جامع كان بمثابة مدرسة وأن الطلبة كانوا يشتغلون بأنواع العلوم من كل فن.."، ص ١٩٢.

العاصم المؤسس الأول للمدرسة الدينية في مصر، وأخذ هؤلاء الصحابة على عاتقهم مسئولية نشر تعاليم ومبادئ الإسلام والثقافة العربية^(١).

كذلك ساهم هؤلاء الصحابة في تنشئة أبناء البلاد تنشئته إسلامية سليمة بما لفتاوه من كتاتيب لتعليم الأطفال من أبناء المسلمين والأقباط معاً مما ساهم في سرعة نشر الثقافة العربية الإسلامية بين المصريين^(٢).

وحيث أن العرب قد خرجوا من بلادهم حاملين معهم لغتهم، بما أن اللغة هي أهم مظهر من مظاهر أي ثقافة لذا فقد كانت الوفود العربية المتتالية من أكبر العوامل التي ساهمت في صبغ الأرض المصرية بالصبغة العربية — وبخاصة لانتشارهم في أنحاء البلاد وعدم اقتصرهم على مناطق بعينها — مما ساعد على تغلغل الثقافة العربية في الأرض المصرية^(٣).

كذلك ساعد التعريب على اعتناق الكثيرين للإسلام وبخاصة من رغبوا في الاحتفاظ بوظائفهم ولقد أكدت أوراق البردي العربية على التحول الكبير فبعد كثرة الأسماء القبطية في عقود القرن الأول الهجري، بدأت بعدها تظهر الأسماء العربية المصاحبة بالألقاب مصرية حتى تحولت لأسماء عربية من القرن الثالث الهجري في كافة أنواع المعاملات^(٤).

وكان الأثر الأعظم لانتشار العربية هو الإسلام نفسه، فالمسلمون الجدد في حاجة للغة العربية لتلاوة القرآن وتأدية الصلاة وفهم معاني الإسلام لاتباع أوامره ونواهيه^(٥).

كذلك أولى العرب عنايتهم للعلوم العقلية كذلك، فراعوا مراكز الحضارة اليونانية والقبطية في مصر وعنوا برعاية ما بقي من مدارس الطب والهندسة والكيمياء والفلسفة وغيرها حتى أن الأمير خالد بن يزيد اشتهر بعلم الكيمياء والاشتغال بها وفقاً لكتب العلماء المصريين^(٦).

(١) سيده كاشف: مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٠٠: ٣٠١.

(٢) احمد شلبي: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، ط ١، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٨٧، ج ٥، ص ٢٥٦.

(٣) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥٨، ج ١، ص ١٠٥.

(٤) جروهمان: مرجع سابق، السفر الأول، ص ١٢٩: ١٣٢، السفر الرابع، ٣: ٧، ص ١٩: ٢٨.

(٥) عبدالحليم النجار: اللغة (دراسات في اللغة واللهجات والأساليب)، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١، ٤/٤.

هل: الحضارة العربية، ترجمة إبراهيم العدوي، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٥٦، ص ٢٦: ٢٨.

(٦) الدوميلي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة عبدالحليم النجار، ط ١، بيروت، ١٩٦٢، ص ١٢٣، ١٢٦.

وما كاد يأتي مستهل القرن الثاني حتى كانت المدرسة المصرية من أشهر المدارس في كافة العلوم ففي القراءات عرفت بها مدرسة ورش وفي الفقه المدرسة الشافعية، كما كان للأرض المصرية الفضل في علوم التصوف كما احتضنت الرهبنة من قبل.

وبلغ علماؤها شهرة كبيرة جعلت مدرستها قبلة لطلاب العلم من أنحاء العالم الإسلامي - كسابق عهدها - كما أقبل عليها الصحابة والتابعين لتدريس كافة العلوم بمسجدها حتى ظهر جيل من العلماء المصريين ممن بلغوا من البراعة في علوم الإسلام درجة فاقت أساتذتهم في كثير من الأحيان^(١).

وكان وراء هذا الازدهار العلمي هو دعوة الرسول (ص) في كثير من الأحاديث لطلب العلم والحرص عليه، وهو ما سار عليه خلفاؤه من بعده واتخذوها سنة وهدف وهو نشر العلوم الإسلامية في كافة الأمصار^(٢).

وبهذا أصبحت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تمكنت من أن تحل محل لغة أهل البلاد - وهو ما عجزت عنه اللغتان اليونانية واللاتينية - ولعل ذلك راجعاً في الأساس لمرونة تلك اللغة وأبجديتها الغنية بالأصوات فضلاً عن غزارة مفرداتها والتي تمكنت من تعريب كافة العلوم والمعارف العقلية وحلت محل اليونانية والفارسية والقبطية واللاتينية بسهولة ويسر كما نقلت إليها كافة الكتب الكبرى كنظريات أفلاطون وطب جالينوس وفلسفة أرسطو وغيرها دون إخلال بأصول النصوص، وكان للمدرسة المصرية وعلماؤها دوراً كبيراً في حركة الترجمة للعلوم والمعارف المختلفة^(٣).

ولعل أكبر دليل على مرونة اللغة العربية هو قدرة تلك اللغة على التعبير عن كافة المصطلحات اليونانية والقبطية بألفاظ عربية خالصة، حتى استحقت اللغة العربية أن تصبح بحق لغة عالمية تصلح لكل زمان ومكان. وكما أن تلك العوامل السابقة قد أدت إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية في مصر فقد كانت كذلك المؤسسة لسماوات النظام التعليمي العربي في مصر في عصر الولاة مشكلة بذلك مؤسساته وأنواع التعليم الذي يقدم فيها فضلاً عن تحديد العلوم والمناهج وحتى أنواع المعلمين والمتعلمين، وهو

(١) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغول عبدالحميد، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص ٤٩.

(٢) عن دعوة الرسول للعلم: البخاري، الجامع الصحيح، بيروت، مطابع دار الجيل، ج ١، ص ٢٣: ٢٤.

وعن جهود الخلفاء في الحث على العلم يمكن الرجوع إلى:

ابن قتيبة: عيون الأخبار، القاهرة، دار الكتب، ١٩٣٥، ج ١، ص ١٢٠ وما بعدها.

(٣) سعيد عاشور: مرجع سابق، ص ١٤٨.

البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد، دمشق، ١٩٤٦م، ص ١٦: ١٩.

النظام التعليمي الذي كان بحق حجر الزاوية في تحول مصر من العصر البيزنطي القبطي - إلى العصر الإسلامي، وأن تغدوا مصر بفضلها من أكبر مراكز الحضارة العربية الإسلامية^(١).

وكل هذا يدل على وجود نظام تعليمي قوي وواضح وليس مجرد حركة علمية كما اعتاد كثير من المؤرخين على تسميتها أما عن هذا النظام التعليمي في مصر في عصر الولاة فيمكن تقسيمه إلى المحاور الآتية:

أولاً: الأهداف (أهداف التربية والتعليم في الإسلام).

ثانياً: المؤسسات (التي يتم فيها تحقيق تلك الأهداف).

ثالثاً: المعلمين والمتعلمين وطرق التحصيل العلمي.

رابعاً: العلوم وأنواعها

أولاً: أهداف التربية والتعليم في الإسلام:

لقد حدد الله سبحانه وتعالى هدفه في عقيدته الإسلامية التي أنزل بها رسوله (ص) وهو الهدف من الخلق وهو عبادة الخالق سبحانه وتعالى، فقال تعالى "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"^(٢).

وهذا الأمر - العبادة - هو ما أمر الله به عباده في كافة الأمم بواسطة رسله وأنبيأوه والذي أوضحه عز وجل بقوله "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون"^(٣).

وكما حدد الله عز وجل هدف خلقه للعباد وهو عبادته، فقد حدد كذلك المصادر التي يرجع لها العباد في معرفة أوامر الله ونواهيه في أمور العبادة في مصدرين أساسيين وهما: القرآن الكريم، المصدر الرئيسي الذي يبين للمسلمين كل ما يحتاجون لمعرفته بقوله تعالى: "ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى وبشرى للمسلمين"^(٤).

السنة النبوية، وهي المنهل الثاني لتعريف المسلمين بأوامر الله ونواهيه حيث قال تعالى "وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"^(٥). والأخذ هنا يفرض على المسلم أن يتعلم من أقوال الرسول وأفعاله، ولذلك جعل العلم فريضة وعبادة على كل مسلم فكان أول أمر لعبادة بالأخذ بأحد وسائل العلم وهي القراءة فقال تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق"^(٦).

(١) نجلاء حامد: التعليم في عصر الولاة، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٢) الذاريات (آية ٥٦): وأوضح صاحب رياض الصالحين ذلك بقوله "وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له" للنواوي، رياض الصالحين.

تحقيق طه عبدالرؤوف سعد: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٩م، ص ٤٠.

(٣) الأنبياء: آية ٢٥.

(٤) النمل: آية ٨٩.

(٥) المجادلة: آية ١١.

(٦) العلق: آية ٥.

كذلك رفع مكانة أصحاب العلم والأخذين به — على سائر مخلوقاته — فساوى أهل العلم بأهل الإيمان حتى يؤكد ضرورته للعباد، فقال تعالى: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"^(١).

ولكي يتمكن العلم والتعليم من الإسهام في إعداد الإنسان العابد التقى كان لابد من الدعوة إلى نشر العلم وأن يتاح لكل من يطلبه، لذلك أمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بنشر العلم بقوله "فلتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا"^(٢). ولذلك فقد اختص الله عباده بالعلم والبيان وشرفهم بإرسال الرسل لتساعدهم على الإخلاص في العبادة^(٣).

ولما كان العلم الذي استهدفه الإسلام ودعا إليه هو العلم الذي من خلاله يتحقق هدف خلق الإنسان، لذا كانت الأولوية لنوع التعليم الذي يساعد على تحقيق ذلك فكان التركيز على تعليم العلوم الدينية والتي أجمع العلماء على أنها فرض واجب على الأمة، وذلك لما يستفيد الإنسان من هذه العلوم فبدراسة القرآن يتعلم الإنسان ما ينفعه ليكون عبداً صالحاً من أمور الحلال والحرام، وفيه القصص الذي يقدم الحكم والمواعظ التي يستتبط منها التحذير والتبشير، كذلك ما بينه من علاقات فوضع أسس المعاملات والعلاقات بين الخلق، كما أشار كذلك إلى باقي العلوم والمعارف التي على المسلم أن يحظى بها^(٤).

والعلم النافع هو العلم الذي ينفع الإنسان في دينه ودينه ويحقق له الأفضل أو كما وصفه الغزالي "العلم في مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام بالدين إلا بنظام الدنيا، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الأميين"^(٥).

ولأن الدنيا هي مزرعة الآخرة فما يقدمه العبد من أعمال في الدنيا يحاسب عليها في الآخرة، لذا فقد كان لزاماً عليه أن يتخير العلم المحمود وهو الذي يساعده على توسعه معيشته ويدفع عنه الضرر كذلك، إذا فالعلم في الإسلام لا يطلب لذاته وإنما لأنه الوسيلة الوحيدة للعبادة الحقة والتي يتطابق فيها القول مع العمل، فكان قول الرسول الكريم (ص) "اللهم انفعني

(١) المجادلة: آية ١١.

(٢) البخاري: الصحيح، ج١، كتاب العلم، ص٣٦.

(٣) عبد الفتاح جلال: من الأصول التربوية في الإسلام، سرس الليان، المركز الدولي للتعليم الوظيفي، ١٩٧٧، ص٩٣.

(٤) السيوطي: الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الهيئة العامة، ١٩٧٤، ج٢، ص٣١: ٣٦.

(٥) الغزالي: أحياء علوم الدين، القاهرة، مكتبة مصر، د.ت، ج١، ص١٢.

بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال^(١).
ولذلك أصبح هدف التعليم في الإسلام هو ما يخدم الدنيا والآخرة، فتم التزود بالعلوم والمعارف التي فيها صلاح الدين والدنيا فكانت علوم الدين والشريعة، وعلوم اللسان والتاريخ والجغرافية والعلوم العقلية بأنواعها فضلاً عما اكتسبوه من مهارات في الحرف والصناعات، فتمكنوا بفضل هذه التربية الجامعة من تشييد حضارة عظيمة قدمت للعالم زادا علمياً وثقافياً كان الأساس وصاحب الفضل في تطوير الحضارة الحديثة بأسرها^(٢).
ثانياً: مؤسسات التعليم في الإسلام:

لعل ما سبق يوضح أنه كان هناك هدف عام في التربية الإسلامية وهو إعداد المسلم العابد، ثم الهدف الديني والذي يحرص على تعريف هذا المسلم بكمارم الأخلاق ولذلك يدرس من خلاله العلوم الدينية والهدف الدنيوي لأعمار الأرض وتطويرها وهو الذي استدعى تزويده بالعلوم والحرف التي من شأنها أن تساعد على ارتقاء المعيشة الدنيوية، ولذلك كان من المتوقع أن تتنوع المؤسسات التعليمية في الإسلام حتى تتمكن من تغطية تلك الأهداف لذلك نجد أن المؤسسات التعليمية في مصر الإسلامية قد انقسمت إلى الآتي:

- مراكز التعليم الديني (الجوامع - الكتاتيب - مجالس المناظرة - الكنائس والأديرة).

- مراكز التعليم العقلي (بقايا مدارس العلوم لمدرسة الإسكندرية للعقلية).
- مراكز التدريب الحرفي (الورش والبيوت).

وفيما يلي الحديث عن كل نوع من تلك المؤسسات:

أ- مراكز التعليم الديني:

الجوامع: حيث أن التعليم وجد في الإسلام - في المقام الأول - من أجل تعليم مبادئ الدين الإسلامي، لذا كان من المنطقي أن تقوم أهم المراكز الدينية بهذا الدور - الجوامع - ومن أجل هذا أصبحت الجوامع هي المركز الرئيسي للحياة العلمية والثقافية في أرجاء العالم الإسلامي ومنها مصر تحقيقاً للهدف الديني في تعليم القرآن وعلومه^(٣).

(١) عبدالفتاح جلال: مرجع سابق، ص ٨٣: ٨٤.

(٢) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م، ج ٢، ص ٣٦، ٣٧.

أيضاً السيوطي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٨: ٣٦ وقد أورد فيها ذكر لأنواع العلوم والحرف المختلفة التي أخذ بها العرب وما جاء من الآيات المؤيدة لذلك.

(٣) طاش كبري زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨، ج ٢، ص ٢٥٩.

وهو ما ليس بجديد على الأرض المصرية - بحال من الأحوال - فقد اعتادت على أن تكون مراكز العبادة هي أهم المراكز التعليمية كما كان في الكنائس والأديرة ومن قبلها المعابد المصرية، كما كان رجال الدين على مر العصور - هم أشهر الأساتذة والعلماء ومن يتولون مهمة التعليم^(١).

ولما كان المسلمون جاءوا البلاد فاتحين لنشر الإسلام بها فكان أول ما اختطه عمرو بن العاص في مدينته هو المسجد الجامع ليكون مركز الديانة والحكم الإسلامي في مصر وهو المسجد الذي عرف بجامع عمرو بن العاص أو تاج الجوامع أو بالمسجد الجامع في عام ٢١هـ، ووقف على بنائه عدد كبير من صحابة الرسول (ص) ولم يتوقفوا عن العمل به حتى وضعوا القبلة وقم اتسم البناء في البداية بالبساطة ولم يكن به صحن أو محراب حينئذ^(٢).

وقد أولى الولاة بعد عمرو عنايتهم بالمسجد لكونه مركز صلاة الجمعة والحكم في مصر فكانت التوسعة المستمرة والتي بلغت ستة عشر مرة قدر مساحته الأولى وقت إنشائه وتعيين المؤننين له، حتى بعد أن كثرت المساجد التي أقامتها القبائل العربية في الفسطاط، ظل هو المركز الديني الأول، فكان يؤذن فيه أولاً للصلاة ثم يؤذن كل مؤذن في الفسطاط بعدها في وقت واحد^(٣).

وقد كان مرجع الاهتمام الذي أولاه الولاة جميعاً بمسجد عمرو أنه لم يكن مجرد مكان لأداء الصلوات بل كان أيضاً مركز الحكم ومجلس القضاء فضلاً عن كونه مركزاً للمحتسب ومقرأً لبيت المال يشرف عليه متولي الخراج الذي كان عادة ما يكون القاضي أيضاً^(٤).

(١) Marrou (H. T.): op. cit., v. 1, p. 133, 134.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٩٩ والذي أوضح أن بساطة البناء كانت هي السمة في المساجد الإسلامية وأن جامع عمرو كان على هيئة جامع دمشق/ وأيضاً ابن الكندي: مرجع سابق، ص ٣٧: ٣٨ والذي وصف مشاركة الصحابة في بناؤه بقوله "قال يزيد بن حبيب المحدث والفقير المصري أنه وقف على إقامة قبلة المسجد الجامع ثمانون رجلاً من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)..."

(٣) المقرئزي: مرجع سابق، ج ٣، ص ١٠٧: ١٠٩/ فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، ج ١، عصر الولاة، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٧٠، ص ٣٦٥: ٣٦٧.

(٤) الكندي: مرجع سابق، ص ٣٨.

بالإضافة لتلك الوظائف الإدارية كان للمسجد وظيفة تهيئيه كذلك في التوجيه للخلق القويم، عن طريق القصص الديني والذي كان يعين له القصص والمذكرين ليدعون للإسلام وخلقهم من خلال العظمة والعبارة^(١).

كذلك كان المسجد هو المركز الرئيسي للدين وعلومه - منذ بدايات تاريخ الإسلام - قبل نشأة المدارس بقرون عن طريق ما يقدمه من حلقات تعليمية شملت كافة العلوم وساعد على ذلك دعوة الخلفاء لنشر ولأحياء العلم في المساجد، كما كان من الخليفة عمر بن عبدالعزيز حين أمر ولاته بنشر العلوم والفقهاء في مساجد الولايات^(٢).

ولم يكن الاهتمام بالعلوم الدينية ونشرها في المساجد راجع للخلفاء والولاة وحدهم، بل أن جمهور المسلمين الجدد كانت لديهم الرغبة في التعرف على أمور دينهم فضلاً عن رغبة الصحابة الفاتحين في نشر تعاليم ومبادئ الإسلام وعلومه، لذلك قامت الدراسات الدينية في المسجد الجامع لتوضح أسس الدين الجديد وأهدافه وأخذت تلك الحلقات العلمية في التعدد والتنوع من قراءات وفقه وحديث وتفسير وعلوم اللغة ثم أخذت العلوم العقلية بعد ذلك طريقها إلى حلقاته كالتطب، وأخذ الطلاب في الإقبال عليها حتى تخرج من المسجد الجامع خيره العلماء والفقهاء^(٣).

وكان التعليم في الحلقات العلمية بالمسجد الجامع يستمر طوال اليوم وفي كافة المجالات، فهذه حلقة للفقهاء وبجانبيها حلقة للنحو وأخرى لرواية الأخبار...، وكان للمتعلّم الحرية في أن يدرس ما يريد على يد من يريد من العلماء، أما عن طريقة الدرس فقد كان الأستاذ يختار كتاباً أو موضوعاً علمياً يقرأه على طلابه ثم يقوم بمناقشتهم فيه، فكان للمعلم أيضاً الحرية الكاملة في تقرير ما يدرسه من علوم كذلك^(٤).

(١) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٨٥٣، ج١، ص١٩١.

(٢) ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبدالعزيز، القاهرة، المؤيد، ١٣٣١هـ، ص٩٣: ٩٤. ابن عبدالحكم: سيرة عمر بن عبدالعزيز، القاهرة، مكتبة وهبه، ١٩٥٤، ص٥٤، ٦٨.

(٣) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، محاولة لتظهير، ج١، طور التكوين، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٠، ج١، ص١٥٧: ١٥٨.

سيده كاشف: مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص٢٨٨.

(٤) ابن رسته: الاعلام النفيسة، تحقيق ذي غويه، ليدن، ١٨٩٢، ص١٢٦/ احمد أمين: ضحى الإسلام، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٣٥، ج٢، ص٦٦.

وقد حظى جامع عمرو بنوابع العلماء من الصحابة ثم من أهل البلاد ففي الحديث درس الطلاب على يد الصحابي الكبير عبدالله بن عمرو بن العاص صاحب صحيفة الصادقة التي كانت أساس علوم الحديث^(١).

كذلك برع في الحديث العالم المصري الليث بن سعد، وفي البقواءات ورش المصري فضلاً عن الكثيرين في الفقه وعلوم اللغة ومن الأخباريين وغيرهم^(٢).

وقد تميز هؤلاء العلماء بالثراء والتنوع المعرفي وكان لكل منهم أكثر من حلقة علمية، فكان الإمام الشافعي يعلم في الصباح علوم القرآن ثم الحديث ثم يعقد حلقات مناظرة في الفقه تليها حلقة لعلوم اللغة وهكذا^(٣).

ولقد كان لجامع عمرو الفضل الكبير في نقل علوم الإسلام إلى بلاد أفريقيا والمغرب والأندلس حيث كان يفد إليه الدارسون ممن غدوا بعد ذلك علماء في بلادهم وارتبطت مذاهبهم الفكرية بمذهب المدرسة المصرية^(٤).

وظل مسجد عمرو المركز العلمي الرئيسي في مصر حتى نشأة الأزهر، رغم إنشاء عدد كبير من المساجد بجانبه وفي أرجاء البلاد بلغت مائتين وثلاثة وثلاثين مسجداً، والتي ساهمت بدورها في التعليم وإن كانت في الأساس مماثلة للمدرسة الأولية - الكتاتيب - لتعليم العلماء مبادئ علوم الدين وتأهيلهم لينتقوا بجامع عمرو بعد ذلك^(٥).

وكان جميع علماء تلك المدارس يعلمون دون مقابل - ابتغاء وجه الله - حتى الفقراء منهم، وإن كانت المساجد وعلماؤها قد حظيت برعاية الخلفاء والأمراء والأثرياء لاستمرار الحياة التعليمية فيها^(٦).

وكان التعليم في مسجد عمرو وغيره من المساجد مفتوحاً للجميع سواء بسواء لا فرق بين غني وفقير أو حر وعبد، كما كان مفتوحاً أمام أهل الذمة يعلمون أبنائهم مع أبناء المسلمين^(٧).

(١) الخطيب البغدادي: تقييد العلم، تحقيق يوسف العشري، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٤٩، ص ٨٢.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، ١٢٩٩هـ، ج ١، ص ٢٨٠، ٢٩٠، ٤٨٥، ٤٨٦.

(٣) الشافعي: الأم، جمع وتصحيح محمد زهري النجار، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ج ١، المقدمة.

(٤) محمد كامل حسن: مرجع سابق، ص ٨١.

(٥) ابن ظهيره: مرجع سابق، ص ١٠٣، ١٠٧.

(٦) ابن قتيبة: المعارف، تحقيق محمد إسماعيل الصاوي، ط ١، القاهرة، المكتب الحسينية، ١٩٣٤، ص ١٧٥.

(٧) سيده كاشف: مصر في عصر الولاة، القاهرة، النهضة العربية، ١٩٤٧، ص ١٧٧.

وكان المعلم لا يجلس للتعليم في المسجد إلا إذا وجد في نفسه الكفاءة وأخذ قدراً كافياً من العلوم يؤهله للإجابة على تساؤلات تلاميذه، ولعل أبلغ دليل على ذلك أن الإمام أبا حنيفة حين استقل لنفسه بحلقة للعلم وسأله طالب سؤالاً لم يستطع الإجابة عنه فض حلفته وعاد لحلقة أستاذه حماد بن أبي سليمان^(١).

الكتاتيب: منذ ظهور الإسلام وقد كان الرسول الكريم يملي الوحي على كتابه فظهرت ضرورة الكتابة في العالم الإسلامي وبدأ الاهتمام بتعلم القراءة والكتابة، وهو الاهتمام الذي ظهر جلياً في أمر الرسول للاساري في غزوة بدر بأن يفتنوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة لعدد من أبناء المسلمين فبدأ الاهتمام بتعليم الغلمان في الإسلام^(٢).

ولما كان الفتح الإسلامي اصطحب الصحابة معهم كثير من أبنائهم فبدأت الرغبة في تعليم هؤلاء المسلمين الصغار فظهر الكتاب في الإحصاء التي فتحت^(٣).

نشأ الكتاب في بادئ الأمر في شكل بناء بسيط وكان يوجد إما ملحقا بالمساجد الصغيرة أو بدور المعلمين حيث يتم تخصيص إحدى الحجرات بها لتعليم الصبيان من أبناء العرب وأبناء أهل البلاد على السواء^(٤).

وقد تم وضع أسس المعارف التي تستحب في تعليم الولدان، فكان يدرس بالكتاب نوعان من المواد التعليمية، أحدهما إجباري وهو القرآن الكريم، أما العلوم الاختيارية فهي الحساب ثم الشعر فأخبار العرب ثم النحو والعربية وتحسين الخطوط^(٥).

أما عن تعليم القرآن فقد كان يلحق للأطفال خمس آيات فخمسة أخرى حتى يتقنوها فكما أوضح الزركشي ذلك بقوله أن "من تعلمه خمسا خمسا لم ينسه"^(٦).

وكان تعليم الأطفال يبدأ بالقرآن ثم مكارم الأخلاق والسنن — كالوضوء والصلاة — فضلا عن الخط والحساب، وكان الصبي بعد أن ينتهي

(١) السيوطي: الاتقان، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٥.

(٢) أحمد شلبي: مرجع سابق، ج ٥، ص ٤٨.

(٣) ابن سحنون: آداب المعلمين، تونس، ١٩٧٢م، ص ٣٣: ٣٤.

(٤) أحمد فؤاد الأهواني: التعليم في رأي القابسي (وبه الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين

وأحكام المعلمين والمتعلمين، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ٨١.

(٥) ابن سحنون: مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٦) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، بيروت،

دار المعرفة، ١٩٧٢، ج ١، ص ٤٥٥: ٤٥٦.

من مرحلة الكتاب يختار ما بين الالتحاق بالمسجد لإكمال علومه أو أن يتوجه للتدريب على إحدى الحرف^(١).

وكان التعليم في الكتاب يعتمد على أسلوب التلقين من المعلم إلى تلاميذه، وكان المعلم شأنه شأن زميله المعلم بالمسجد يرفض أخذ الأجر على تعليم الأطفال، وإن كان بعض الفقهاء أجازوا أخذه للأجر^(٢).

ولم يكن التعليم بالكتاب واحد في كل أقطار العالم الإسلامي وإنما كان كل مصر يختار الأوقات الملائمة لتعليم أطفالهم حتى يتفرغ المعلم تماماً لمعلمه، كذلك اختلفت المناهج أيضاً اختلافاً طفيفاً فبينما اقتصر أهل المغرب على علوم القرآن فقط اقترن تعليم علوم القرآن في دول المشرق ومنها مصر بتعليم الخط وبعض الحساب وكان التعليم فيها يتدرج من التلقين شفاهة إلى التكتيب بعد ذلك أو كثيراً ما كان المعلم يقطع وقتاً إضافياً للتلميذ النابه من طلابه^(٣).

مجالس المناظرة: وهي مجالس المساجد العلمية التي كانت تعقد في القصور والدور والمساجد بين العلماء، وكانت تقام في حضرة الخلفاء والأمراء حيث كان العلماء والأدباء يتبارون في مناظرات فقهية وكلامية أو أدبية في حرية وسماحة كاملين^(٤).

وقد انتشر مجال المناظرات العلمية في مصر في عصر الولاة، وكثرت فيها المجادلات وبخاصة المجادلات الفقهية بين أنصار المالكية والشافعية، وكان كل فريق يسعى لتأكيد وجهة نظره بالرجوع إلى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة حتى يتم ترجيح أحد الآراء أو المذاهب، وقد أكد الإمام الشافعي عن دوره في تلك المناظرات بقوله "ما ناظرت أحداً فأنكر الحجة إلا سقط من عيني، ولا قبلها إلا هبته، وما ناظرت أحداً فباليت مع من كانت الحجة أن كانت معه صرت إليه"^(٥).

ولما كان عصر الولاة هو العصر الذي ظهر فيه الاجتهاد في ميدان العلم والبحث، فقد كانت تلك المناظرات من أهم الأدوات التي استكمل بها الاجتهاد حتى أخذت المذاهب تتضح وتستقل عن بعضها البعض^(٦).

وقد كانت قصور الخلفاء والولاة تستضيف تلك المناظرات بغرض أخذ المشورة واستطلاع رأي الفقهاء حول ما يختلف عليه من أمور الحكم، ولعل أشهر المناظرات التي شهدتها تلك القصور ما كان من شأن الخليفة

(١) الشافعي: الأم، تحقيق محمد النجار، ج١، بيروت، دار المعرفة، (د.ت)، المقدمة.

(٢) ابن سحنون: المرجع السابق، ص ٨٣.

(٣) المرجع السابق: ص ٤٦: ٥٠، ص ٨٣.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج٢، ص ٥٤.

(٥) ابن الجوزي: تلبيس إبليس (أو نقد العلم والعلماء)، القاهرة، الأهرام، د.ت، ص ١٢٠.

(٦) أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٨٩، ٩٠.

المأمون والفقهاء حول خلق القرآن، والتي منع بسببها علماء مصر من التدريس بالمسجد الجامع لرفضهم القول بخلق القرآن حتى أعادهم الخليفة المتوكل له ثانية^(١)

وبالإضافة للمناظرات الدينية حظيت الفسطاط ولا سيما في القرن الثاني الهجري على عيد الوالي عبدالعزيز بن مروان بازدهار كبير للمناظرات الشعرية والأدبية في علوم اللغة وجميل البيان، حيث اشترك في صالوناته الأدبية كثير من الشعراء المتميزين من كل حذب وصوب أمثال نصيب وجميل بثينه وكثير عزه وغيرهم^(٢).

ولقد ساهمت مناظرات اللغة في تصحيح قراءات القرآن، فغالباً ما كانت تعقد المناظرات حول قراءة بعض الآيات ليؤكد المتناظرين على صحة قراءتها وبذلك ساعدت على تثبيت القراءات التي اتفق عليها المسلمون^(٣).

الكنائس والأديرة: قد كانت الكنائس والأديرة قبل الفتح هي مراكز التعليم الرئيسية في مصر وبخاصة بعد القرن الرابع الميلادي - كما سبقت الإشارة - ثم اقتصر دورها بعد الفتح العربي على إعداد رجال الدين والكنيسة، وأخذ دورها في التضاؤل مع كثرة دخول الأقباط المصريين إلى الإسلام وهو ما أشار إليه مؤرخوا الكنيسة أنفسهم كيوحنا النقيوس، والذي أشار أيضاً لعدالة العرب مع رجال الدين وإبقائهم على الكنائس وأموالها واقتصار دورهم الإداري لها فقط على ترشيح البطارقة والذي كان عادة ما يكون استجابة لرغبات مسيحي مصر أنفسهم^(٤).

بقايا مدارس الإسكندرية العقلية: والتي سبقت الإشارة إلى إنحصار دورها منذ ازدهار التعليم القبطي في البلاد إلا أن بقايا بعض المدارس وبخاصة الطب والفلسفة قد استمرت بفضل أساتذتها، وساعد على بقاءها حتى العهد العربي حرص الخلفاء المسلمين وبخاصة العباسيين على نقل علوم الأمم السابقة، فأصبحت مصر ذات شهرة علمية خاصة في الخلافة لبقاء تلك العلوم فيها وبخاصة العلوم الطبية^(٥).

فبدأ العرب ينهلون من معين مراكز الإسكندرية العلمية في العلوم الطبية والفلسفية لنشاطها وذلك لولعه الشديد بعلوم الطب والكيمياء فطلب لليونانيين المقيمين في مصر أن يقوموا بترجمة كتب علوم الطب والكيمياء

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة المصرية، ١٩٨٧، ج٤، ص١٩، ٨٦.

(٢) ابن الكندي: فضائل مصر، مرجع سابق، ص٤٣.

(٣) محمد سمير: أثر القرآن والقراءات في النحو العربي، دكتوراه غير منشورة، جامعة الأزهر، ١٩٧١م، ص١٤٦: ١٤٩.

(٤) عمر صابر: مرجع سابق، ص١: ٥، ٢٠٧.

(٥) أحمد أمين: مرجع سابق، ص١١.

المصرية المكتوبة باليونانية والقبطية إلى العربية، حتى أنه نفسه تعلم الكيمياء على يد أحد رهبان مصر ممن حفظوا أسرار أجدادهم المصريين في هذا العلم (الراهب ماريانوس)^(١).

ولقد تميز العصر العباسي بكثرة ما ترجم من كتب علماء مصر كأقليدس، وارشميدس الرياضي، وكتب الميكانيكا والدليل الجغرافي لبطليموس ونظريات كوبرنيقوس في الفلك وكتب جالينوس التسعة في الطب وغيرها كثير من الكتب لكبار العلماء^(٢).

وكانت المدرسة ذات النشاط الملحوظ في مصر في عصر الولاة - من تلك العلوم - هي مدرسة الطب والتي كان يأتي إليها الراغبون من كافة أرجاء العالم الإسلامي وظلت قوية النشاط حتى أمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز بنقل المدارس العلمية إلى "حران" فأحصرت تعليم الطب في مصر وإن كانت المصادر قد أجمعت على استمرار هذا النشاط العلمي - وإن كلن محدوداً - حتى أوائل القرن الثالث الهجري على الأقل^(٣).

ومما يدعم ذلك ما جاء في سير العابد الزاهد المصري ذو النون وأنه تعلم الكيمياء في أحد أديرة أحميم على الراهب "ساس" والذي قيل أنه لم يلقن هذا العلم لا حد سوى ذو النون^(٤).

ولعل ما سبق يشير إلى أن عصر الولاة في مصر قد حظى بالعديد من العلوم والمعارف العقلية والتي نقلت عن علماء مصر من يونانيين أو رومان وحتى الأقباط إلى اللغة العربية وساهمت بدور كبير في ازدهار الثقافة العلمية للعرب بعد ذلك.

مراكز التدريب الحرفي (الورش والبيوت): استمر التدريب الحرفي في عصر الولاة كشأنه في العصور السابقة ليحفظ لمصر سميتها الشخصية والفنية، واستمرت المؤسسات نفسها من البيوت والورش تقوم بنفس الطريقة في إعداد وتدريب الصناع - كما سبقت الإشارة في الفصل السابق - ولقد حافظ العرب على هذا النمط التعليمي بل وعملوا على الإعتناء به لضرورته

(١) القبطي: أخبار العلماء وأخبار الحكماء، القاهرة، مكتبة المتنبى، ١٣٢٦هـ، ج ١، ص ٤٤٠/

ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، المعهد الفرنسي، ١٩٥٥، ص ٥٩

(٢) الدوميلي: مرجع سابق، ص ٤٤.

(٣) Geary Sobhy: Lectures in the History of Medicine, fuad Univ., Cairo, 1949, p. 54.

(٤) مجهول: مرجع سابق، ص ٥٨.

لشئون الحياة المعيشية وتزايد في عهدهم الطلب على الحرف والصناعات فزادت العناية بها وزادت أعداد القائمين بها كذلك^(١).

واستمرت مراكز الصناعات والورش المتميزة في البهنسا والأشمونيين وأسيوط وأخميم وتيس - مركز صناعة القصب الملون -، واحتوت تلك المراكز وغيرها على كافة أنواع الصناعات من فخار وزجاج و عطور وأخشاب وورق وتعددين وفنون البناء، والتي شارك بها المصريون في اختطاط الفسطاط وجامعها^(٢).

وكان نتيجة لاهتمام العرب بالصنائع أن ظهرت العناية بالتدريب الحرفي وانتشرت الحرف وأنت ثمارها في تخطيط المدن وإقامة المقاييس وحفر الخلجان والقناطر، واستمر التدريب يتم في الورش والبيوت كما جرت العادة - منذ عهد الفراعنة - أن يتخذ الأبناء حرفة آبائهم^(٣).

ومن أبرز النماذج الصناعية التي ازدهرت في العصور العربية كانت حرفة البناء والعمارة فظهرت فنون الحفر والزخرفة والدهانة والتي انتشرت فيما تم اختطاطه من مدن ومساجد ودور وحتى الكنائس وقد أخذ الطابع العربي يظهر على العمارة والبناء^(٤).

كذلك ظلت شهرة النسيج المصري قائمة في عصر الولاة وإن كانت زادت أهميتها لحرص الخلفاء والأمراء على جلب ملابسهم من الكتان والديباج المصري، كذلك منذ أن بدأ الخليفة عمر بن الخطاب في كسوة الكعبة ذات مرة من قباطي مصر، سار الخلفاء بعده على نهجه فأصبحت الكعبة تكسى من قماش مصر مرة بالقباطي وأخرى بالديباج^(٥).

كذلك انفردت مصر بصناعة الورق منذ أقدم عصورها، وأصبح هو الأساس في المكاتبات طوال عصر الولاة تقريبا وانتشرت مصانعه في مصر، ولعل كثرة أوراق البردي المعثور عليها والتي تتناول المكاتبات الرسمية والعقود وحتى الخطابات العامة تؤكد على انتشار صناعته في مصر^(٦). وارتبطت حرفة الوراقين بحرفة النساخ وبخاصة في الأديرة لنسخ

(١) السيد طه ابوسديرة: الحرف والصناعات في مصر الإسلامية (منذ الفتح العربي حتى

نهاية العصر الفاطمي)، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٩١، ص ٢٨٣.

(٢) ناصر حسرو: سفر تامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، هيئة الكتاب، ١٩٩٣، ص

ص ٩١: ٩٣.

العمرى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة،

المعهد الفرنسي، ١٩٨٥، ص ١٦: ١٩.

(٣) ابن ظهيرة: مرجع سابق، ص ١٧٧: ١٧٨.

(٤) فريد شافعي: العمارة العربية، ج ١، ص ٣٥٢: ٣٥٤.

(٥) ابن الكندي: مرجع سابق، ص ٦٨.

(٦) جروهمان: مرجع سابق، ج ٦، ص ١٦، ١٧٣، ج ٥، ص ٧٣: ٧٤، ج ١، ص ١١:

٦١، ج ٤، ص ٣: ٧.

الكتب القديمة والأنجيل والمخطوطات، ثم ازداد ازدهار حرفة النسخ للكتب مع الإسلام فخطوا المصاحف في مصر منذ بدايات الإسلام بها^(١).

كذلك ازدهرت بمصر الصناعات الخشبية بأنواعها وبخاصة صناعة السفن وازدهرت مصانع السفن بجزيرة الروضة في إعدام الأساطيل العربية والتي كان لها الفضل في فتح بلاد المغرب^(٢).

هذا فضلاً عن الصناعات المتنوعة وبخاصة الأدوات الخزفية والزجاجية فضلاً عن الصناعات المعدنية وصناعات الأحجار الكريمة والحلي وسك النقود وكان قبض مصر بارعون في تلك الصناعات منذ عهد الفرعون وقد أضافوا إليها ما يتناسب مع تقاليد العرب كالخزف ذا البريق كبديل عن الأواني الذهبية والفضية المكروهة في الإسلام، كذلك صنعوا السيوف والرماح والعملات الذهبية والفضية التي انتشرت دور ضربها في مصر^(٣).

واستمر التدريب في الورش والبيوت على أسلوب التلقين والمحاكاة، واستمرت النقابة صاحبة الحق في السماح بمزاولة المهنة سواء للرجال أو النساء، وأن اقتصر حرف النساء في صدر الإسلام على حرف النسيج فقط في منازلهم، وأبقى العرب على نفس النظم مع استبدال اسم النظام النقابي باسم الطوائف^(٤).

ومن الواضح أن الإسلام في عصر الولاية في مصر قد تمكن من تحقيق أهدافه التي وضعها لإعداد المسلم العابد حق العبادة فكانت العناية الكبيرة بالمؤسسات التي تقدم علوم الدين - المساجد والكتاتيب ومجالس المناظرات - كما حقق هدفه الدنيوي بإدماج المسلمين في الحياة لتأدية دورهم في تعميمها فكانت مراكز تعليم العلوم الدنيوية كالطب والهندسة ومراكز التدريب الحرفي لازدهار شئون المعيشة اليومية للمسلم^(٥). وهو ما سيتضح بإيضاح أنواع العلوم المختلفة وطرق تدريسها، فضلاً عن طبيعة العلاقة والتبادل العلمي بين المعلم والمتعلم في هذا النظام لبيان قدر المدرسة المصرية المسلمة في تلك الفترة.

(١) السيد طه: الحرف والصناعات، مرجع سابق، ص ٧٣: ٧٩.

(٢) اليعقوبي: البلدان، بيروت، دار الصادر، ج٤، ١٩٨٤م، ص ٣٣٨.

(٣) السيد طه: المرجع السابق، ص ١١١: ١٣٥.

(٤) المرجع السابق: ص ٣٨١: ٣٨٢.

(٥) نجلاء حامد: مصر في عصر الولاية، مرجع سابق، ص ١٣٠.

ثالثاً: المعلمين والمتعلمين وطرق التحصيل العلمي:

لقد أولى الإسلام عناية كبيرة بالمعلمين وضرورة أخذ العلم عن معلم ثقة وعدم الاكتفاء بأخذ العلم من الكتب وحدها^(١).

وقد اتخذ الصحابة درب ومنهج المعلم الأول في الإسلام - الرسول صلى الله عليه وسلم - في نشر تعاليم وعلوم الدين الإسلامي مع فتوحاتهم أينما حلوا، حيث تعمد الخلفاء وبخاصة عمر بن الخطاب تفرقتهم على الجيوش الإسلامية المختلفة لتعليم أهل البلاد التي يفتحونها، وقد اشترك كثير منهم في فتح مصر فكانوا نواة المدرسة الدينية فيها، فضلاً عن لحق بهم بعد الفتح^(٢).

وقد أتى هؤلاء الصحابة إلى مصر متطوعين لنشر الإسلام ولتعليم مبادئه لابنائها فكانوا حملة العلم الأوائل، ومؤسسي أول مدارسها وحلقاتها العلمية في المسجد الجامع، وكان من بين هؤلاء المعلمين الأوائل عبدالله بن عباس (ت ٦٨هـ) في الفقه والتفسير والحديث حتى أنه كان إمام المعلمين ومؤسس المدرسة المصرية الأول^(٣).

وفي القراءات كان القارئ الصحابي "عقبة بن عامر الجهني" (ت ٨٥هـ) وكان يحمل معه نسخة من المصحف الشريف نسخها بيده فكان مؤسس مدرسة القراءات^(٤).

وأيضاً عبدالله بن عمرو بن العاص والذي كان من أبرز مفسري المدرسة المصرية وكان كلما قرأ جزء من القرآن على طلابه فسره لهم، فضلاً عن دوره في مدرسة الحديث حيث كان أكثر الصحابة رواية لحديث الرسول (ص) فضلاً عن أنه صاحب أول مدونه في الحديث كتبها مباشرة عن الرسول وبإذنه وأسماها "الصادقة" وحملها معه إلى مصر ليعلم منها ابنائها^(٥).

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع والمنكلم في أدب العالم والمتعلم، حيدر اباد، ١٣٥٣هـ، ص ٨٧/وقد أكد الزرنوجي على أهمية المعلم بقوله "يحتاج في التعلم إلى جد الثلاثة فالمتعلم والأستاذ والأب" تعليم المتعلم طريق التعلم، ط ١، القاهرة، مطبعة التقدم العلمية، ١٣١٩هـ، ص ١١.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٩: ١٤٠، وقد ذكر أسماء جميع الصحابة ممن نزلوا إلى مصر مع جيش الفتح.

(٣) ابن قتيبة: المعارف، تحقيق محمد إسماعيل الصاوي، القاهرة، المكتبة الحسينية، ١٩٣٤، ص ١٢٤: ١٢٥.

(٤) ابن الأثير: أسر الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البناء، القاهرة، دار الشعب، ١٩٧٣، ج ٣، ص ٤١٧.

(٥) الذهبي: تذكرة الحفاظ وطبقات الحفاظ، حيدر اباد، ١٣٣٣هـ، ج ١ ص ٣٥: ٣٦.

وبالإضافة للعلوم الدينية فقد حمل هؤلاء الفاتحون معهم لغتهم العربية وعلومها، كذلك كان لهم الفضل في ظهور علم التاريخ بفضل القصص القرآني والذي كانوا يستخدمونه للوعظ والإرشاد وتخرج على يديهم الرواة والاختباريون ثم تلاهم جيل من المؤرخين^(١).

وقد تتلمذ على هؤلاء المعلمين الأوائل التابعون من العرب أولاً ثم بدأ ظهور المصريون حتى بدأ أهل البلاد يكملوا البنين العلمي لمدرسة الفسطاط حتى غدت مدرسة علمية كبيرة وقبلة لجميع المعلمين والمتعلمين وكان منهم العلماء الكبار ممن صارت لهم حلقات علمية داخل وخارج مصر في كافة الأمصار الإسلامية لشهرتهم، ومن هؤلاء العلماء المصريين اللبث بن سعد المصري في الفقه والمحدث الكبير عبيد بن جبر القبطي (ت ٧٤هـ) ويزيد بن ابن حبيب (ت ١٢٨هـ) وعالم القراءات ورش المصري (ت ١٧٩هـ) المفسر الكبير الذي اشتهرت كتبه في التفسير في إرجاء العالم الإسلامي وكان لكل واحد من هؤلاء وغيرهم كثيرين ممن أظهرتهم كتب الطبقات في العلوم المختلفة مدرسة علمية كبرى بعلومه ومعارفه^(٢).

كذلك برع المصريون في علوم اللغة وكان منهم النحوي المصري "أحمد بن يحيى التيجي المصري" (ت ٢٥٠هـ) والذي أتى عليه جميع علماء وشيوخ اللغة حتى أن الإمام الشافعي نفسه كان يأخذ عنه ويحضر حلقاته^(٣).

كما كان لهم الفضل في ظهور علم التاريخ من كنف علم الحديث في المدرسة المصرية والتي حولت الرواية التاريخية إلى منهج تاريخي على يد المؤرخ المصري الشهير ابن عبدالحكم (ت ٢٥٧هـ) وهو صاحب أول كتاب في تاريخ مصر الإسلامية وهو "فتوح مصر والمغرب" والذي أخذ فيه عن الاختباريين المصريين^(٤).

كذلك كان هناك دوراً كبيراً للعلماء الوافدين للبلاد ممن رغبوا في أن يدرسوا أو يدرسوا في واحدة من أشهر المدارس الإسلامية وكان منهم

(١) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، القدس، مطبعة الترقى، ١٣٤٩هـ، ص ٤٠.

(٢) عن هؤلاء العلماء من المصريين يمكن الرجوع إلى:

- الذهبي: مرجع سابق، ص ٢٧٧ وما بعدها.
- ابن سعد: الطبقات الكبرى: بيروت، ١٩٥٧م، ج ٧.
- ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق محمد الأحمدى، دار التراث، ١٩٧٤م، ص ١٥ وما بعدها.
- (٣) القفطي: انباه الرواة على انباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الكتب العربية، ١٩٥٠، ج ١، ص ٥٢.

(٤) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، مصدر سابق، المقدمة.

الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) وابن هشام صاحب السيرة النبوية (ت ٢١٣هـ) وغيرهم كثيرون من علماء المغرب والأندلس^(١).

وقد كان لهؤلاء العلماء جميعاً مكانة متميزة في مصر علمياً وثقافياً واجتماعياً وحتى مالياً.

فمن مكانتهم العلمية والثقافية، فقد بلغ علماء المدرسة المصرية شهرة كبيرة وعرفوا بغزارة علومهم ومعارفهم وغلبت عليهم الثقافة الموسوعية وامتلاً تاريخ هؤلاء العلماء بالأمثلة فمثلاً قيل عن الليث "ما رأيت أحداً أكمل من الليث، كان فقيه البلد، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، يحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة"^(٢).

وقد اشتهرت حلقات العديد من العلماء المصريين كابن وهب وورش والنحوي ابن ولاد وغيرهم، وكان من أسباب الشهرة العلمية لهؤلاء العلماء حرصهم على الأخذ على أفضل العلماء كذلك تكوينهم لمناهجهم الخاصة فضلاً عن مناظراتهم المتميزة مع طلابهم بالإضافة إلى ما دونوه من كتب لتدريسها على طلابهم أيضاً^(٣).

وكان المعلم كلما زادت كفاءته وبقته العلمية زاد عدد مريديه وكثرت وفود الطلاب على حلقاته العلمية حتى أن تلميذ الإمام الشافعي الربيع بن سليمان قال عن أستاذه "رأيت على باب دار الإمام الشافعي سبعمائة راحلة تطلب سماع كتبه"^(٤).

وكان ينبغي على المعلم أن يكون قديراً وكفئاً في إدارة المناقشات والمناظرات العلمية وإلا أنقضى عنه طلابه وذهبوا لغيره من العلماء^(٥).

أما عن الوضع الاجتماعي لهؤلاء العلماء، فقد كانوا يعدون من أبرز وأهم الشخصيات التي تحظى بالإجلال والتقدير من الخلفاء والأمراء والولاة وحتى العامة فهم رجال العلم وأصحاب الرأي والمشورة فكان الولاة حريصين على استقنائهم في كافة أمور الحكم وحتى تعيين القضاة وفي القضايا الفقهية كذلك^(٦).

(١) ابن هداية: طبقات الشافعية، بغداد، المكتبة العربية، ١٣٥٦هـ، ص ٢

ابن هشام: السيرة النبوية، الإسكندرية، مكتبة حميدو، (د.ت)، ج ١، المقدمة، ص ٦: ٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباسي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨، ج ٣، ص ٢٨١.

(٣) السيوطي: مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٥.

(٤) ابن حجر العسقلاني: توالي التأسيس بمعالي ابن أدريس، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٤، ص ١٦٨.

(٥) المالكي، رياض النفوس: تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥١، ج ١، من الفتح إلى آخر سنة، ٣٠٠هـ، ص ١٧٣: ١٧٩.

(٦) الكندي: مرجع سابق، ص ٤٣٣: ٤٣٤، ٣١٤.

وعن مكانتهم المالية وبالرغم من اختلاف أحوالهم المالية إلا أن السمة الغالبة في عصر الولاة أن هؤلاء كانوا يعلمون دون مقابل طلباً للأجر والثواب — على نهج الرسول الكريم — وكان من يملك المال منهم ينفق على زملائه وطلابه كذلك كالإمام الليث بن سعد وابن عبدالحكم^(١).

ولأن الدولة لم يكن لها تدخل مالي في العملية التعليمية فقد كان لهؤلاء العلماء الحق في تدريس ما يشاءون وقتما يشاءون وأيضاً في اختيار طلابهم والمناهج التي يدرسونها لهم كذلك^(٢).

ورغم أن جمهور الفقهاء قد أجاز أخذ الأجر عن التعليم إلا أن غالبية هؤلاء العلماء رفض ذلك، وكان الإنفاق على التعليم في الحلقات العلمية يكون إما من أموال العلماء أو ما يمنحه الخلفاء والأمراء الأغنياء وذلك بهدف استمرار العملية التعليمية^(٣).

المتعلم: اتصف المتعلمون في عصر الولاة بغدد من السمات العامة والتي كان من أهمها الحرية العلمية الكاملة للمتعلم، فقد كان للمتعلم حق اختيار من يرغب في أن يتعلم على يديه من العلماء أو الشيوخ، كذلك اتاحت له الحرية في أن ينتقل من حلقة علمية لأخرى وفق ما يرغب في أن يدرسه^(٤).

وقد ساعدت الحرية العلمية للمتعلمين على انتقاء واختيار أفضل العلماء وأكثرهم ورعاً وأغزرهم علماً ومعرفة، فضلاً عن دراسة ما يبغونه من علوم ومعارف كذلك^(٥).

ولم تقتصر حرية المتعلم على اختيار شيوخه وعلمائه أو ما يرغب في دراسته من علوم فقط فقد كان له الحق كذلك في تحديد الأوقات التي يرغب في أن يدرس فيها بالإضافة لاختيار المصر الذي يرغب في أن يدرس على علمائه، ولذلك حظى المسجد الجامع بكثير من الدارسين من كافة الأنحاء وبخاصة من بلاد المغرب والأندلس ممن نقلوا مذهب وأسلوب الطريقة المصرية لتلك البلاد^(٦).

وقد كان للحرية العلمية للمتعلم أكبر الأثر في شيوع التنوع والشمول المعرفي لديهم، حتى يمكن أن يطلق عليهم تجاوزاً أصحاب الثقافة

(١) ابن الجوزي: صفة الصفوة، مرجع سابق، ج٤، ص ٢٨٥.

(٢) الأهواني: مرجع سابق، ص ٢٠١.

(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج٢، ص ٦٦: ٦٧.

(٤) الزرنوجي: مرجع سابق، ص ٦.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٠٩.

(٦) ابن ظهيره: مرجع سابق، ص ١٩٢/

ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، تصحيح السيد عزت العطار، ط٢، القاهرة،

الخانكي، ١٩٥٤، ج٢، ص ١٣٧، ص ١٢١.

الموسوعية وهو ما وصفه الخطيب البغدادي بقوله "وهناك فقيه يجمع بين الحديث والرأي والمحدث كان فقيهاً..."^(١).

كذلك اتسم الطلاب في ذلك العصر بعدد من السمات العامة - آداب المتعلمين - والتي كان من أهمها أنهم نظروا للعلم على كونه فريضة إسلامية ومن ثم ينبغي ممارسته بإخلاص وأن يكون لوجه الله تعالى ولذات العلم بدون أغراض دنيوية^(٢).

ومن السمات أيضاً هو تخصيص الطالب لوقته بالكامل للعلم، كما ذكر الزرنوجي بقوله: "لطالب العلم أن يكون متأملاً في جميع الأوقات في دقائق العلوم .. ويكون مستقيماً في جميع الأحوال والأوقات من جميع الأشخاص..."^(٣). ولذا كان حرص طلاب العلم على الإنشغال بالعلم غالبية وقتهم وحضور أغلب الحلقات العلمية والأخذ عن كل ما يستطيعوا من الشيوخ.

كذلك اتسم المتعلمون في تلك الفترة بالعلم الموسوعي كاساتذتهم فكان كل منهم يحرص على أخذ عدة علوم ومعارف مختلفة ويبدأ بواحد تلو الآخر حتى يحصلها وفي ذلك قال الغزالي عنهم أنهم كانوا "لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علماً وعملاً"^(٤).

ومن أجمل السمات العلمية للمتعلم في ذلك العصر أنه كان يستمر في الدرس طوال حياته مع الجد في التحصيل فكانت الإجابة هي السمة الغالبة فضلاً عن التفريغ التام للعلم لا يشغلهم شيء عن تحصيله^(٥).

هذا بالإضافة لكثرة الترحال طلباً للعلم على كل عالم وشيخ شهير وهي السمة الغالبة على هذا العصر ولا سيما طلبة مدرسة الحديث المصرية للثبوت من صحة أحاديث الرسول^(٦).

أيضاً كان الطلاب ملتزمون بالإفادة من الأساتذة بالسؤال والاستفسار ومناظرتهم، ثم تأتي مرحلة تدوينهم لعلم هؤلاء الأساتذة^(٧).

(١) الخطيب البغدادي: مرجع سابق، ص ١٨ : ٢٠

(٢) الغزالي: أحياء علوم الدين، القاهرة، مكتبة مصر، (دبت)، ج١، ص ٤٩ /

ولعل أكبر دليل على تفضيل هؤلاء العلماء للعلم عن أي من أمور الدنيا ما ذكره ابن الكندي، من أن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قد سأل العالم المصري يزيد بن حبيب إمارة البلاد بعد أن سطع نجمه إلا أنه اعتذر له حتى لا يشغله شيء عن التعليم والتعلم، فضائل مصر، ص ٤٠.

(٣) الزرنوجي: مرجع سابق، ص ١٧، ٢١.

(٤) الغزالي: المرجع السابق، ج١، ص ٥١ : ٥٣.

(٥) الزرنوجي: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٦) المقرئزي: الخطط، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٦٠.

(٧) المالكي: رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس، الجزء الأول من الفتح إلى آخر سنة ٣٠٠هـ، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥١، ص ١٧٣ : ١٧٨.

أما عن إجازة هؤلاء الطلاب فقد كان العالم عادة ما يتخير من بين نبغاء طلابه من يخلفه في حلقة أو ينوب عنه إذا تخلف عنها لأي سبب وهي ما كانت تعد إجازة من الأستاذ لطلابه بحصوله على القدر الملائم من العلم الذي يسمح له بالتدريس، وذلك مثلما اتخذ المؤرخ المصري بن عبدالحكم تلميذه أشهب ليكون مساعداً ومعيداً لعلومه على طلاب حلقة كما أوصى له بها من بعده^(١).

وتلك الآداب والصفات الحميدة ساهمت في استمرار الدرس والتخصيل، كما ساهمت في جودة العلاقة بين الطالب وأساتذته واحترام الطالب الكبير لهم، كذلك أسفرت عن تخريج أجيال من الأساتذة الأجلاء ممن اشتهرت بهم المدرسة المصرية العلمية في المسجد الجامع والتي غدت بهم قبلة أساتذة وطلاب العلوم المختلفة من كافة أرجاء العالم الإسلامي وقتئذ^(٢).

طرق الدرس والتحصيل:

والتي ظهر من خلالها ثلاث طرق رئيسية وهي: الرحلة العلمية – التلقين والاستماع – التدوين.

وعن الرحلة العلمية: فقد أدى توالي الفتوح العربية وانتشار الصحابة تفرقهم في الأمصار إلى أن صار كل إقليم متأثراً بعلمائه وفي نفس الوقت في احتياج إلى علوم ومعارف باقي العلماء في باقي الأمصار، لذا فقد كانت الرحلة العلمية من أنسب الوسائل في تلقي هؤلاء للعلم من أصوله، فضلاً عن أثرها في التبادل العلمي والمعرفي^(٣).

فكان في البداية رحيل طلاب مصر للمدينة أو دمشق أو العراق طلباً للمزيد من العلم، ثم عادوا بتلك العلوم لينقلوها هم بدورهم لطلاب أفريقيا والمغرب والأندلس، وقد ساعد بدرجة كبيرة على ازدهار الرحلة العلمية اعتقاد طلاب العلم أن علمهم لا يكتمل إلا بقاء أكبر عدد من المشايخ الراسخين في العلم الذي يعينهم ليتقنوا من علمهم.

كذلك كانت طريقة التلقين والاستماع من الطرق الأساسية للتعليم في صدر الإسلام وعصر الولاة وذلك لما اعتاده المسلمون من الأخذ شفاهه عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد صار الصحابة على منهجه في سائر البلدان المفتوحة^(٤).

ولعل أكبر العوامل وراء انتقال العلم شفاهه وعدم تدوينه حتى وقت متأخر هو كراهية الصحابة في التدوين حتى للحديث النبوي حتى لا يكون

(١) ابن الجوزي: صفة الصفوة، الهند، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٦هـ، ص ٤١٩؛ ٤٢٠.

(٢) نجلاء حامد: التعليم في عصر الولاة، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٣) ابن عبد البر: جامع بيان العلم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨، ج ١، ص ١٠.

(٤) ابن خلدون: المرجع السابق، ص ٥٣٤.

مع القرآن كتاب آخر، لذا كان العلم طوال عصر الولاة تقريباً يلقتن من أفواه المشايخ للطلاب، حتى استدعت الحاجة للتدوين حين توفي عدد كبير من الصحابة في الفتوحات وخشى الخلفاء من ضياع العلم فبدأ انتشار التدوين للعلم في العالم الإسلامي^(١).

حقيقة الأمر أن التدوين بدأ بصورة محدودة منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين دعا لتدوين القرآن ونها عما دون ذلك، إلا أنه أيضاً سمح لعبد الله بن عمرو بن العاص أن يكتب عنه الصادقة، ولما ظهر الخلاف حول قراءة القرآن أمر الخليفة عثمان بتوحيد المصحف ووزع منه نسخ على الأمصار الإسلامية^(٢).

ولما كان عصر الدولة الأموية بدأ التدوين لجميع المعارف من أنساب وإشعار وعلوم دينية فضلاً عن العلوم العقلية والتي كان للمدرسة المصرية دوراً كبيراً فيها حيث اشترك فيها علماءها وشاعت مؤلفاتهم العلمية في العالم الإسلامي^(٣).

ولقد ساعد انتشار قراطيس وأوراق البردي المصرية على نمو وانتشار حركة التدوين في مصر، والتي ساعدت أيضاً على انتشار طريقة الإملاء فأملى العديد من علماء مصر علومهم على طلابهم وظهرت العديد من الكتب "كالأم" للشافعي و"مختصر المزني" و"مختصر البيهقي" لتلاميذه وغيرها من المدونات هذا بالإضافة لما تم من نسخ كتب الحضارات السابقة على العرب والتي احتوت كافة العلوم والمعارف حتى يفيد بها الدارسون وطلاب العلم في أرجاء العالم الإسلامي^(٤).

وكما ساهم الدور الكبير للعلماء وطلابهم في ازدهار العلم في المدرسة المصرية العلمية كذلك أدى تنوع العلوم والمعارف التي قدمت فيها في عصر الولاة إلى الازدهار والتقدم العلمي والثقافي بها والذي نشر آثاره أيضاً على بلدان المغرب والأندلس وعن أقسام هذه العلوم فقد تمثلت في الآتي:

أقسام التعليم وعلومه في المدرسة المصرية:

أولاً: التعليم الديني: والذي انقسم إلى:

١- العلوم الدينية (القراءات - التفسير - الفقه - الحديث).

(١) ابن عبد البر: مختصر جامع بيان العلم وفضله، لختصار أحمد البروني، القاهرة، مطبعة الموسوعات، ١٣٢٠، ص ٣٤: ٣٥.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب العلم، ج ١، ص ٢٥.

(٣) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج ٢، العصر الإسلامي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣، ص ٧.

(٤) الثعالبي: الطائف المعارف، ترقية إبراهيم الإبياري، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي، ١٩٦١، ص ١٦١.

٢- العلوم اللغوية (الأدب {نثر وشعر} - النحو واللغة).
وقد اتصل بالتعليم الديني بعض المعارف التي كانت تدرس إلى جوار علومه وهي التاريخ والتصوف.
ثانياً: التعليم الدنيوي (العلوم العقلية = علوم البرهان).
(الطب والكيمياء والصيدلة - الرياضيات - الفلسفة وعلم الكلام).
أولاً: التعليم الديني: ١- العلوم الدينية:

القراءات: وهو العلم الذي ظهر على يد "القراء" من الصحابة اللذين حفظوا القرآن عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكان بذلك أول العلوم التي انتقلت معهم في حروبهم للبلدان التي فتحوها، وقد حظيت الفسطاط بالعديد من القراء، فضلاً عن مصحف عقبة بن عامر المدون والذي نسخته لنفسه بيده^(١).

وقد ظهر الاهتمام بقراءة القرآن في مصر حتى صار أصل التعليم الديني فيها، وكان مصحف عثمان بمسجد عمرو بن العاص هو الأساس للأقراء في المدرسة المصرية، حتى قام الوالي عبدالعزيز بن مروان بنسخ نسخة خاصة للمدرسة المصرية واستوثق من صحتها بواسطة القراء فصارت النسخة الوحيدة يقرأ فيها القراء كل يوم جمعه ثم تعاد لدار الإمارة^(٢).

وبدأ الدور المصري في علم القراءات برحيل أبناء مصر للمدينة طلباً للقراءة على (نافع بن نعيم ت ١٦٤هـ) فقيه أهل المدينة، وكان ممن رحلوا إليه الليث بن سعد المصري، والذي نقلها لمدرسة الفسطاط وكان يشرح خصائصها لتلاميذه، حتى كان تلميذه "عثمان بن سعيد المصري ت ١٩٧هـ" والذي عرف "بورش" - لشدة بياضه - والذي اتخذ لنفسه طريقة مخالفة لنافع عرفت باسمه أصبحت الأساس في بلاد المغرب والأندلس بعد ذلك، وقد استمرت قراءته رمزاً للمدرسة المصرية لقرون عدة^(٣).

وكان تعليم القراءات يتم عن طريق سماع التلميذ من لفظه، ثم يقرأ على شيخه حتى يجيزه، ثم يبدأ التلميذ بعد القراءة في حفظ قراءة أستاذه والقراءة بها في حلقة بعد إجازة شيخه له حتى يتيقن من إجادته لها فيكون

(١) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، مرجع سابق، ص ١٤١: ١٤٥.

(٢) ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأمصار، بولاق، المطبعة الأميرية، ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٣م، ج ٤، ص ٧٢: ٧٣.

(٣) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣٣، ج ١، ص ٥٠٣.

التلميذ حلقة الخاصة به بعد ذلك، وكان يشترط في المقرئ الجيد أن يتقن قراءتين أو ثلاثة ثم يتخصص في إحداها بعد ذلك^(١).
التفسير: وهو العلم الذي يقصد به فهم كتاب الله - القرآن - وبيان معانيه وأحكامه^(٢).

وكان التفسير يتم إما بطريقة النقل - عن الصحابة السابقون - أو بالرأي - كما كان من الفقهاء على المذاهب الأربعة - وكان يشترط في المفسر الإلمام بأسباب النزول وعلوم اللغة والنحو والقراءات والفقه والحديث وحتى تاريخ العرب^(٣).

وقد حظيت مدرسة الفسطاط بوجود "عبدالله بن عباس ت ٧٨هـ" ابن عمر الرسول وأحد المفسرين العشرة الأوائل، وكان لابن عباس صحيفة يعلم منها تلاميذه فكانت سبباً لرحيل كثير من طلاب العلم للأخذ منها إلى مصر^(٤).

وقد وضع ابن عباس أسس علم التفسير في المدرسة المصرية بما أضافه له من خصائص كالاستشهاد بالشعر والاهتمام بالقرائن المفسرة، وهو المنهج الذي ظل قائماً إلى ما بعد نهاية القرن الرابع الهجري^(٥).

ولقد كان لأبناء مصر دوراً بارزاً في علم التفسير كذلك وبخاصة العالم المصري "عبدالله بن وهب" والذي لازم مالك لسنوات طويلة ونشر مذهبه وكتبه في مصر، وقد تميز ابن وهب بإضافاته الفقهية في تفاسيره^(٦).

كذلك ساعدت إقامة الإمام الشافعي في مصر على ازدهار علم التفسير بها وكان له حلقة علمية كبيرة بالمسجد الجامع، ووردت تفاسيره داخل مصنفاته التي دونها عنه تلاميذه ومنها "الرسالة القديمة" و"الأم" والذي ظهر فيها أسلوب الاجتهاد بالرأي في التفسير^(٧).

(١) السيوطي: الاتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤٣: ٣٤٥، ٣٥٣: ٣٥٥.

(٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٢، ج ١، ص ١٣.

(٣) محمد بلتاجي: بحوث إسلامية في التفسير والحديث وأصول التشريع، القاهرة، مكتبة الشباب، ١٩٧٤، ص ١١: ١٥.

(٤) ابن الجوزي: صفة الصفوة، مرجع سابق، ج ٤، ص ١١٧.

(٥) الجنابي: الدراسات اللغوية والنحوية في مصر منذ نشأتها حتى نهاية القرن الرابع الهجري، بغداد، الجامعة المستنصرية، ١٩٧٨، ص ٩٨: ١٠٢.

(٦) الذهبي: مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٧: ٢٨٠.

(٧) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ط ١، القاهرة، المطبعة الحسنية المصرية، ١٣٢٤هـ، ج ١، ص ٢٣١.

علم الفقه: وهو العلم الذي افترضته الحاجة إلى الأدلة الشرعية من قرآن وسنة لتحديد أحكام وفروض الدين الإسلامي^(١).

وكان علم الفقه يستقي من أربع منابع وهي القرآن الكريم – السنة النبوية – الأخذ بالرأي (الاجتهاد) – الإجماع، ولما غدا علم الفقه من أهم العلوم الدينية، بدأ ظهور علماء الفقه ممن وضعوا الكتب في أصول وفروع ومذاهب هذا العلم، وصار لكل بلد مذهب الفقهي الخاص فأخذ أهل مصر بفتاوى مؤسس مدرستها الدينية عبدالله بن عمرو بن العاص ت ٦٤هـ^(٢).

وقد ساهم أبناء مصر في ازدهار مدرسة الفقه فيها، مثلما كان من الفقيه أبو الخير بن مرثد المصري ت ٩٠هـ، والذي كان الوالي عبدالعزيز بن مروان لا يأخذ في أمر من أمور الدولة إلا بالرجوع إليه^(٣).

كذلك ساهمت المدرسة المصرية بدور كبير في ازدهار الفقه على المذاهب الأربعة بفضل كثرة الحلقات والمناظرات والمساجلات العلمية بين فقهاء واتباع تلك المذاهب^(٤).

ولقد تنوعت طرق تدريس الفقه في المدرسة المصرية، فكانت هناك الرحلة العلمية من أجل الأخذ عن الفقهاء وإثراء المناظرات الفقهية العلمية، هذا بالإضافة لطريقتي التلقين والتدوين، وقد ساهم هذا التنوع في كثرة المصنفات الفقهية التي وضعت في مصر وكانت تدرس في حلقاتها^(٥).

علوم الحديث: وكان من أهم العلوم التي حظيت بعناية علماء عصر السيادة، وذلك لأهميته كمصدر ثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم^(٦).

وقد بلغ المحدثون منزلة كبيرة في الإسلام، حتى أن لقب "العالم" كان لا يمنح إلا للمتحدث جامع الحديث بجوار علوم القرآن، ومن ثم كان حوص الصحابة والتابعين على الأخذ بعلوم الحديث^(٧).

ولقد حظيت المدرسة المصرية بنزول عدد كبير من الصحابة السيادة للحديث إلى أرضها بلغوا نحو الثلاثمائة فضلا عن التابعين^(٨).

(١) المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٢) ابن عبد البر: مختصر جامع بيان العلم، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(٣) الكندي: مرجع سابق، ص ٣٠٨: ٣١٠.

(٤) نجلاء محمد حامد: التعليم في عصر السيادة، مرجع سابق، ص ١٧٩: ١٨٤.

(٥) ابن النديم: الفهرست، طبعة ليبسك، ١٨٧٢م، ص ٢٠٩: ٢١٢، ج ١، ص ١٣: ١٤.

ج ١، ص ٢٣، باب التناوب في العلم.

(٦) الزركشي: مرجع سابق.

(٧) البخاري: مرجع سابق.

(٨) السيوطي: حسن المحاضرة، مرجع سابق، ج ١، ص ١٤٠: ١٦٠.

وكان فضل تأسيس مدرسة الحديث عائداً إلى عبدالله بن عمرو بن العاص صاحب المدونة الشهيرة - الصادقة - والتي كان يعلم منها طلابه من أهل مصر^(١).

وقد تطورت طرق تدريس الحديث في المدرسة المصرية تبعاً لتطور علم الحديث، فكانت الطريقة الشفهية هي المستخدمة أولاً، ثم نتيجة للخوف من الأحاديث المخلوطة بدأ المسلمون في تدوينه، وكان الفضل في ذلك للخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز، فكان أول تدوين رسمي للحديث^(٢). ثم كانت الرحلات العلمية لرواة الأحاديث والتي ساعدت على نشأة طريقة الجرح والتعديل - لتوثيق الأحاديث - للتأكد من الأحاديث الصحيحة والمخلوطة^(٣).

وكان للمدرسة المصرية وعلماؤها دوراً كبيراً في تدوين الأحاديث، كالعالم "يزيد بن حبيب المصري ت ١٢٨ هـ" وعبدالله بن لهيعة المصري ت ١٧٤ هـ" والذي أملى صحائفه على تلاميذه فكانت أقدم الصحائف التي عثر عليها في علم الحديث حتى الآن^(٤).

هذا فضلاً عن عبدالله بن وهب الذي اشتهر بأنه أكثر أهل زمانه حفظاً للأحاديث، وأنه روي مائة ألف حديث جمعها من كافة أرجاء البلاد ودونها في مصنفاته التي بلغت نحواً من مائة كتاب^(٥).

وقد بلغ من شهرة ودقة علماء الحديث المصريين أن قدم إلى مصر جامعي الأحاديث الصحيحة للأخذ عن علمائها كالبخاري ومسلم^(٦).

وبالإضافة للمدرسة المصرية الدينية بلغت المدرسة المصرية في علوم اللغة منزلة كبيرة كذلك بعلمها المختلفة من أدب ونحو وعروض وبلاغة وغيرها.

٢- العلوم اللغوية:

الأدب وأقسامه: الشعر والنثر: فعن الشعر: فقد حظيت الفسطاط بمدرسة خاصة بفضل حلقاتها الأدبية الثرية وانتشر فيها الشعر بأنواعه وبخاصة في عهد عبدالعزيز بن مروان من كانت صالوناته مركزاً لأشهر شعراء العرب

(١) الشبرازي: طبقات الفقهاء، بغداد، المكتبة العربية، ١٣٥٦، ص ٢٠: ٢٢

(٢) الخطيب البغدادي: مرجع سابق، ص ١٠٦: ١٠٧.

(٣) آدم منز: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبدالهادي، ط ٢، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٤٧، ج ١، ص ٢٧١: ٢٧٣.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، ١٩٨٥م، ج ١، ص ٢٨٣: ٢٨٤.

(٥) محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية في عصر الولاة، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩.

(٦) السيوطي: حسن المحاضرة، مرجع سابق، ص ٧٠.

كأيمن بن حزيم ونصيب بن رياح وابن قيس الرقيات وكثير وجميل وغيرهم^(١).

كذلك كان للنثر الأدبي من خطابه ووصايا أو الرسائل دوراً كبيراً في المدرسة المصرية منذ الفتوحات العربية لمصر والذي ظهر في وصايا عمرو بن العاص لجنوده حول معاملة أهل البلاد^(٢).

وقد ارتبطت الخطابة في مصر بإصلاح أحوال المسلمين وتنظيم العلاقات ما بين العرب والقبط وتحديد الحقوق والواجبات، وقد ساهم انتشار الخطابة والرسائل في مصر إلى ظهور فئة من الكتاب حرصوا على إتقان اللغة العربية^(٣).

النحو واللغة: حيث ظهر علم النحو لحرص الصحابة على القراءة الحسنة للقرآن ولضبط كلمات لغتهم فكان من أول العلوم التي تدرس حتى في الكتاب لصغار المسلمين^(٤).

وقد ازدهرت مدرسة الفسطاط بفضل علماء النحو كالقارئ المصري "ورش" و"أحمد بن يحيى التجيبي ت ٢٥٠هـ" والذي أتى عليه الإمام الشافعي وأخذ عنه^(٥).

وقد حظيت المدرسة المصرية بكثير من المناظرات اللغوية بفضل علماءها من المصريين والوافدين كابن هشام صاحب السيرة النبوية، وابن ولاد المصري النشأة ممن انتشرت مدوناتهم كأساس للمناهج الدراسية في المدرسة المصرية^(٦).

التاريخ: والذي بدأ الاهتمام به حين أراد الخليفة عمر بن الخطاب أن يضع تاريخاً للناس يتعارفون عليه لضبط وترتيب حوادثهم الهامة وجعله مع بدء هجرة النبي ولذلك عرف بالتاريخ الهجري^(٧).

(١) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج٢، العصر الإسلامي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣، ص ١٦٧، ١٦٨.

وقد أورد الحصري القيرواني جميع قصائد الشعراء في مصر وبخاصة أبو النواس في عصر الولاة، زهر الآداب.

(٢) عبدالرازق حميده: الأدب العربي في مصر، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٥١، ص ٢١.

(٣) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، مرجع سابق، ص ١٧٩.

(٤) ابن سحنون: مرجع سابق، ص ٤٢: ٤٤.

(٥) القفطي: أنباه الرواه على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، دار الكتب، ١٩٥٠، ج١، ص ٥٢.

(٦) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، القاهرة، ١٩٥٤م، ص ٢٣٣.

(٧) السيوطي: الشماريخ في علم التاريخ، تحقيق عبدالرحمن حسن محمود، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩١، ص ١٢.

وقد برز علم التاريخ متأثراً بالقصص في القرآن الكريم فكان تطوره أولاً في مجالس القصص ثم مجالس الرواة والإخباريين حتى أصبحت كتابات تاريخية بصورتها المتعارف عليها، فكانت وظيفة القصص من الوظائف الرئيسية في المسجد الجامع، ثم ما لبثت تلك المجالس مع القرن الثاني الهجري أن تحولت لرواية الأخبار عن الرسول والصحابة وفئة الرواة هي الفئة التي نشأت مع التوثق من الأحاديث والمحدثين فكان غالبية الرواة من المحدثين^(١).

ثم بدأ أبناء مصر في الاعتناء بتدوين السير والمغازي، فكانت مصنفات بن وهب والذي نقل عنه المقرئ في "الخطط" والذي أخذ عنه ابن هشام ثم المؤرخ المصري ابن عبدالحكم صاحب كتب فتوح مصر^(٢).
التصوف: والذي نشأ كعلم ديني يهتم بالأخلاق والسلوك، كونه طريقة يستخدمها المتصوف - الزهد - في التقرب إلى الله^(٣).

وقد عرف التصوف أول الأمر في سلوك الصحابة الأوائل فقد كلنوا جميعاً من الزهاد والعباد، إلا أن أسس التصوف لم تتبنت إلا في البيئـة المصرية التي أفرزت الرهبة والديرية من قبل في المسيحية^(٤).

وقد أخذ التصوف منهجه الواضح على يد أحد أقطاب الصوفية في العالم الإسلامي وهو "ذو النون المصري" أو كما عرف بنوبان - أو أبي الفيض، وكان عالماً في العديد من العلوم منها الكيمياء واللغة المصرية القديمة وعلوم المسيحية فضلاً عن براعته في علوم اللغة العربية المختلفة^(٥).
وقد علم ذو النون آرائه في الزهد وطرقه للعالم الإسلامي حيث طاف بكافة أقطاره، كما أقبل عليه المريـدون لطلب العلم والمعرفة في حلقاته بالمسجد الجامع^(٦).

ثانياً: التعليم الديني:

ظلت العديد من العلوم العقلية التي سادت في الحضارات السابقة تلقى عناية في مصر وحرص العرب على الأخذ بها لصالح أمور الدنيا وبخاصة لعلوم الفلسفة والطب والصيدلة والرياضيات^(٧).

(١) الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧، ج١، (من الفتح

العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)، ص ١٢٧.

(٢) ابن قتيبة: مرجع سابق، ص ٢٤٣: ٢٤٨.

(٣) عمر فروخ: التصوف في الإسلام، بيروت، ١٩٤٧، ص ١٧.

(٤) مجهول: مرجع سابق، ص ٥٨.

(٥) محمد كامل حسين: الحياة الفكرية والأدبية، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٦) السلمي: طبقات الصوفية، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٢٥: ٣١.

(٧) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ليدن، ١٨٩٥م، ص ٥.

وقد بدأت عناية العرب بتلك العلوم بعد دخول العرب إلى بلاد تلك العلوم وبخاصة مصر كما أشار نيلكسون بقوله "أنهم استمدوا آراءهم وعلومهم من الثقافة اليونانية التي كانت منذ فتوحات الإسكندر منتشرة في مصر وسوريا وغربي آسيا.."^(١).

فبدأ العرب بترجمة تلك العلوم وبخاصة في مجال الطب والكيمياء للعالم أصفطى الإسكندراني، بفضل عناية الأمير خالد بن يزيد تم نقل كتب علماء الطب المصريين^(٢).

وأصبحت هذه الكتب هي الأساس في المدرسة المصرية وكان تدريسها يتم عن طريق وضع تفاسير مختصرة للكتب الطبية حتى يحفظها التلاميذ ويفهمونها^(٣).

وبلغ من شهرة علماء مدرسة الطب المصرية أن حرص الخلفاء على استدعائهم للتدريس في الأمصار الإسلامية، كاستقدام الطبيب المصري "بن ابجر الكناني" للتدريس بانطاكية وحران^(٤).

كذلك عرف العرب الكيمياء من أرض مصر، والتي أوجدت لفظ الكيمياء -Kmt: التربة السوداء - نسبة لأرضهم الخصبة - وهو العلم الذي برع فيه المصريون منذ عهد الفراعنة، كذلك خرجت المصطلحات الطبية من أرضها مثل Pharm a copia أي دراسة الأدوية وغيرها^(٥).

الرياضيات: واشتملت تدريسها على عدة أفرع منها العلوم العددية، وعلوم الهندسة والتي نبغ فيها أهل مصر، واستعان العرب بكتبهم فيها لتدريس الهندسة، وظهر فيما ابدعوه من مبان وقناطر وخلجان وغيرها، هذا بالإضافة إلى علم الهيئة لمعرفة حركات الكواكب والوقوف على الفصول والأيام والساعات^(٦).

الفلسفة وعلم الكلام: من العلوم التي عرفها العرب عن مدرسة الإسكندرانية الوثنية والتبشيرية وأعمال الفلاسفة المصريين ككليمان وأوريجين وافلوطين وغيرهم^(٧).

(١) Nicholson (A. R.), Literary History of the Arabs, V. 1, London, Combridge Univ. 1941, p. 258.

(٢) التغطي: أخبار العلماء وأخبار الحكماء، القاهرة، مكتبة المتنبى، ١٣٢٦هـ، ط١، ص ٤٤٠.

(٣) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ط٤، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٧، ج٢، ص ٣.

(٤) المرجع السابق: ج١، ص ١١٦.

(٥) عمر فروخ وآخرون: تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، النهضة العربية، ١٩٩٠، ص ١٩٣.

(٦) محمد عبدالرحمن مرحبا: الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، ص ص ٣٧٥ : ٤٢٠.

(٧) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج٢، ص ٨.

وقد استفاد العرب من هذه العلوم وزادت المناظرات العلمية بينهم في قصور الأمراء والولاية في مصر^(١).

ولقد كانت تلك العلوم بأقسامها الدينية واللغوية والعقلية هي محور المناهج الدراسية في مؤسسات التعليم في مصر طوال عصر الولاية وحتى في عصر الدول المستقلة، قامت المدرسة المصرية بتعليمها للمسلمين من أبناءها والوافدين وبخاصة في بلاد المغرب والأندلس ممن اقتدوا بالمدرسة المصرية. ولعلم ما سبق يوضح أن فترة عصر الولاية في مصر برغم قصرها المتناهي كفترة تاريخية متميزة في مسار التاريخ المصري إلا أنها كانت من أخطر مراحلها الحضارية والتي انتقلت البلاد بنهايتها إلى لغة جديدة وديانة مختلفة وثقافة أخرى، كذلك قامت مصر في تلك الفترة بتحقيق عملية مزج حضاري في أركان الحياة المصرية جمعت فيها خصائص الحضارات السابقة التي عاشتها أرضها وأخرجت ثقافتها في صورة ثقافة عربية إسلامية متميزة، اختصت بها الأرض المصرية وحدها، تمكنت بفضل نظامها التعليمي القوي والمتميز من أن تحول مصر إلى دولة عربية إسلامية ذات طابع إسلامي وعربي مميز منذ عصر الولاية وحتى وقتنا الحالي.

(١) ناجي معروف: مرجع سابق، ص ٤٣٣.

الفصل السادس

التعليم في عهد الدول المستقلة

(منذ قيام الدولة الطولونية ٢٥٤هـ / ٨٦٨م حتى

قيام الخلافة العثمانية ١٥١٧م)

أولاً: لمحة سريعة لإنجازات الدول المستقلة:

ثانياً: مؤسسات التعليم في الإسلام:

- المساجد والجوامع.
- المدارس.
- المكتبات ودور العلم.
- البيمارستانات.
- الخوانق والزوايا والربط.

الفصل السادس التعليم في عهد الدول المستقلة

(منذ قيام الدولة الطولونية ٢٥٤هـ / ٨٦٨م حتى قيام
الخلافة العثمانية ١٥١٧م)

رغم البداية القوية للخلافة الإسلامية، إلا أنها أخذت مع نهاية العصر العباسي الأول سنة ٢٣٢هـ في الضعف، وبدأت بعض المناطق التابعة لها في التطلع للاستقلال عنها، وذلك بسبب ما ظهر من عوامل الضعف والتفكك الداخلي للخلافة وبدء تسلط بعض من لا يمثلون الإسلام ثقافة وحضارة - كالترك والفرس - على الخلافة والخلفاء، فضلاً عن ظهور الاطماع الخارجية في الخلافة كل هذا أدى لشعور عدد من الدول بعدم جدوى التبعية للخلافة وقد كانت مصر من أبرز الدول التي اتجهت هذا الاتجاه، فقطعت الخيوط التي تربطها بالخلافة - ما عدا الاعتراف الاسمي فقط - ودخلت تحت لواء الدولة الطولونية أو الحركات الاستقلالية فيها، ثم تبعها الأخشيديّة، فالفاطمية التي حققت خلالها الاستقلال التام والمكانة المتميزة، فالدولة الأيوبية ثم دولة المماليك حتى انتهى بها الحال للعودة للخلافة ثانية في ظل الحكم العثماني عام ١٥١٧م^(١).

ولعل أول ما يلفت النظر في تلك العهود الاستقلالية هو التميز الثقافي والحضاري الكبير الذي حظيت به مصر فقد حرصت كل تلك الدول على تحقيق أكبر ازدهار علمي وثقافي في عهدها ولذلك ستسعى الدراسة لإعطاء لمحة سريعة عن معالم كل من تلك الدول مع إلقاء الضوء على أهم إسهاماتها العلمية والثقافية، ثم يأتي إجمال للإنجازات العلمية الكاملة خلال تلك الفترات من خلال كافة المؤسسات التربوية التي سادت فيها وأثمرت آثارها العلمية على الحضارة الإسلامية في مصر.

أولاً: لمحة سريعة لإنجازات الدول المستقلة:

الدولة الطولونية: ٢٥٤-٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٥م:

وهي الدولة التي بدأت باستقلال الوالي أحمد بن طولون بحكم البلاد والذي عرف بالقوة والحكمة والميل إلى الإصلاح فأحببه الشعب المصري وبخاصة لمجيئه بعد مجموعة من الولاة المستغلين وتمكن ابن طولون من أن

(١) أحمد شلبي: مرجع سابق، ج ٥، ص ٨٥.

يصل لثقة الشعب المصري بكافة طوائفه الدينية فأمن لنفسه جواً من الاستقرار في البلاد^(١).

وقد كان لآحمد بن طولون عدد كبير من الاسهامات كان أهمها الاسهامات الحربية حيث ساعد الخلافة في معاركها ضد البيزنطيين وضد الخارجين عنها، كذلك تصدى للثورات الداخلية من الشيعة فضلاً عن ثورة ابنه العباسي أيضاً.

كذلك قام ابن طولون بتحقيق إنجازات كثيرة في مجال الإدارة الداخلية فنظم شئون البريد والخراج، وبلغ الإزدهار الاقتصادي في عهده وخلفاؤه درجة كبيرة حدث بالمؤرخين إلى أن يذكروا مظاهر الثراء الفاحش في عهد ابنه خمارويه، وتمكن الطولونيين بقوتهم العسكرية ورخاؤهم الاقتصادي من أن يمتد سلطانهم من برقة إلى الفرات حتى قضى عليهم جيش الخليفة العباسي المكتفى فانتهت الدولة سنة ٢٩٢هـ وعادت مؤقتاً ولاية عباسية^(٢).

أما عن مظاهر الإزدهار الحضاري والثقافي في الدولة الطولونية: فقد تمثل اقتصادياً في تنظيم الحسبة والسكة وحربياً في تكوين قوة عسكرية كبيرة تمثلت في جيش وأسطول قويين، ثم كانت مجالات الإزدهار الصناعي والتجاري وقد ازدهرت أحوال البلاد وأهلها اقتصادياً لدرجة كبيرة في العهد الطولوني، أما في المجالات الاجتماعية والفنية فقد اهتم الطولونيون بالأعياد الدينية والاجتماعية المختلفة للمسلمين والمسيحيين واليهود على السواء، كذلك انتشرت الألعاب الرياضية وبخاصة الفروسية وغيرها في عهدهم، كما أولوا عناية كبيرة بالفنون والعمارة وكان خير مثال مدينة القطائع وجامع بن طولون - صاحب أقدم مئذنة في القاهرة فيما بعد - والذي بقي شاهداً على تقدم هذه الدولة والتي أتت على آثارها أيادي الحقد في الخلافة العباسية^(٣).

أما عن الإزدهار الثقافي والعلمي: فقد بلغ درجة كبيرة في الدولة الطولونية وبخاصة في الصالونات الأدبية والفنية التي انتشرت بدرجة كبيرة حيث أولى الطولونيين الشعر اهتماماً كبيراً وبخاصة شعر المديح، كذلك انتشر الغناء

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، دار الكتب، ١٩٣٠هـ، ج٣، ص٧.

(٢) أحمد شلبي: مرجع سابق، ج٥، ص٩٨: ١٠٣.

(٣) أحمد شلبي: مرجع سابق، ج٥، ص٩٢: ١٠٣.

وقد أكد لين بول على تميز هذا المسجد ووصفه بأنه "أبدع ما في مصر الإسلامية من آثار، كما أنه نقطة تحول هامة في تاريخ العمارة". مرجع سابق، ص٨٤.

والموسيقى في عهدهم - وبخاصة خمارويه الذي اتخذ من حوائط بيته "بيت الذهب" صورا بارزة تمثله ومغنياته - (١).

كذلك اهتم الطولونيون بالعلوم الدينية اهتماما كبيرا، وقد أصبح مسجد ابن طولون من أكبر المدارس التي تعقد فيها حلقات العلم المختلفة ولا سيما في علوم الفقه والحديث ووفد العديد من العلماء إلى أرض مصر للتدريس فيه في تلك الفترة، وبالإضافة إلى العلوم الدينية تجلّى الاهتمام بعلم التاريخ والخط وبخاصة لاسهامات عبدالرحمن بن عبدالحكم (ت ٢٧٦هـ) صاحب كتاب "فتوح مصر" (٢).

وبانتهاء عهد الطولونيين عادت مصر وسوريا مرة أخرى إلى حوزة العباسيين لمدة إحدى وثلاثين سنة حتى قامت دولة الإخشيديين وتمكنت من الاستقلال بهما من جديد.

الدولة الإخشيدية ٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٤٥-٩٦٩م:

والتي أسسها محمد بن طغج الأخشيد والذي كان والده نائبا عن خمارويه في دمشق وتمكن بعد الدولة الطولونية من كسب ثقة الخلافة فولاه الخليفة الراضي مصر ودمشق، ف جاء مصر عام ٣٢٣هـ وبدأ يؤسس دولته ثم ضم بعد ذلك الحجاز لمصر والشام وظلت مرتبطة بمصر عدة قرون، ثم حصل على حقوق وراثية لأسرته وولديه أبو الحسن وأبو القاسم فكان قيام دولته المستقلة (٣).

أما عن أهم إنجازات الدولة الإخشيدية، إدارياً كان أول ظهور لمنصب الوزارة في مصر في عهد الإخشيديين وكذلك منصب الحاجب، أيضاً استحدث الإخشيديون طريقة ضرب السكة ووضع أسماءهم عليها بجانب اسم الخليفة، وعن الأحوال المالية فقد اتسمت البلاد بالرخاء الاقتصادي في العهد الإخشيدي، وكثرت إنفاقات الدولة في مظاهر العمران ومن منشأته قصر الروضة - المختار - والبستان الكافوري، كذلك تميز الإخشيديون بالسخاء على الفقراء وبخاصة في أوقات المحن والأزمات فاستقرت أحوال البلاد عموماً في عهدهم وساعد على ذلك الجيش الإخشيدي القوي الذي بلغ أربع مائة ألف جندي بالإضافة لحرس الإخشيد الخاص مما ساعد على تحقيق الاستقرار الخارجي أيضاً (٤).

(١) المقرئزي: الخطط، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٧.

(٢) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق "من عهد الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري"، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٥، ص ٢٢٤.

٢٢٥

(٣) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (مصر)، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٠، ص ١٩: ٢٠.

(٤) أحمد شلبي: مرجع سابق، ج ٢، ص ١١٣: ١١٥.

أما عن المظاهر العلمية والثقافية في العهد الإخشيدى: فقد عرف عن الإخشيديين تشجيعهم للعلماء والشعراء والأدباء وكانوا يقدون عليهم، مما ساعد على انتشار الصالونات والندوات الأدبية في بلاطهم، كذلك ظهر العديد من العلماء والأدباء في بلاطهم كالنحوي التميمي المصري وسبويه والمؤرخ الكندي والشاعر الكبير المتنبى كذلك انتشرت الحلقات العلمية في المذاهب الفقهية المختلفة فازدهر النشاط العلمي والفكري في العهد الإخشيدى بدرجة كبيرة^(١).

وما لبث التدهور أن لحق بالدولة الإخشيدية بعد عهد كافور ولذلك لم يوجد من يقدر على التصدي لقوة الفاطميين فما لبثوا أن دخلوا إلى البلاد وأقاموا الخلافة الفاطمية على أرضها.

الدولة الفاطمية ٣٥٨-٥٦٧هـ / ٩٦٩-١١٧١م: كانت الدولة الإخشيدية في مصر تلتظ أنفاسها الأخيرة بعد موت الوصي كافور عام ٣٥٧هـ، وبدأت البلاد تنقد استقرارها فاستغل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الفرصة وأرسل قائده جوهر ليفتح له مصر، والتي صارت مركز الحكم الفاطمي الذي امتد من المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر، ودخلها المعز - كأول خليفة فاطمي - بعد تنظيم جوهر لأمور البلاد وتأسيس العاصمة والمسجد عام ٣٦٢هـ^(٢).

أما عن أهم إنجازات الدولة الفاطمية في مصر، فقد كان الاتجاه الحصري لإظهار عظمة الحضارة الإسلامية هو الأساس فامتلاً عهد الخلفاء الأوائل ولا سيما المعز بالكثير من الإنجازات والإصلاحات فكان بداية بناء جوهر للعاصمة الجديدة - القاهرة - ثم المسجد الجامع - الأزهر -، وفي المجال العسكري - ولأن الفاطميين ورثوا حب البحر عن الأغالبية في المغرب - فقد أنشأوا دور لصناعة السفن وأسوا أسطول مصري حربي كبير، كذلك انتشرت الصناعات المختلفة في عهدهم والتي تميزت بدقة الصنع والجمال العالي في المنسوجات والطرز الفاخرة فضلاً عن الصناعات المعدنية المتنوعة ولا سيما من الذهب والفضة، وكانت فنون العمارة تأتي في المكانة الأولى في تأسيس القاهرة والأزهر والقصور وغيرها^(٣). وخلاصة القول أن النشاط العلمي والثقافي في العصر الفاطمي تفوق بدرجة كبيرة على العهود السابقة وظهرت نهضة علمية وحضارية كبيرة في عهدهم.

(١) سعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١.

(٢) علي حسني الخربوطلي: غروب الخلافة الإسلامية، القاهرة، مؤسسة المطبوعات الحديثة، د.ت، ص ١١٠.

(٣) أحمد شلبي: مرجع سابق، ص ١٧٨: ١٨٠.

ناصر خسرو، مرجع سابق، ص ١٠٢: ١١٥.

الدولة الأيوبية ٥٦٤-٦٤٨ / ١١٦٩-١٢٥٠م: كان نتيجة لانتشار مظاهر الفوضى في أواخر العهد الفاطمي ووصول عدد من الوزراء للتحكم في السلطة وفي الخفاء، فضلاً عن مغالاة بعض الحكام الفاطميين في التعصب للتشيع وظهور المطامع الخارجية في مصر واتجاه الصليبيون إليها لتأمين ما حققوه من فتوحات في إمارات بلاد الشام، كل ذلك ساعد على تدهور الأمور في البلاد فبدأ تدخل الأيوبيون في مصر بواسطة شيركوه - عم صلاح الدين - كمبعوث للحاكم الشامي نور الدين محمود فبلغت حملات شيركوه وابسن أخيه على مصر ثلاث حملات استجابة لرجاء وزيرها شاور للوقوف في وجه الجيش الصليبي الذي كان يساعد الوزير الآخر ضرغام، وقد تمكن صلاح الدين في الحملة الثالثة من السيطرة على الأمور وقطع الخطبة للفاطميين وخطب للخليفة العباسي ولنور الدين وبذلك بدأت سلطة صلاح الدين في البلاد عام ٥٦٤هـ^(١).

أما عن الإنجازات التي تمت في عهد الدولة الأيوبية فإن أهمها على الإطلاق هو تصدي صلاح الدين للخطر الصليبي والقضاء على آمالهم في العالم الإسلامي، كذلك كان من أهم إنجازاته نشر العدل والتسامح الديني بين أبناء البلاد، كذلك كان إعادته للمذهب السني من أكبر الإسهامات الفكرية والدينية والتي أنشأ من أجل تحقيقها عدداً من المدارس - لأول مرة في مصر - لتتصدى لمركز الفقه الشيعي في الجامع الأزهر، كما أسهم كذلك في مجالات الهندسة والمعمار - ولكنه لم يخطو كاسلافه في تأسيس عاصمة خاصة بدولته - فقام لأول مرة بضم أحياء مصر من العواصم السابقة وإحاطتها بسور كبير وتوج بناؤه بإقامة القلعة لتكون درع واق يصد الهجوم عن القاهرة^(٢).

أما عن أهم الإنجازات العلمية والثقافية للدولة الأيوبية: فإنه على الرغم من إنشغال هذه الدولة بحروبها الطويلة من أجل تأمين العالم الإسلامي وإعادة الوحدة إلى أقطاره إلا أن رجالها جميعاً قد اشتهروا بالعلم والمعرفة، فلم يوجد بينهم ملكاً إلا ونبغ في عدد من العلوم والآداب لذلك كانت لهم العديد من الإسهامات العلمية والثقافية وكان أهمها هو تأسيس المدارس لمقاومة المذهب الشيعي ولتدريس كافة أنواع العلوم، فكان بناء المدارس منذ عام ١١٧٦م، وقد زود تلك المدارس بكافة الاحتياجات التعليمية وجعل الإنفاق عليها مسئولية الدولة لضمان استمرارها، كذلك أقام البيمارستان (أي

(١) شوقي ضيف: مرجع سابق، ص ٢٧: ٣١.

(٢) أحمد شلبي: مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٠٩: ٢١٠.

المستشفى) وكان مركز تعليمي للطلاب فضلا عن كونه مركزاً علاجياً في آن واحد، كذلك انتشرت في عهدة الزوايا كأماكن للصلاة والدرس^(١).

كذلك كان أول ظهور للمراكز الصوفية في مصر وبخاصة الخوانق في عهد صلاح الدين مما كان له أكبر الأثر على انتشار الطرق الصوفية المختلفة في مصر وإقبال عدد كبير من المتصوفة إلى أرضها فشاعت حياة الزهد والتصوف في المجتمع المصري مما ترك أثراً خطيرة على الحياة الاجتماعية فيه بعد ذلك^(٢).

دولة المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م: وهي الدولة التي تنسب إلى مجموعة من المماليك الأتراك تم جلبهم للبلاد في عهد السلطان الأيوبي "نجم الدين" ليكون منهم فرق حربية، والذين تمكنوا من الخلاص من ابنه لاختلافهم معه واستتبت لهم أمور البلاد بوفاة الملكة شجرة الدر.

وقد انقسم المماليك إلى فرقتين المماليك البحرية، نسبة إلى جزيرة الروضة على نهر النيل والتي كانت مركزاً لهم - وحكموا البلاد في الفترة من ٦٤٨-٧٨٤ / ١٢٥٠-١٣٨١م، ثم المماليك البرجية والذين ظلوا يحكمون مصر من سنة ٧٨٤م حتى مجيء العثمانيين للبلاد ٩٢٢هـ^(٣).

- أما عن أهم إنجازات دولة المماليك فلأنهم في حقيقة الأمر قد تم جلبهم للبلاد وتدريبهم منذ الصغر ليكونوا محاربين متميزين فقد كانت إسهاماتهم الحربية هي الأساس في دولتهم حيث تصدر وعلى وجه الخصوص السلطان الظاهر بيبرس لخطر التتار ثم من بعدهم الصليبيين كذلك تصدوا لعدد كبير من الفتن كفضائهم على فرق الحشاشين بسوريا والمتمردين ببلاد النوبة، كذلك تميز سلاطين هذه الدولة - نظراً لتعليمهم الديني - بالحرص على إنشاء المساجد والزوايا وإيقاف الأموال على المؤسسات الدينية وبالتالي ساعدوا على نشر العلوم والمعارف، كذلك اهتموا بالفنون والعمارة وجاءت المساجد في العصر المملوكي سجلاً لروعة البناء في الإسلام، هذا فضلاً عن إنشائهم لبعض النروع والقناطر وأيضاً مستشفى كبير للعلاج وكان تتويج أعمالهم الهندسية بقلعة قايتباي بالإسكندرية كل تلك الآثار التي وقفت شاهداً على ما بلغته الحضارة العربية الإسلامية من مظاهر رقي في تلك الفترات^(٤).

(١) لين بول: مرجع سابق، ص ١٦٢: ١٦٨.

(٢) سعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص ٢٢٩: ٢٣٠.

(٣) أحمد شلبي: مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٢٦: ٢٢٧.

(٤) وقد أكد حسين فوزي على مظاهر هذه الحضارة في عهد المماليك ولا سيما في هندسة البناء بقوله "وفي عهد المماليك تطورت العمارة الإسلامية نحو أسلوب يتميزون به، وكانوا من أعظم البنائين في تاريخ مصر منذ عهد الأسرات"، مرجع سابق، ص ٣٧٦: ٣٧٧.

وعن أهم الإنجازات العلمية والثقافية في عهد دولة المماليك، فقد كان لغارات التتار على العالم الإسلامي أكبر الأثر في ازدهار الحياة العلمية والثقافية والفكرية في مصر حيث لجأ لها الكثير من العلماء والأدباء يلتمسوا الأمن في أرضها في حماية المماليك، فنتج عن هذا العصر المئات من المؤلفات العلمية والأدبية في كافة أنواع العلوم والمعارف من أدب وطب وعلوم دينية وحتى في التاريخ والجغرافيا ولا سيما كتب الرحلات وغيرها^(١).

أما عن الآثار العلمية لهذا العصر: فقد تمثلت معظمها في الإكثار من بناء المدارس وإيقاف الأموال عليها، كذلك انتشر بناء المساجد في هذا العصر فضلاً عن البيمارستانات لتعليم الطب مثل البيمارستان المنصوري ومستشفى قلاوون كذلك انتشرت المؤسسات الصوفية بدرجة كبيرة وتتنوعت ما بين خوانق (للرجال والنساء) والتكايا والسبل والتي مازالت آثار العديد منها قائمة في حي الدراسة والعباسية^(٢).

كذلك اشتهر حكام المماليك أنفسهم باتساع العلم والمعرفة والحرص على طلب العلم ولا سيما في العلوم الشرعية فقد كان كل من "برقوق" و"المؤيد" و"قايتباي" شغوفين بالدراسات الأدبية و"تمريغا" اليوناني الأصل كان عالماً في اللغة والتاريخ وعلوم الدين وكان "المؤيد" رغم كونه عالم دين فقد كان أيضاً موسيقياً وشاعراً بارعاً و"قنصوه الغوري" الذي اهتم بالأدب والفلك والطب والرياضة وحتى الكيمياء وما هؤلاء جميعاً إلا نموذجاً لحرص هؤلاء السلاطين على العلم والمعرفة^(٣).

وقد ظهر في مصر المملوكة عدد كبير من أكبر العلماء والأدباء والتي سجلت أعمالهم مدى ارتفاع رصيدهم العلمي والأدبي ومن هؤلاء على سبيل المثال:

"أبن ابي اصيبعه" ت ١٢٦٩م الطبيب الشهير والذي أكمل دراساته الطبية في البيمارستان المنصوري في القاهرة وصاحب كتاب تراجم الأطباء "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"^(٤).

"ابن خلكان" ت ١٢٨٢م أحد أكبر مؤلفي السير والطبقات والذي قدم ترجمة لعدد كبير من المشاهير والعلماء في كتابه الهام "وفيات الأعيان"^(٥).

(١) سعيد إسماعيل: مرجع سابق، ص ص ٢٢٣-٢٣٤.

(٢) لين بول: مرجع سابق، ١٩٠: ١٩٨ وقد أورد سيادته أسماء العديد من المساجد والمدارس التي تم إنشاؤها في تلك الفترة.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٠١/

أحمد شلبي: مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٧٧.

(٤) ابن ابي اصيبعه: مرجع سابق، مقدمة المحقق.

(٥) ابن خلكان: مرجع سابق، المقدمة.

هذا فضلاً عن عدد كبير من مشاهير المؤرخين الذين حظى بهم هذا العصر من أهمهم المؤرخ الكبير وعالم الاجتماع والاقتصاد "ابن خلدون" ت ٤٠٥م صاحب المقدمة الرائعة التي عرفت كافة العلوم والفنون والمعارف^(١).

وكذلك المؤرخ المصري الكبير "المقريزي" ت ٤٤٢م صاحب كتاب الخطط الرائع والذي ضم داخله تاريخ مصر أرضاً وشعباً وهو المؤلف الذي عرف باسم "الخطط" فضلاً عن كتابه عن القبائل العربية في مصر وكتاب السلوك عن أحوال الملوك والأمراء واتعاظ الحنفا عن الأئمة وأحوالهم وغيرها^(٢).

وكذلك المؤرخ المملوكي الشهير "ابن تغري بردي" ت ٤٦٩م والذي وصف بأنه أفضل من كتب تاريخ مصر بصورة متميزة وناقده في مؤلفه الرائع "النجوم الزاهرة في محاسن ملوك مصر والقاهرة"^(٣).

ولا يمكن أن نغفل ذكر المؤرخ والناقد الكبير "السخاوي" صاحب المؤلفات حول أهمية التاريخ، وتلميذه المؤرخ المصري والإمام الكبير "السيوطي" ت ١٥٠٥م صاحب الموسوعات المتنوعة وبخاصة في علوم القرآن^(٤).

ومن العلماء الذين اهتموا بالجغرافيا وأدب الرحلات صاحب الخاتم في البلاط المملوكي "ابن فضل الله العمري" ت ١٣٤٩م، صاحب المؤلف الكبير الذي وصف فيه العديد من البلاد والأقطار مسالك الأبصار في ممالك الأمصار^(٥).

وما هؤلاء جميعاً إلا مجرد أمثله ونماذج لعلماء هذا العصر في المدرسة المصرية والذي يحتاج مجرد السرد لهم دراسة خاصة بهم، إلا أن هذه النماذج تقدم مثلاً كبيراً عن إزدهار الحياة العلمية والفكرية في مصر في العصر المملوكي وتؤكد على استمرارها لطوال العصر تقريباً كما يتضح من تواريخ وفيات هؤلاء العلماء.

ولقد كان هذا العرص الموجز لأهم ملامح عهود الاستقلال في مصر مؤشراً إلى استمرار التقدم العلمي والفكري في تلك العهود وتطوره لدرجات أكبر في الإزدهار الثقافي والمعرفي ولعل التنوع المؤسسي الكبير الذي حظيت به تلك العصور أكبر مؤشر على ذلك ولذا ستسعى الدراسة لإلقاء

(١) ابن خلدون: مرجع سابق، التمهيد.

(٢) المقريزي: الخطاط، مرجع سابق، المقدمة.

(٣) ابن تغري بردي: مرجع سابق، المقدمة.

(٤) السيوطي: الاتقان، مرجع سابق، المقدمة.

(٥) العمري: مرجع سابق، المقدمة.

التبرعات التي يقدمها فاعلو الخير، وإن كانت الأوقاف هي المصدر الرئيسي للإغناق والتي يتحدد عن طريقها الوظائف المختلفة داخل المسجد من تعليمية ودينية وحتى أي خدمات يحتاجها المسجد^(١).

أما عن أهم المساجد الجامعة قاطبة في تاريخ الحضارة الإسلامية في مصر وحتى الآن كأكبر مؤسسة دينية وعلمية وهو الجامع الأزهر، فقد استلزم الأمر أفراد حديث خاص عنه وعن طريقة التعليم والنظام به كجامعة إسلامية كبرى.

الأزهر:

لقد كانت المساجد الإسلامية الرئيسية الموجودة بمصر قبل العصر الفاطمي هي جامع عمرو بن العاص وجامع العسكر وجامع احمد بن طولون وظلت المراكز الرئيسية للعلم حتى دخل الجيش الفاطمي مصر بقيادة جوهر الصقلي عام ٣٥٨هـ والذي أقام مدينة القاهرة ثم شرع كدأب الحكومات الجديدة في الإسلام في تأسيس المركز الديني الرئيسي للعاصمة الجديدة فكان بناؤه للأزهر والذي فتح للصلاة عام ٣٦١هـ / ٩٧٢م^(٢).

وقد سمي للمسجد في البداية بجامع القاهرة نسبة للعاصمة الجديدة، وكان سبب إنشائه الرئيسي ليكون مركزاً للدعوة الشيعية بعيداً عن المراكز السنية وفقهائها، وقد اختلف المؤرخون عن سبب تسميته بالأزهر والذي رجح بعضهم أنه كان في وقت ازدهار الخلافة الفاطمية على عهد العزيز لمكانته العلمية الكبرى، وإن كان لا يستبعد كما رجح البعض الآخر أن تكون التسمية نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء والتي ينسب لها اسم الخلافة نفسها^(٣).

على أن الجامع الأزهر لم يأخذ شهرته المعروفة كمعهد علمي كبير منذ بداية عهده فقد ظل مركزاً للدعوة الفاطمية حتى أواخر عهد المعز لدين الله حين جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان سنة ٣٦٥هـ فيه وقرأ مختصر أبيه في فقه آل البيت في جمع من العلماء وقام بإثبات أسماء الحضور لديه، فكانت أول الحلقات العلمية به^(٤).

ثم كان جلوس الوزير بن كلس في عهد العزيز بالله سنة ٧٦٩هـ — فيه لقراءة كتابه الذي ألفه في الفقه الشيعي، وحينئذ فكر بن كلس بأن يجعله

(١) ليلي الجباصي: مرجع سابق، ص ٥٥، ٥٦.

(٢) المقرئزي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٧٣.

(٣) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٠، ص ٧١.

(٤) سعيد إسماعيل: معاهد التعليم الإسلامي، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٨، ص ١١٥.

معهداً منتظماً للدراسة واستأذن الخليفة في أن يعين به الفقهاء والقراء والعلماء فبدأت المجالس العلمية والحلقات تنتظم للدرس في الأزهر^(١). وعن نظام التعليم به فقد اتسم ببعض السمات العامة تُلخصت في الآتي:

- ١- وجود أستاذ كبير يشرف على المادة، وعلى من يدرسونها من دونه.
- ٢- كان للطالب مطلق الحرية في اختيار المادة والأستاذ وأيضاً في الحضور والغياب.
- ٣- كان يمكن للطالب أن يجاز في مادة ويرجأ في الأخرى بحيث يصبح معلماً في واحدة وطالبا في الأخرى.
- ٤- وكان الطالب الذي يتم دراسته يمنح شهادة تسمى إجازة، ويمكن للطالب بعدها - إن وجد في نفسه المقدرة - أن يدرس ما تعلم.
- ٥- كان لا بد أن يوجد كتاب يقرأ منه المعلم^(٢).

أما عن مواعيد الدرس فغالبا ما كانت الحلقات العلمية تستغرق اليوم كله من طلوع الشمس حتى مغيبها، وتعقد في كافة فروع العلم ففي الصباح تكون حلقات الحديث والتفسير ثم تأتي حلقات الفقه حتى الظهر ثم حلقات علوم اللغة حتى العصر وتنتهي بالحلقات المنوعة من حساب وتاريخ وفلك وغيرها حتى صلاة العشاء^(٣).

وكانت علاقة الطالب بمعلمه أقرب ما تكون لعلاقة الابن بأبيه وكان الكل يمثلون أسرة علمية لذا كان دائما ما يلتف الطلاب حول أساتذتهم ويلازمونهم دائما^(٤).

وقد ظل المذهب الشيعي هو المذهب الفقهي السائد في التعليم في الأزهر حتى كان العصر الأيوبي فعملوا إقامة الصلاة فيه للقضاء على المذهب الشيعي لمدة مائة عام، إلا أنه ظل محتفظاً بوضعه كمسجد للدرس ولكن بدرجة محدودة لانتشار المدارس التي أكثروا من إنشائها، حتى كان العصر المملوكي والغزو التتاري للخلافة والذي ترتب عليه هروب العديد من العلماء إلى مصر فجدد المماليك الأزهر وأعادوا الصلاة فيه وعاد ازدهار الحياة العلمية والثقافية إليه وأوقفت عليه الكثير من الأموال للإنفاق عليه وعلى طلابه وبخاصة الوافدون منهم فعاد لمكانته العلمية الكبيرة، وارتبط اسمه بالعديد من كبار العلماء في هذا العصر كابن خلدون سنة

(١) سيده كاشف: الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية، بحث في ندوة المدارس في مصر الإسلامية، بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ٢٢-٢٥ أبريل ١٩٩١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص ٥٣.

(٢) سعيد إسماعيل: تاريخ التربية، مرجع سابق، ص ٢٤٤: ٢٤٥.

(٣) لين بول: مرجع سابق، ص ١٢١.

(٤) ليلي الجباس: مرجع سابق، ص ٦٢: ٦٣.

٧٨٤هـ وغيره واستمر من وقتها المنارة المشعة للثقافة والعلوم الإسلامية^(١).

المدارس: إن المدرسة بمعنى الكلمة المتعارف عليه يقصد بها المكان الذي يتخذ لتلقي العلم على أيدي أساتذة أو شيوخ موقوفين عليه - وذلك لتمييزه عن حلقة المسجد - وأن يكون ملحقا به أماكن لسكن الطلاب والمعلمين فضلا عن مرتبات تجرى على من يدرس به^(٢).

والمدرسة من هذا المنطلق تفسر على أنها موضع الدرس، فيقال درس الكتاب درساً ودراسة أي قرأه وفهمه ليحفظه^(٣).

أما عن ظهور المدرسة في الإسلام فإن الثابت تاريخياً أن المدارس كانت مما استحدث في الإسلام، فلم تكن موجودة على زمن الصحابة أو التابعين، ويرجع ظهورها تقريباً إلى ما بعد الأربعمئة من سنى الهجرة، أي إلى القرن الخامس الميلادي، حيث كانت أول مدرسة وهي المدرسة النيهقية في نيسابور ثم توالى إنشاء المدارس بعد ذلك، واشتهرت منها المدرسة النظامية ببغداد نسبة للوزير نظام الملك لذلك عادة ما تتسب إليه نشأة المدارس في العالم الإسلامي إليه^(٤).

أسباب ظهور المدارس: والتي أجملها الدكتور/ سعيد إسماعيل في الآتي^(٥):

١- كان أول الأسباب راجعاً إلى المعارك الفكرية التي ظهرت في العالم الإسلامي ولا سيما الصراع بين الشيعة والسنة، واتخذ الشيعة من العلم والتعليم سلاحاً لنشر مذهبهم فكان لا بد من الاستعانة بنفس السلاح ومن ثم كانت نشأة المدرسة على يد السنيون.

٢- كذلك كانت نشأة المدرسة هي التطور الطبيعي للعلم فبعد أن بدأ بالعلم الديني، كان لا بد أن ينمو الاهتمام بالانواع الأخرى من العلم وما يحتويه من علوم لا يعد مناسباً لتدريسها داخل المسجد كالعلوم الطبيعية والكيميائية والرياضية وغيرها مما استوجب وجود مركزاً خاصاً يقتصر على التعليم.

٣- كان نتيجة للاحتكاك بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الأمم والشعوب أن ظهرت مجالات تعليمية جديدة، جعلت البعض يفكر في

(١) سيدة الكاشف: مرجع سابق، ص ٥٧: ٦٠.

(٢) أيمن فؤاد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، بحث في ندوة المدارس في مصر الإسلامية، بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ٢٢-٢٥ إبريل ١٩٩١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص ٩٩.

(٣) ابن منظور: مرجع سابق، مادة درس.

(٤) المقريري: الخطط، مرجع سابق، ص ٣٦٣.

(٥) سعيد إسماعيل: معاهد التعليم الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٣٠: ١٣٥.

شكل مؤسسي آخر يكون حلقة وصل بين العالم الإسلامي والشعوب الأخرى.

٤- إن طريقة شرح وتفسير بعض العلوم تستلزم وجود أجهزة والآلات وغيرها وهو ما لا يتوفر في المسجد، حتى العلوم الحكيمة وما تستوجهه من مناقشات حامية قد تؤثر على المؤدين للصلاة والجالسين للعبادة في المسجد مما استوجب وجود تلك الدراسات في مكان آخر خاص بها.

٥- كذلك نظراً لأن معظم الحكام في فترة نشأة المدارس كانوا من غير العرب، مما أشعرهم بالدونية عن العرب، فسعوا - لإثبات ذاتهم واسترضاء للعرب وتأكيذاً لثبات عقيدتهم - إلى إنشاء المدارس كمؤسسة للعلم والمعرفة ليؤكدوا على حرصهم على العلم والتعلم وأوقفوا عليها الكثير من الأموال.

٦- كذلك كان للنظرة للتعليم على أنه من أكبر الوسائل في الخير والتقرب إلى الله ساعد أيضاً على ظهور فكرة المدرسة كصورة متطورة لمؤسسة تعليمية بخلاف المسجد، فبدأ الحكام يتسابقون لإنشاء ونشر المدارس في أرجاء العالم الإسلامي.

٧- ومن الأسباب الهامة لإقبال الأمراء غير العرب على إنشاء المدارس أنهم كانوا في الغالب موالى أو مماليك لذلك كان للحاكم أو السلطان حق قبض ما يتركوه من أموال، لذلك كانوا يكثرون من بناء المدارس أو الربط والزوايا ويوقفوا عليها أموالهم شريطة أن يتولاها بعض أولادهم ويكون لهم رزقاً معلوماً.

٨- كذلك لا يستبعد أن يكون من ضمن الأسباب هو رغبة البعض في وجود مكان يقدم العلوم والمعلومات بصورة كافية وليس بشكل خاطف كالمسجد.

ولكل تلك العوامل السابقة بدأ ظهور المدارس في العالم الإسلامي، وغدت المدرسة بذلك معهداً نظامياً من مؤسسات الإسلام التعليمية. المدرسة في مصر: وعن ظهور المدرسة في مصر، فقد كان في عهد الفاطميين، وإن لم تأخذ في الانتشار والقوة إلا على عهد صلاح الدين الأيوبي الذي أراد أن يواجه بها الدعوة الشيعية في الجامع الأزهر ويجعلها مراكزاً لنشر الفقه السني في البلاد^(١).

فكان قيام الدولة الأيوبية في مصر مصاحباً للتوسع في إنشاء المدارس وبخاصة على مذاهب أهل السنة الأربعة فكان لكل مدرسة مذهبها التعليمي، فمثلاً كانت المدرسة السيوفيه بالقاهرة للمذهب الحنفي، والناصرية

(١) سعيد عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة، ندوة المدارس، مرجع سابق، ص ٢٢.

للمذهب الشافعي، والصاحبية للمذهب المالكي وهكذا^(١). وقد أخذت تلك المدارس في الإزدياد على الحكم المملوكي وحرص السلاطين والأمراء المماليك على الإكثار منها استرضاء للشعب المصري فكان منها مدرسة الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ، والمنصورية نسبة للمنصور قلاوون وغيرها مدارس عدة^(٢).

أنواع المدارس في مصر: انتشر إنشاء المدارس في مصر منذ العصر الأيوبي وأسرع الجميع إلى إنشائها فوجدت مدارس السلاطين ومدارس الأمراء الكبار فضلا عن مدارس الأميرات، كما وجدت مدارس أخرى للعامّة ومدارس الجاليات الأجنبية كذلك وعن أهم هذه المدارس فكانت كالتالي:
مدارس السلاطين: منها ما أنشأه صلاح الدين الأيوبي مثل:

١- المدرسة الناصرية (شافعية): وهي أول مدرسة في عهده أسسها لتدريس المذهب الشافعي.

٢- المدرسة القمحية (مالكية): وكانت من أهم مراكز تدريس المذهب المالكي ورتب لها أربع مدرسين للدرس بها وقد عرفت بالقمحية نسبة لضبعة زراعية أوقفها عليها وكان يؤخذ من قمحها ليفرق على الطلبة بها، وكانت هذه المدرسة تعد من أشهر المدارس السننية في العصر الأيوبي.

٣- المدرسة السيوفية (حنفية): وهي من المدارس التي أوقفت لتدريس هذا المذهب وعرفت بالسيوفية لوجود سوق السيوف على بابها.

٤- المدرسة الكاملية (الحديث): وعرفت كذلك بدار الحديث، وقد أنشأها السلطان الملك الكامل لتعليم الحديث^(٣).

٥- مدرسة قلاوون: وبنيت في عهد المنصور قلاوون المملوكية عام ٦٨٣هـ وكانت مدرسة وبمارستان للطلب.

٦- مدرسة الظاهر بيبرس: والتي أسسها عام ٦٦٠هـ وزودها بمكتبة هائلة وأوقف عليها أوقافا كبيرة لتعنى بسائر العلوم والدراسات فكان بها تدريس المذاهب المختلفة فضلا عن الحديث والقراءات والعلوم والآداب المختلفة^(٤).

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) حسني محمد نويصر: عوامل مؤثرة في تخطيط المدرسة المملوكية، بحث في ندوة المدارس في مصر الإسلامية بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ٢٢-٢٥ إبريل ١٩٩١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص ٢٣٣.

(٣) عفاف صبره: المدارس في العصر الأيوبي، بحث في ندوة المدارس في مصر الإسلامية بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ٢٢-٢٥ إبريل ١٩٩١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص ١٥١: ١٥٥.

(٤) سعيد إسماعيل: تاريخ التربية والتعليم، مرجع سابق، ص ٢٥٢: ٢٥٤.

أما عن مدارس الأمراء والأميرات: فقد كان من أشهرها مدرسة منازل العز والتي شيدها أم الخليفة العزيز بالله والمدرسة القطبية لأحد أمراء صلاح الدين والفاضلية للقاضي الفاضل وزير صلاح الدين وغيرها كثير من المدارس^(١).

كذلك وجدت بعض المدارس التي قامت بعض الجاليات والشعوب بوقف الأوقاف عليها لإقامتها في مصر مثل مدرسة "بن رشيق" والتي أقامها القاضي بن رشيق لبعض الأفرقة^(٢).

تنظيمات المدارس: من النواحي المعمارية: يتضح من المصادر التي تناولت الحديث عن المدارس أنه كانت هناك سمات عامة في بنائها فكل مدرسة "أيوان" وهو قاعة المحاضرات بها، وكذلك "بيت الصلاة" حيث كانت وظيفة الصلاة ملازمة لوظيفة الدراسة في المدرسة لذلك كان جدار القبلة هو العامل الرئيسي في تخطيط المدارس جميعاً وتتنظم حدودها الداخلية في مستطيل أو مربع يتصدر بناءها بيت الصلاة، ثم تأتي "المنذنة" لتؤكد صفة الصلاة والجماعة بالمدارس، كذلك يوجد بها "بهو" وكان عادة فسيحاً ومربعاً أو مستطيلاً، "المساكن" وهي الأماكن التي تعد بها لسكن الطلاب وبخاصة الفقراء، "الاستراحة" وهي أماكن إقامة المدرسين، "المكتبات" وقد اتسمت المدارس في تلك العصور بوجود المكتبات الكبيرة فيها ليرجع إليها الدارسون في كل ما يرغبون من معارف، "القاعات المختلفة" ومنها ما يستخدم للدرس أو الطعام أو الجلوس أو لعمل المشرفين والكتبة فضلاً عن وجود مطبخ ومخبز وحمام وأماكن للخدم، ثم يأتي "الضريح" والذي لا تخلو منه مدرسة وإن كان يراعى في بنائه ألا يشغل إلا جزء صغير من مساحة المدرسة^(٣).

- التمويل: لما كان أمر التعليم في بادئ الأمر في كل من الكتاب والمسجد يتم لوجه الله ومعتمداً على ما يتبرخ به المحسنون ولكن حين ظهرت المدرسة وتطلبت نوعاً من العمل النظامي يرتب له المعلمون والموظفون فقد تطلب الأمر وجود قدر كبير من التمويل المنتظم لدعم العملية التعليمية فيها لذلك تم تدبير مصادر للتمويل للمدرسة والتي تمثلت في الآتي:

- الأوقاف: وكانت المصدر الرئيسي لتمويل المدارس، وبتتبع تاريخ المدارس في مصر نجد أن كل مدرسة كان لها وقف معين للاتفاق عليها، كالمدرسة الناصرية التي أوقف عليها صلاح الدين الصاغة التي كانت بجوارها، والمدرسة القمحية التي أوقف عليها ضيعة بالفيوم وغيرها، ولذلك

(١) عفاف صبره: مرجع سابق، ص ١٥٧: ١٦٢.

(٢) المرجع السابق: ص ١٦٢، ١٦٣.

(٣) عفاف سيد: مرجع سابق، ص ١٦٤: ١٧٠.

سعید إسماعيل: معاهد التعليم، مرجع سابق، ص ١٤١: ١٤٣.

كانت الأوقاف تمثل - في ذلك الوقت - مورداً مالياً دائماً للإنفاق على المدارس.

- الهيئات والإعانات والصدقات والعطاءات: كذلك تعددت صور وأنواع التمويل التي ارتبطت بالمحسنون من الأغنياء وكبار الدولة والتي ظهرت أما في شكل هبات أو إعانات أو حتى عطاءات من كبار السلاطين والحكام.

- الزكاة الشرعية: وكان أحياناً ما يخصص منها جزء للتعليم ولكن هذا لم يكن نصيباً دائماً وإنما لا يتعدى كونه نصيباً فردياً لبعض الفقراء والمشتغلين بالعلم فيتم مساواتهم هنا بباقي الفقراء في الإسلام^(١).

- الهيئة التعليمية والإدارية بالمدارس:

الهيئة التعليمية: وتنقسم إلى "المدرسين" وهم من يقوموا بمهمة التعليم وكان المدرس يعين من قبل السلطان أو الواقف ولا يختار لهذا المنصب إلا صاحب الشهرة والمكانة العلمية المرموقة، وكان راتبه يتفاوت وفقاً لمقدار الوقف على المدرسة ولمكانة المدرس وسمعته وكانت الرواتب تقدم إما نقداً أو عيناً لهم.

- "المعيدون" وقد عرف القلقشندي المعيد بأنه من يقوم بإعادة ما ألقاه المدرس من علوم بعد انصرافه على الطلبة ليفهموه، وهو هنا المساعد للمدرس، وقد كان راتبه أقل بكثير من أستاذه كما يظهر من كتب الأوقاف، وكان المدرس والمعيد هم من يمثلون الهيئة التعليمية في تلك الأونة^(٢).

- الهيئة الإدارية: وتنقسم إلى "ناظر" أو "وال" وكان يختار عادة من بين كبار موظفي الدولة ويساعده "مشرف" وهو يعد مفتشاً مالياً ثم يأتي بعد ذلك عدد من الوظائف كالكاتب والخازن وعدد من المستخدمين في أمور المعمل والفراشة والمطبخ وغيرها من وظائف متعددة، وقد كانت الهيئة الإدارية مسئولة بالدرجة الأولى عن تنظيم الشؤون الإدارية والإشراف على الطلاب وحياتهم داخل المدرسة ولا تتدخل في شؤون هيئة التدريس^(٣).

المواد الدراسية وعلاقة الطلاب بالأساتذة:

- أما عن المواد الدراسية: فقد كانت ترجع لطبيعة المدرسة حيث ظهرت التخصصات وكانت كل مدرسة مستقلة بفرع بعينه - كما سبقت الإشارة - فوجدت مدارس للفقهاء الشافعي فقط أو المالكي وما إلى ذلك، وكانت هناك أيضاً مدارس ثنائية ضمت داخلها مذهبين معاً أو رباعيه للمذاهب مجتمعه، كذلك انقسمت للدراسات في المدارس إلى قسمين العلوم النقلية والعلوم الطبيعية بأنواعها المختلفة.

(١) عناف سيد: مرجع سابق، ص ١٩٢: ١٩٧.

(٢) المرجع السابق: ص ١٧٦: ١٨٢.

(٣) سعيد إسماعيل: معاهد التعليم، مرجع سابق، ص ١٤٦: ١٤٧.

وبالنسبة لطرق التدريس فقد اعتمدت في البداية على تقسيمات للطلاب من مبتدئون ثم متوسطون ثم طلاب مرحلة عليا، وكان التعليم يقدم داخل حلقات الدرس، واعتمد التدريس على الإلقاء والتلقين والإملاء فضلا عن المناقشات العلمية.

- علاقة الطلاب بالأساتذة: كان الطالب حين يذهب إلى المدرسة يختار الأستاذ الذي يود أن يدرس عليه وكانت له مطلق الحرية في التنقل بين الأساتذة واختيار ما يشاء دراسته من مواد وعلوم، وقد خلقت تلك الحرية العلمية علاقة قوية ومتينة ربطت بين الطلبة وأساتذتهم وأوجدت نوعاً من الاتصال العاطفي أقرب ما يكون بالاتصال الأسري بين الأستاذ ومريديه من طلابه، فقد أثبتت الكتابات أن سلوك هؤلاء الأساتذة كان نموذجاً يحتذى به في تأثيرهم وعلاقتهم بطلابهم وأنها لم تتوقف عند الحد العلمي، بل تعدته للحد النفسي والأخلاقي أيضاً فقد كانوا مرشدين لطلابهم في سلوكهم وخلقهم فساهموا بذلك في نشأة نهضة علمية وثقافية كبرى في العالم الإسلامي^(١).

المكتبات ودور العلم:

وقد كانت المكتبات من أهم وأكثر وسائل نشر المعرفة في العالم القديم ولعل مكتبة الإسكندرية تقدم أكبر مثال على هذا، وقد حرص العرب منذ العصر الأموي على وجود الكتب والمكتبات لنشر العلم بين المسلمين، فكانت حركات النسخ والترجمة والتأليف للكتب وحفظها في خزائن وإتاحتها للناس للعلم فكان لكل مسجد جامع مكتبة خاصة به، ثم بعد ظهور المدارس أصبح لكل مدرسة مكتبتها الخاصة فانتشرت المكتبات في أرجاء العالم الإسلامي لكل راغبي العلم والمعرفة وقد عرفت الحضارة الإسلامية أشكالاً مختلفة للمكتبات تمثلت في الآتي:

- المكتبات العامة: وهي المكتبات التي كانت تلحق بالمساجد أو المدارس أو تقام داخل مبان مخصصة لها وقد انتشرت تلك المكتبات بكثرة نظراً لانتشار المساجد والمدارس^(٢).

- ومن المكتبات العامة الأخرى والتي تعد مركزاً أو معاهداً ثقافياً وتعليمية وذلك لأنها كانت تتعدى دورها كمكتبات إلى دار للعلم ينتفع فيها الجمهور ويتعلمون على يد ما بها من علماء أو في المناظرات العلمية الكبرى التي تدار فيها ومن أهم هذه المؤسسات والتي كانت ذات شهرة كبرى في مصر كمعهد علمي في العصر الفاطمي.

- دار العلم (دار الحكمة): والتي كان كبار رجال العلم والمعارف يلتقون فيها للمناقشة والتعلم يساعدهم في ذلك المكتبة العظيمة الموجودة بها، فضلاً

(١) عفاف سيد: مرجع سابق، ص ص ١٨٦: ١٨٨.

(٢) سامي نصار: مرجع سابق، ص ص ١٢٨-١٢٩.

عن جلوس العلماء بها من فقهاء وقراء وعلماء اللغة وحتى الأطباء والمنجمون، كذلك تم تزويدهم بكل ما يحتاجه الطالب من أوراق وأخبار وأقلام، فضلاً عما أوقف عليها من أموال باهظة وقيل عنها أنها احتوت مليوناً وستمائة ألف كتاب من نفائس الكتب والمخطوطات في العلوم بفروعها المختلفة^(١).

وقد وصفها المقريري بأنه لم يوجد مثلها في العالم بالقول بأنه "لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها"^(٢). ثم وصف دورها العلمي بقوله "وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم يُر مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر"^(٣).

وقد تمكنت دار الحكم بفضل اسانذتها ومناهجها وكتبها المتنوعة من أن تجتذب إليها أعلام المشرق ليحضروا بعض جلساتها ومحاضراتها العلمية القيمة وكان من بين هؤلاء الرحالة الفارسي الشهير ناصر خسرو^(٤).

وقد استمرت دار الحكمة في تادية عملها العلمي بالقاهرة حتى قام صلاح الدين الأيوبي بهدمها وأقام مكانها مدرسة للشافعية^(٥).

مكتبات الخاصة: وهي المكتبات التي أنشأها الخلفاء والأمراء والأثرياء في قصورهم فضلاً عما كان يقيمه العلماء في منازلهم لاطلاعاتهم الخاصة، إلا أن أهم هذه المكتبات ما كان يوجد منها في قصور السلاطين وكان أشهرها "خزانة القصر الفاطمي" والتي عني بها الخلفاء الفاطميون فجمعوا بها أكبر عدد من الكتب فضلاً عن أندر المؤلفات في جميع العلوم حتى لقد قيل أنه بنى في القصر أربعون خزانة لهذه الكتب احتوت على مصنفات وتقسيمات في جميع المذاهب وعلوم اللغة والحديث والتاريخ والسير والفلك والدين والكيمياء ... إلى آخر تلك العلوم، ومما يدعو للأسف أن تلك المكتبة العظيمة بدأت تنهب أختام كتبها المحلاة بالذهب والفضة في الشدة المستتصرية ثم لاقت أكبر ضربة على عهد صلاح الدين حين باع ما بها بأسعار زهيدة،

(١) أيمن فؤاد: ندوة المدارس، مرجع سابق، ص ١٠٤.

(٢) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٣) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٤) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

٢٣٥

(٥) سامي نصار: مرجع سابق، ص ١٣٠.

مكنت القاضي عبدالرحيم البيساني من أن يجمع منها مائة ألف مجلد جعلها في المدرسة الفاضلية التي أنشأها بالقاهرة^(١).

البيمارستانات: والبيمارستان كلمة فارسية مركبة الى قسمين (بيمار) بمعنى مريض، و(ستان) بمعنى دار إذا فهي بمعنى (دار المرضى) أو المستشفى، ويعد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالمك هو أول من أنشأ البيمارستانات في الإسلام وخصصها لعزل وعلاج المجنومين والعميان وأوقف عليها الأموال لتوفير مستلزمات العمل بها من أطباء وأدوية وعقاقير وخلافه وذلك عام ٨٨هـ تقريباً، ثم أخذت البيمارستانات في الانتشار مع القرن الرابع الهجري وبخاصة في العراق ودمشق^(٢).

والبيمارستانات لم تكن مجرد مستشفيات يقصدها المرضى لغرض الشفاء، وإنما كانت بمثابة داراً علمية لتعليم الطب - أشبه بالمستشفيات التعليمية في وقتنا الحاضر - فكان يوجد بها الأساتذة الأطباء لدراسة حالات المرضى، كذلك كانوا يجلسون فيها لتعليم طلابهم عن طريق الكتب والآلات ثم بطريقة المناقشات، ثم كان يقوم الأستاذ بعد ذلك باصطحاب تلاميذه لداخل المستشفى ليطبق الدروس عملياً أمامهم ويختبر فحصهم للمرض، وكان الطالب لا ينفرد بالمعالجة قبل أن يجيزه أستاذه بعد إجراء امتحان له يتقدم فيه برسالة في الفن الذي يريد التخصص في معافاته - كالتخصصات المتعارف عليها الآن - فإذا ما أحسن الإجابة في الامتحان أجاز له أسناده مزاوله مهنة الطب^(٣).

وتحقيقاً لغرض البحث والدراسة كانت تلك المؤسسات يتم تزويدها بالمكتبات الضخمة والآلات العلاج والجراحة فضلاً عن الأدوية والعقاقير وقد قيل أن الخليفة العباسي المقتدر هو أول من فرض الامتحان لمن يرغب في العمل بالطب ومنذ ذلك التاريخ على من يرغب في هذه المهنة أن يتقدم برسالة فيه إلى رئيس الأطباء ليجيزه للعمل وممارسة الطب^(٤).

وعن ظهور البيمارستان في مصر، فقد كان أولها البيمارستان الذي أنشأه أحمد بن طولون عام ٢٥٩هـ ووضع تحت تصرفه كمية كبيرة من العقاقير، وأسس به العديد من الحجرات المزودة بالمضاجع للمرضى وجعل أمامه مارستان آخر للنساء فضلاً عن حجرات خاصة بالغناء الواقع بين المستشفيات للمرضى من المجانين، ووظف ابن طولون الخدم به للاطمئنان

(١) سعيد إسماعيل: معاهد العلم، مرجع سابق، ص ٢٠٧: ٢١٠.

(٢) سامي نصار: مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٣) سعيد إسماعيل: معاهد التربية، مرجع سابق، ص ٢٢١.

(٤) سامي نصار: المرجع السابق، ص ١٣٣.

على راحة المرض وتقديم الطعام والدواء لهم — كما يفعل الممرضون الآن — وكان ابن طولون حريصاً على أن يفتش بنفسه على دقة العمل به^(١).

ثم كان البيمارستان الآخر الشهير وهو "البيمارستان المنصوري" الذي أقامه المنصور قلاوون بعد أن تم علاجه في أحدها بدمشق وأعجب بتلك المؤسسات، فأقام واحداً في مصر جعله للجميع وجعله أقسام تبعاً للأمراض المختلفة فقسم للمرد وآخر للجراحة وثالث للنساء وهكذا، وزوده بالأدوية والتراكيب الكيميائية والأطعمة والأشربة وزوده بالماء، وخصص به موقع لإلقاء دروس الطب، وهذا المارستان ظل قائماً إلى ما بعد حملة نابليون على مصر حيث وصفه أحد رجال الحملة وذكر عنه أنه يعتبر أشهر مارستان في الشرق وكان أفضل ما ذكر عنه أنه كان يتم إعطاء كل مريض وهو يشرع في الخروج منه خمس قطع من الذهب حتى لا يضطر إلى اللجوء للعمل الشاق في الحال، كذلك تمت مراعاة الجوانب النفسية للمرضى فقد كانت الموسيقى تعزف للمرضى ممن يشعرون بالضيق أو التوتر لتهدئة نفوسهم — مثلما يستخدم من وسائل في الطب النفسي الحديث الآن^(٢).

وقد كان لنشأة تلك المؤسسات أكبر الأثر — ولا شك — في ازدهار علوم الطب وإقبال العديد من الطلاب على دراسة الطب والعمل به ولا سيما للمنزلة الكبيرة التي كان يحظى بها مشاهير الأطباء عند السلاطين والأمراء في كافة أرجاء العالم الإسلامي.

الخوانق والزوايا والربط: وهذه الأماكن الثلاثة كان يطلق عليها مؤسسات الصوفية، حيث هي من الأصل مراكز للعبادة ولمجاهدة النفس بالتصوف. الخانقاه: وهي كلمة فارسية الأصل وتعنى البيت أو الدير، وكانت أقرب ما تكون في شكلها لمساجد الصلاة، وغالباً ما كانت تضم غرف لمبيت الصوفية والفقراء وساحة للصلاة ومكتبة للكتب وكان المتصوفة يعقدون فيها حلقات للدرس وبخاصة في الفقه واللغة العربية والتصوف، وقد كان لكل جماعة من المريدين شيخاً يشرف عليهم ويعلمهم، ومن أشهر هذه الخوانق في مصر وأقدمها خانقاه "سعيد السعداء" التي أوقفها صلاح الدين على فقراء الصوفية، وخانقاه السلطان بيبرس الجاشنكير وخانقاه الناصر محمد بن قلاوون والتي لا تزال قائمة لأن وتعرف "بالخانكة" وينفق على تلك الخوانق من الأوقاف التي يحددها أهل الخير لهذا الغرض^(٣).

(١) لين بول: مرجع سابق، ص ١٦٤.

(٢) سعيد إسماعيل: معاهد العلم، مرجع سابق، ص ٢٢٨: ٢٣٠.

(٣) حسان محمد حسان، نادبة جمال الدين: مدارس التربية في الحضارة الإسلامية، القاهرة، دار الفكر، ١٩٨٤، ص ٤٧.

الربط: وهو جمع رباط وكان في الأصل يستخدم ككنية حربية للجنود المرابطين في الثغور الإسلامية لحراستها من الأعداء وبعد أن استقرت أمور العالم الإسلامي بدأت الربط تضم الشيوخ والمريدين من المتصوفة، يقيمون بها ويتعلمون علوم الدين الإسلامي، وقد انتشرت الربط في العالم الإسلامي لدرجة إنشاء ربط خاصة بالنساء أيضاً ممن يرغبن في الانقطاع للدراسة والعبادة وكانت مظاهر العبادة في الرباط تشمل أيضاً نسخ الكتب الدينية وتوزيعها مجاناً على طلاب العلم، كذلك كان العلماء والأطباء يرابطون بها لفترة من كل عام للدراسة وتدريس العلم احتساباً لوجه الله تعالى^(١).

الزوايا: ويقصد بها الجانب أو الركن من المسجد وكانت غالباً ما تكون من نواحي المساجد الكبرى كالزوايا التي عرفت في جامع عمرو بن العاص، وكانت تعقد فيها الحلقات العلمية وكانت كل زاوية تنسب أما إلى عالمها الرئيسي كزاوية الشافعي أو إلى المذهب الفقهي الذي يدرس بها كان يقال زاوية الشافعية أو زاوية المالكية وما إلى ذلك، وكان بناء الزاوية أقرب ما يكون للدير أو المدرسة، وكانت أيضاً تستخدم لأغراض العلم والعبادة معاً^(٢).

وبالإضافة إلى تلك المؤسسات التعليمية الرئيسية وجدت بعض المؤسسات الأخرى التي كان لها دوراً ولا شك في العملية التعليمية منها منازل العلماء وحوانيت الوارقين، كذلك المؤسسات الحرفية - السابق الإشارة إليها - فضلاً عن القلعة للتربية العسكرية للمماليك وكل تلك المؤسسات وإن أشارت إلى شيء ما فهو مدى اتساع وإزدهار الثقافة الإسلامية، والتي أفرزت معالمها في حضارة كبيرة قوية غزت أرجاء العالم بعلمها وأفكارها فنهل منها الغرب وأخذوا من كتب علمائها والتي ظلت تدرس بجامعاتهم لقرون عدة كما أثبتت الدراسات التاريخية.

وخلاصة القول أن معاهد التعليم في الإسلام ظهرت في كنف الإسلام وتطورت بتطوره ووفقاً لتعدد الاحتياجات المعيشية فكانت ملبية لكافة الاحتياجات الدينية والعقلية والعلمية وحتى الصحية والمعيشية فكانت مثلاً ونموذجاً لحضارة عظيمة بدأت صغيرة وأخذت في التطور والقوة والإزدهار حتى صارت أكبر الحضارات العالمية وقتئذ.

تعقيب:

وبعد أن نعمت مصر الإسلامية بحياة حضارية رائعة كانت مقياساً في كتابات كافة المؤرخين والرحالة حتى العصر المملوكي بها، بدأ ظهور التغيير مع نهايات حكم المماليك في مصر حين بدأ ظهور العثمانيين الذين

(١) المرجع السابق: ص ٤٧.

(٢) سعيد إسماعيل: معاهد التعليم، مرجع سابق، ص ٢٥٤ وما بعدها.

تمكنوا من التغلب على البيزنطيين وسقطت القسطنطينية في أيديهم، فاحتفل معهم العالم الإسلامي بهذا النصر ومنه مصر، إلا أن سقوط القسطنطينية زاد من أطماع العثمانيين فطلعوا لحكم العالم الإسلامي وبدعوا في فتوحاتهم حتى توجهوا إلى مصر - قلب العالم الإسلامي آنذاك - وتمكنوا من دخولها بعد أن ضعفت أحوال المماليك بها، وتسببت الانقسامات والخيانات من هزيمة الغوري في "مرج دابق" عام ١٥١٦م ثم طومان باي في "الريدانية" عام ١٥١٧م والتي انتهت بشنقه، ومن ثم سقوط الدولة المملوكية وخضوع مصر وسوريا للحكم العثماني^(١).

وما أن وقعت مصر تحت الحكم العثماني حتى أخذت أحوال البلاد في التغير، ونظراً لأن العثمانيين وإن كانوا مسلمين فقد كانوا أتراكا بعيدين عن اللغة والثقافة العربية وربما حتى عن روح الإسلام، فبدأت لذلك تظهر مظاهر الإهمال والتدهور في البلاد المحكومة ومنها مصر ولم يقتصر التدهور على المجالات الاقتصادية والمالية بل تعداها للنواحي العلمية والثقافية، وأدت مظاهر الاستغلال والسلب والاستنزاف لموارد البلاد إلى ظهور أشكال من النزاع والمنافسة بين بقايا الحكومات السابقة كفئات المماليك في مصر وبين عناصر الحكم العثماني فبدأ الضعف والدمار يشمل العديد من أركان الكيان المصري^(٢).

وليس أدل على ذلك من أن السلطان سليم الأول وبرغم أنه لم يمكث في مصر سوى ثمانية أشهر ليسن بها النظم الإدارية، إلا أنه في تلك الفترة قام بنقل أنفس ما وجده بها إلى القسطنطينية فنقل أكثر محتويات القلعة ومنازل الأمراء والسلاطين فضلاً عن المساجد الكبرى والزوايا والأربطة من ذخائر وكتب وحتى الأعمدة الرخام، ليس هذا فحسب بل أنه أخرج من مصر أكثر العلماء والقضاة ليذهبوا للقسطنطينية فضلاً عن رؤساء الصناعات المشهورين بإجادة العمل، حتى لقد قيل أنه قضى بفعلته تلك على نحو خمسين صناعة في مصر مما كان سبباً حتى في تأخر مجال الصناعات في مصر^(٣).

ولقد أفرزت مظاهر الضعف والتأخر أثارها على الحياة التعليمية في مصر كذلك فانكشفت فيها إلى درجة كبيرة واقتصر على العلوم الدينية وأهملت الآداب والعلوم العقلية واقتصر التعليم على الكتاتيب وبعض المساجد ولا سيما الأزهر وقلت أعداد المتعلمين كذلك، وحتى الحرف والصناعات أضمحلت إلى أن اقتصر على بعض أنواع الصناعات اليدوية البسيطة، أما المماليك فقد ظل تعليمهم العسكري داخل طباق القلعة وأن قل أيضاً بدرجة كبيرة، وأدى انهيار النظام التعليمي واقتصار التعليم على الأزهر إلى

(١) أحمد شلبي، مرجع سابق، ص ٢٨١: ٢٨٣.

(٢) سعيد إسماعيل: تاريخ التربية، مرجع سابق، ص ٢٦٥.

(٣) أحمد شلبي: مرجع سابق، ص ٢٨٣.

اضمحلال العلوم واقتصار تعليم الشيوخ فيه على بعض الكتب القليلة يتم فرض ما بها على الطلاب وبدأ الدجل والسحر يدخل إلى أعماق الشعب^(١). فانهارت الحضارة العظيمة التي بهرت الرحالة وأفردوا دراساتهم لوصفها وأخذ الشعب المصري يضح بأحواله وبدأ يثور من أن لآخر، وظلت مصر في هذا العناء حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فكانت مؤشراً ونذيراً بضرورة التغيير.

(١) سعيد إسماعيل: تاريخ التعليم، مرجع سابق، ص ٢٧٠: ٢٨١.

تعقيب على الباب الأول:

قد ظهر من خلال الدراسة التتبعية لسمات ومعالم تاريخ التربية في مصر منذ بدء الحضارة بها وحتى مشارف التاريخ الحديث بعض السمات والملاحم العامة التي ظهرت في العصور المختلفة لها والتي يمكن إجمالها في الآتي:

١- الإزدواجية في التعليم:

وهو الشكل التعليمي الذي ظهر في الحضارة المصرية القديمة وظل قائماً في التاريخ المصري والذي اتسم عادة بوجود نظامين تعليميين رئيسيين أحدهما هو التعليم الديني (ويشرف عليه رجال الدين) الى جوار النظام التعليمي العام أو ما كان يطلق عليه في العصور القديمة التعليم العقلي، وقد استمرت تلك الصورة قائمة طوال العهود الفرعوني ، اليوناني الروماني ، البيزنطي (القبطي). ثم اندمج النموذجين داخل نظام تعليمي واحد متكامل في الحضارة الإسلامية قبل أن يعود للانقسام ثانية بين تعليم أزهرى ديني وآخر مدرسي في أواخر عهد الحضارة الإسلامية وعلى مشارف التاريخ الحديث.

٢- تبيجيل المصريين للعلم والعلماء:

فقد ظهر طوال العهود التاريخية إعلاء المصري من مكانة العلم والعلماء وكذلك المتعلمين، ولعل ذلك راجع بالدرجة الأولى لارتباط العلم عندهم بصورة رئيسية بشخصية رجال الدين فقد كان الكهنة هم حماة العلم المصري في العهد الفرعوني واليوناني، ثم رجال الكنيسة في العهد الروماني البيزنطي (القبطي) ثم الصحابة ورجال الدين في حضارة الإسلام، لذلك ظل العلماء ورجال العلم يمثلون طبقة خاصة من الصفوة المتعلمة على طوال التاريخ المصري القديم، وأدى ذلك لرغبة المصريين في التعليم للالتحاق بتلك الصفوة والحصول على امتيازاتها والارتفاع عن الأعمال اليدوية والحرفية.

٣- التربة المصرية أرض مبدعة:

وهو مما لا شك فيه — ورغم ما قيل من إدعاءات كثيرة حول أن أهل مصر في الكثير من عصورهم كانوا مجرد متلقين لما فرض عليهم من سلطة المحتل — حيث ظهرت الابتكارات والإبداعات المصرية في كافة العهود ففي مجال العلوم أبدعت الأرض المصرية علوم الكيمياء والفلك والصيدلة وعلمتهم للعالم، وفي مجال النظم التعليمية الخاصة فقد أفرزت نظم عديدة كان لها دور كبير في مجالات العلم والثقافة ولا سيما الثقافة الدينية فأفرزت الرهينة والديرية ثم المؤسسات الصوفية وعلم التصوف وعلمت العالم هذه الاتجاهات.

٤- التعليم الفني المتميز:

والذي ثبت من معالم الحضارة المصرية عبر عصورها المختلفة أن تلك الصناعات لم ينظر إليها على أنها مجرد صناعات وإنما كانت مهن ذات نظم تعليمية وتدريبية قوية طوال عصورها يشترط فيها طرق التدريب والتعليم وتحدد سمات المتعلم وما إلى ذلك في صور علمية مقننة، أدت إلى إبداع حضارة لازالت قائمة شاهداً على مهارة ودقة الفنان المصري حتى الآن.

٥- الأرض المصرية هي مركز حفظ التراث العلمي والثقافي:

وهي السمة الغالبة عليها طوال العصور فكما حفظت معالم حضارتها القومية عبر العصور ومنعت دخول المتغيرات عليها حيث اسلمتها لأحفادها الأقباط في العصر البيزنطي، كانت مراكزها الثقافية والتعليمية الهلينية - فضلاً عن كونها أكبر المراكز العلمية في العالم القديم - هي الوحيدة التي استمرت تنقل هذه العلوم والمعارف بعد إغلاق المؤسسات الوثنية في العالم لقرون عدة، كذلك حملت لواء التعليم الديني المسيحي منذ بداية عهد المسيحية فيها وحتى إلى ما بعد اندثار الآثار الثقافية والعلمية في العالم المسيحي الغربي بعد سيطرة الغزاة عليه ظل التراث المسيحي قائماً على الأرض المصرية حتى نقلت من علومه ومعارفه الكثير للحضارة الإسلامية التي ضمت بين جنباتها كافة العلوم والفنون ثم كانت مصر هي المركز الحامي للحضارة الإسلامية ومركز الإزدهار العلمي والمعرفي للعالم الإسلامي بعد تفكك أرجاءه وتعرضه للأخطار الخارجية من تثار وصلبيين والثورات والانقسامات المذهبية والحزبية الداخلية بقت مصر منارة الحضارة الإسلامية التي يلجأ للملاذ في أرضها كل عالم وطالب علم وهو التراث الذي حفظته بسماته الخالصة إلى وقتنا الحالي عن طريق الأزهر الشريف - أكبر جامعة إسلامية في العالم -.

ومما سبق يتضح أن مصر قد حظيت على مر عصورها المختلفة بمدرسة مصرية ذات سمات تربوية واضحة وقوية المعالم - مهما تغيرت عليها الحكومات أو السياسات - ظلت حريصة على حفظ سماتها الشخصية والقومية لأبنائها معبرة من خلالها عن الحضارة المصرية الشامخة.